أسرار إعجاز القرآن

بقلم

دكتور

جمال مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

في كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر

القاهرة

الطبعة الأولي

١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾.

(سورة الإسراء : آية ٨٨)

الإهداء

* إلى من اختار لى طريق القرآن .

وكان قرة عينه أن يرانى من رجال الأزهر الذين يحملون القرآن ، ويبلغون لفظه وتفسيره للناس ، ويذبون عنه أمام كيد الحاقدين.

* إلى من لا أجد فى لغة العرب ، أو فى غيرها ، ما يوفيه حقه .

إليك والدى العزيز ،

أهدى هذا الكتاب سائلا المولى عز وجل أن يطيل فى عمرك ، ويمنحك تمام العافية ، ويجعل خير أعمالك خواتيمها ، وخير أيامك يوم لقائه ، وأن يظلنا سويا مع آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وذرياتنا فى ظل القرآن ، يوم يرقى القرآن بأهله إلى أعلى عليين.

ابنك محب القرآن
جـمـال

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونستعيذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

وأشهد أن لا إله الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا وأسوتنا محمدا رسول الله ، صل اللهم وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، عدد خلقك ، ورضا نفسك ، وزنة عرشك ومداد كلماتك ، وعدد معلوماتك ، كلما ذكرك الذاكرون ، وغفل عن ذكرك الغافلون.

أما بعد.

فبعد فترة من الرسل ، وانقطاع من الوحى وتخبط شديد من الإنس والجن ، فى ظلمات الكفر والجهل والضلال ، وبعد أن استحقت شعوب الأرض كلها - عربها وعجمها - مقت الله وغضبه ، إذا بالرحمن الرحيم ، يتدارك الخلق برحمته ، ويغيثهم بنعمته ، ويرسل إليهم من قال فى شأنه

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (١)

أرسل إليهم خير من أنجبته الأمهات ، وأقلته الأرض ، وأظلته السموات ، سيدنا محمدا بن عبد الله ، عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات .

صنعه الله على عينه ، واصطفاه على خلقه ، ليبلغهم منهج ربهم ، الذى فى ظله يسعدون وينعمون ، وفى البعد عنه يشقون ويعذبون .

ومن البدهى أن يكون لهذا النبى آية تدل على صدقه فيما يدعيه ، ومعجزة تجعل أمته تتبعه على هدى وبصيرة ، شأنه فى هذا شأن جميع الأنبياء .

قال رسول الله ﷺ:

« ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا

(١) الأنبياء : ١٠٧

يوم القيامة »[٢]

والمقصود من الوحي في هذا الحديث – كما هو ظاهر ومعلوم – القرآن الكريم فهو آية واضحة تدل على صدقه ﷺ في أنه رسول ، ومعجزة ظاهرة عجز الخلق كله عن قبول تحديها ، ومعارضتها ، مما جعل من السهل على أى قارىء منصف لهذا القرآن أن يؤمن بأنه كلام الله تعالى .

فمن السهولة بمكان على قارىء أى كتاب أن يحكم عليه ، وعلى كاتبه ، فيصف الكتاب بما يستحقه ، وكاتبه بما هو أهله ، بل يستطيع أن يصل إلى مزاج الكاتب ، وميوله ، ونزعاته ، وأهدافه.

فها هى ذى فيلسوفه نصرانية من إنجلترا تتحدث عن إحساسها حينما قرأت القرآن بتدبر ، فتقول[٣] :

« لن أستطيع مهما حاولت أن أصف الأثر الذى تركه القرآن فى قلبى ، فلم أكد أنتهى من قراءة السورة الثالثة من القرآن ، حتى وجدتنى ساجدة لخالق هذا الكون ، وكانت هذه أول صلاة لى فى الإسلام .» ا. هـ

نعم ، إن من اليسير على أى قارىء للقرآن أن يشعر بأن قائله هو الله ، لأنه يحس – بصدق – أن ذلك القائل إنما يتحدث إلى الخلق من عل ، حديث الذى يعلم السر وأخفى ، حديث الضمائر ، وخفايا الصدور ، حديث الذى يعلم ما يصلح وما يفسد ، حديث الخالق للخلق، وعن الخلق ، وعن ذاته عز وجل ، وصفاته العلى ، حديث من قضى وقدر ، وأحسن فصور ، ورعى فكبر.

يحس بحديث هو غاية فى القوة ، التى لا تَعَمُّل فيها ولا تصنُّع ، وغاية فى التمكن من النفس التى يخاطبها ، حيث يصل إلى موضع التأثير فيها ، فلا تملك أن تدافع تلك القوة ، التى تغشاها ، أو تصمد أمام القدرة التى تتخلل ثناياها.

---

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن ، باب (١) ، ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب (٢٣٩) واللفظ له .

(٣) كما نقل عنها صاحب كتاب قالوا عن الإسلام د/ عماد الدين خليل : ٨٨

أقول هذا الكلام ، وأحكم بهذا الحكم ، عن جزم ويقين ، لا عن تقليد دنيوى لأحد من العالمين ، أو عن تأثر دينى ورثته عن الوالدين والأقدمين.

فهذا الحكم يحكم به كل من كان سليم الصدر ، خاليا من كل كدر، متجردا من كل هوى. وها هم المنصفون من الكفار ، منذ عهد النبوة إلى الآن ، وإلى يوم الدين يدركون هذه الحقيقة ، ويشهدون أن هذا القرآن لا يمكن أن يخرج من لسان بشر ، وإنما صدر عن خالق القوى والقدر، فلم يملكوا - فى لحظة إنصاف - إلا الاعتراف ، وإن أصر بعضهم بعد ذلك على الانحراف ، قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾(٤)

فهذا الوليد بن المغيرة حينما طلب منه أن يقول فى القرآن قولا ، يرضى به كفار قريش ، بعد اعترافه بأنه ليس من كلام أحد من الخلق ، فكر وقدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر، وبعد ذلك كله لم يجد وصفا به يصف القرآن إلا قوله ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾(٥)

إن الوليد بعد إعمال عقله ، وكد ذهنه ، واختياره صفة السحر للقرآن ، حاول أن يكون منطقيا ، أو متظاهرا بذلك أمام الناس ، ليجد له ولهم مبررا للكفر به ، لأنه رأى أن القرآن يفعل فى النفوس ما يفوق سحر السحرة . وخدع الحواة وأساليب الدجالين .

وتمر القرون تلو القرون ، ويتقدم العلم ، وتتطور الحضارات ، وينكشف للناس الكثير والكثير من أسرار هذا الكون العظيم ، وإذا بهذا التقدم العلمى ، وتطور الحضارات ، وكثرة الاكتشافات ، إذا بذلك كله يؤكد للناس تلك الحقيقة التى لامراء فيها ، وهى أن القرآن من عند الله ، وليس من عند محمد أو غيره من خلق الله .

يقول « دى كاسترى » المقدم فى الجيش الفرنسى :

« إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى ، وقد

---

(٤) النمل : ١٤

(٥) المدثر : ٢٤

اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها ، وكفى رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب ، فآمن برب قائلها وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع ، لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم ، وما جاء في ولادة يحيى ، وصاح القسس : إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى عليه السلام

لكن نحن معشر الأوربيين لا يسعنا أن نفقه معانى القرآن ، كما هى ، لمخالفته لأفكارنا ، ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا ، غير أنه لا ينبغى أن يكون ذلك سببا فى معارضة تأثيره فى عقول العرب »[٦]

ويقول المستشرق الأمريكى « إيرفنج »:

« كانت التوارة فى يوم ما ، هى مرشد الإنسان ، وأساس سلوكه ، حتى إذا ظهر المسيح علية السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل ، ثم حل القرآن مكانهما ، فقد كان القرآن أكثر شمولا وتفصيلا ، من الكتابين السابقين كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين ، من تفسير وتبديل ، حوى القرآن كل شىء ، وحوى جميع القوانين ، إذ أنه خاتم الكتب السماوية.»[٧]

ويقول الطبيب الفرنسى «موريس بوكاى»:

« وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكتشف فى القرآن أى خطإ ، وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنسانا كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى ، أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديث؟

ليس هناك أى مجال للشك ، فنص القرآن الذى نملكه اليوم هو فعلا نفس النص الأول.

ما التعليل الإنسانى الذى يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة؟

---

(٦) قالوا عن الأسلام : ٦٢

(٧) قالوا عن الأسلام : ٥٠

في رأيي – إذ ليس هناك سبب خاص « يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية ، في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك « داجوبير » استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية ، فيما يخص بعض الموضوعات .

ومن الثابت فعلا أن في فترة تنزيل القرآن ، أي تلك التي تمتد على عشرين عاما تقريبا ، قبل وبعد عام الهجرة ٦٢٢ م كانت المعارف العلمية في مرحلة ركود منذ عدة قرون » (٨)

فالقرآن الكريم إذًا هو الآية الباهرة ، والمعجزة الخالدة ، لخاتم الأنبياءوالمرسلين.

ولكن بأي شيء – في القرآن – أعجز الله خلقه ، فلم يستطيعوا الاتيان ولو بمثل سورة واحدة منه ؟ وما هي الأسرار الكامنة فيه التي جعلته فوق قدرة البشر ، وفوق مستوى النقد ؟

إن الجواب عن هذا السؤال هو موضوع كتابنا هذا ، والذي أسميناه

« أسرار إعجاز القرآن »

حيث تعرضت فيه لعدة مباحث ، من زوايا خاصة ، بما يجعل أي منصف ، متجرد من الهوى ، يقتنع تماما بأن هذا القرآن كلام الخالق البارىء ، سبحانه وتعالى.

أما من أغمض عينيه ، وجعل لقلبه قفلا ، وفي أعناقه أغلالًا فمالنا عليه من سبيل .

ورحم الله البحتري حيث يقول:

أهز بالشعر أقواما ذوي سنة ... لو أنهم ضربوا بالسيوف ما شعروا
عليَّ نحت القوافي من مقاطعها ... وما عليَّ أن تفهم البقر

ورحم الله المتنبي أيضا ، حيث يقول:

---

(٨) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : ١٤٥

وكم من عائب قولا صحيحا   وآفته من الفهم السقيم

وإني حين أتحدث عن موضوع مثل موضوع الإعجاز، فإني أعترف بأني وغيري لا يستطيع أن يقارب معشار معشار ما يستحقه، فالإعجاز موضوع يعجز عن توفية حقه الأولون والحاضرون والآخرون.

ولكنها محاولات لتكبير الصورة بقدر ما آتى الله كل مصور لهذا الموضوع.

فالعاطفة متأججة، والقلب مليء بالكثير، والمشاعر متدفقة، بعضها يختلط ببعض، وبعضها يدفع البعض الآخر.

فالله أسال أن يصاحبنى فى هذا الكتاب، فما كان فيه من توفيق فى انتقاء المشاعر، واصطفاء المعلومات، وإخراج ذلك بالصورة اللائقة فمن الله، وما كان من غير ذلك فمرده إلى تقصيرى وجهلى وظلمى نفسى، وكسب يدى، فاللهم وفق، وسدد، وتقبل.

ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا وإليك المصير.

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشدا

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه، بما يليق وكرمك يا أكرم الأكرمين.

محب القرآن وأهله

د/ جمال مصطفى عبد الحميد عبد الوهاب النجار

الأستاذ المساعد فى كلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة

مدينة فايد ... محافظة الإسماعيلية

الباب الأول

المعجزة وثبوتها
للرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

المعجزة ودلالتها
والفرق بينها وبين الكرامة والسحر

المعجزة ودلالتها

المعجزة فى اللغة

المعجزة فى اللغة مشتقة من الإعجاز ، يقال أعجزه إعجازا ، فهى اسم فاعل ، والهاء للتأنيث ، أو للمبالغة.

يقول الحافظ ابن حجر : « والهاء فيها للمبالغة، أو هى صفة لمحذوف»[1]

يقول ابن منظور : « العجز نقيض الحزم ، والعجز الضعف ، والإعجاز الفوت والسبق ، يقال أعجزنى فلان ، أى فاتنى.

وقال الليث : «أعجزنى فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه » ويقال عجز يعجز عن الأمر : إذا قصر عنه . والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء.»[2]

المعجزة اصطلاحا

أما المعجزة فى اصطلاح العلماء فهى: « أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مدع للنبوة يتحدى الخلق أن يأتوا بمثله ، فلا يستطيعون »

يقول الباقلانى فى كتابه « الإنصاف » :

« المعجزات هى أفعال الله تعالى الخارقة للعادة ، المطابقة لدعوى الأنبياء ، وتحديهم للأمم بمثل ذلك.»[3]

سبب هذه التسمية : من خلال التعريف اللغوى والاصطلاحى يظهر لنا بوضوح سبب تسمية هذا الأمر الخارق للعادة باسم المعجزة. حيث يعجز الخلق عن الإتيان بمثل ما أظهره الله على يدى نبيه.يقول ابن حجر : « وسميت المعجزة لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها»[4]

---

(١) فتح البارى : ٣٧٥/٦ المطبعة الخيرية

(٢) لسان العرب (عجز)

(٣) الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به : ٦١ ط الخانجى

(٤) فتح البارى : ٦/ ٣٧٥ الخيرية

القرآن لم يستخدم لفظ « المعجزة »
فيما ظهر على يد الأنبياء

المتأمل في القرآن يرى أن لفظ « المعجزة » أو « الإعجاز » لم يستخدم في معنى ظهور خوارق العادات على أيدي الأنبياء ، وإنما استعمل لفظ « آية » و « بينة » و « برهان » و « سلطان » كقوله تعالى : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ (٥)

وكقوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ (٦)

وكقوله تعالى : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾ (٧)

وكقوله تعالى : ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ (٨)

وإنما جاء التعبير القرآني بهذه الألفاظ دون لفظ المعجزة ، لأن لفظ المعجزة قد يفهم منه عجز القوم عن الإتيان بمثل هذا الأمر الخارق فقط أما ألفاظ الآية والبينة والبرهان والسلطان في جانب الأنبياء فتزيد على العجز معنى آخر ، وهو كون هذا الخارق الذي عجزوا عن مثله علامة بينة على صدق النبي ، وبرهانا ساطعا على عدم كذبه ، وحجة قاهرة ، لا سبيل لهم في إنكار كونها من عند الله ، وإن أنكروا فبلسانهم ، أما قلوبهم فمستيقنة بصدقها.

قال تعالى عن بني إسرائيل وموقفهم من معجزات موسى عليه السلام:
﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ (٩)

---

(٥) البقرة : ٢١١
(٦) الأعراف : ٧٣
(٧) القصص : ٣٢
(٨) إبراهيم: ١٠
(٩) النمل : ١٣ ، ١٤

متى ظهر مصطلح إعجاز القرآن ؟

أما استعمال مصطلح المعجزة القرآنية ، أو الإعجاز القرآني ، فلم يرد إلا بعد العهد النبوى ، أثناء تدوين العلوم.

يقول الحمصى : « وأول كتاب عنون باسم « إعجاز القرآن» فيما نعلم هو كتاب محمد بن يزيد الواسطى، المتوفى سنة ٣٠٦ هـ ومن الواضح أنه ألف فى أواخر القرن الثالث من الهجرة ، أو فى مطلع القرن الرابع ، وقد وردت فيه كلمة (معجزة) ، ثم أخذت كلمات (آية ، وبرهان ، وسلطان) تقل بعد ذلك فى الاستعمال ، وتحل محلها كلمة (معجزة) ، فى بحث مسألة النبوة ، وقضية الإعجاز.

ومن أصعب الأمور الآن أن نبين الأطوار والمراحل ، التى مرت بها كلمتا (معجزة وإعجاز) ، ولكن من الواضح البدهى أنهما استمدتا معنييهما الاصطلاحيين ، من تتابع استعمالهما ، وكثرة المناقشة فيهما ، مع مرور الزمن ، ومن الاسترسال فى فهم أقصى ما تدل عليه كلمة معجزة من معان . » (١٠)

ومعلوم أن كتاب الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، والذى يعتبر أول ما صنف فى هذه القضية كان اسمه « نظم القرآن » ، رد به على أستاذه النظام ، القائل بأن القرآن معجز بالصرفة لا بالنظم.

شروط المعجزة

من التعريف الاصطلاحى السابق للمعجزة ، نستطيع أن نستخلص شروطها ، كالآتى:

١ - أن تكون أمراً خارجا عما ألفه الناس ، وعن نظام الكون وسننه. ويشمل هذا ما كان من قبيل القول أو الفعل أو الترك. فمما هو من قبيل القول : القرآن الكريم ، وحنين الجذع ، وتسبيح الطعام . ومما هو من قبيل الفعل :

---

(١٠) فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصى : ٨

تكثير الطعام القليل ، ونبع الماء من بين الأصابع . ومما هو من قبيل الترك : ترك النار إحراق سيدنا إبراهيم عليه السلام.

٢ - أن يقع هذا الأمر الخارق بأمر الله تعالى ، ابتداء ، أو طلبا من النبى ، فليس للنبى فى المعجزة أى جهد. قال تعالى : ﴿ وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ﴾(١١)

وقال أيضا : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾(١٢)

وقال أيضا : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾(١٣)

٣ - أن تظهر على يد مدع للنبوة ، فما يظهر من خارق على يد ولى صالح فليس بمعجزة ، وإنما هو كرامة .

٤ - ألا تكون قبل ادعاء النبوة ، وإلا كانت إرهاصا ، فما يحدث من خوارق للأنبياء قبل نبوتهم لا يكون معجزة ، وإنما هو إرهاص ، تمهيدا لنبوتهم ، كما حدث من تظليل الغمامة على رسول الله ﷺ أثناء سفره إلى الشام ، للتجارة . وإنما لم يكن الأمر الخارق قبل النبوة معجزة ، لأن المعجزة بمثابة الشاهد على ادعاء النبى نبوته ، وهو فى ذلك الوقت لم يدعها.

٥ - أن يحصل التحدى من هذا النبى ، ويشمل هذا التحدى :

أ - الصريح ، كما فى قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ (١٤)

ب - والحكمى ، وهو ما يقع من خارق على يد مدع للنبوة ، دون أن يطلب من قومه صراحة الاتيان بمثله ، ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله ، كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ.

وبعض العلماء يفرق بين الخوارق التى تكون بالتحدى ، والخوارق التى لا تكون به ، حيث يطلقون على الأولى معجزات ، وعلى الثانية علامات النبوة ،

---

(١١) الأعراف : ٢٠٣

(١٢) الرعد : ٣٨ ، وغافر : ٧٨

(١٣) العنكبوت : ٥٠

(١٤) البقرة : ٢٣

كما فعل الإمام البخارى حينما وضع لهذا القسم الثانى عنوانا باسم « باب علامات النبوة » ، وعلق الحافظ ابن حجر على هذا العنوان بقوله :

« العلامات جمع علامة ، وعبر عنها المصنف لكون ما يورده من ذلك أعم من المعجزة والكرامة ، والفرق بينهما أن المعجزة أخص ، لأنه يشترط فيها أن يتحدى النبى من يكذبه » (١٥)

٦ - أن يعجز من يتحداهم النبى عن الاتيان بمثل هذه المعجزة .

٧ - أن يأتى الخارق موافقا للدعوى ، فلو طلب منه انشقاق القمر مثلا ، فظهرت الشمس ليلا ، لم يكن ذلك دليلا على صدقه .

٨ - أن لا يكذب الخارق هذا المدعى ، فلو قال : آية صدقى أن يتكلم هذا الحمار كما يتكلم الإنسان ، فنطق وقال إنه كاذب فى دعواه النبوة ، لكان كاذبا فى هذه الدعوى .

دلالة المعجزة

حينما يبعث الله نبيا إلى قومه ، فلا بد من إقناعهم بصدق نبوته، وإلا ادعى النبوة كل من سولت له نفسه ذلك ، وحينئذ يحار الناس فى أمرهم ، حيث لا يستطيعون أن يميزوا الأنبياء من السفهاء ، أو يفرقوا بين الصادقين والأدعياء .

وفى ضرورة هذه المعجزة لكل نبى ، يقول رسول الله ﷺ :

« ما من نبى من الانبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (١٦)

وعلى ذلك : فالمعجزة التى تقع على يد النبى إنما هى بمثابة قول الله تعالى للناس : صدق عبدى فيما يبلغ عنى ، فاتبعوه ولا تخالفوه .

---

(١٥) فتح البارى : ٦/ ٣٧٥

(١٦) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن ، باب (١) ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب (٢٣٩)

القرآن ينص على وجه دلالة المعجزة

وقد تضافرت النصوص القرآنية على وجه دلالة المعجزة ، ومن هذه النصوص ما يلي :

١ - قوله تعالى عن ناقة صالح عليه السلام : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾(١٧)

٢ - وفى شأن معجزات موسى عليه السلام يقول تعالى:

أ- ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾(١٨)

ب - ويقول أيضا : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾(١٩)

٣ - وفى شأن معجزات عيسى عليه السلام يقول تعالى

(ا) ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾(٢٠)

(ب) ويقول أيضا : ﴿ وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾(٢١)

وفى شأن رسول الله ﷺ والقرآن يقول تعالى:

(ا) ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾(٢٢)

(ب) ويقول أيضا : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات

---

(١٧) الأعراف : ١٢

(١٨) النمل : ١٢

(١٩) القصص : ٣٢

(٢٠) آل عمران : ٤٩

(٢١) المائدة : ١١٠

(٢٢) النساء : ١٧٤

عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾(٢٣)

٥ – وفى شأن معجزات كل الرسل يقول تعالى:

(ا) ﴿فإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾(٢٤).

ب – ويقول أيضا : ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ (٢٥)

فقد أطلق الله فى هذه النصوص على معجزات الأنبياء ألفاظ « آية » و « بينة » و «برهان».

لأن الآية فى اللغة تستعمل بمعنى العلامة ، كقوله تعالى﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾(٢٦) ، والمعجزة علامة على صدق النبى فى دعواه النبوة.

و»البينة » فى اللغة مأخوذة من بان الشىء ، إذا اتضح ، والمعجزة علامة واضحة على صدق النبى .

و « البرهان » فى اللغة يطلق على أوكد الأدلة ،

يقول الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن:

« فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذى يقتضى الصدق أبدا لا محالة»(٢٧)

والمعجزة بهذا التحدى أوكد دليل على صدق النبى.

فالمعجزة بهذا المفهوم ، وبكونها آية وبينة ، وبرهانا على صدق النبى توجب على أمة النبى اتباعه فى كل ما جاء به ، والإيمان بكل ما يخبر به.

ولذا جاء فى الحديث « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما

(٢٣) العنكبوت : ٥٠، ٥١

(٢٤) آل عمران : ١٨٤

(٢٥) فاطر : ٢٥

(٢٦) البقرة : ٢٤٨

(٢٧) مفردات القرآن (برة) ص: ٥٨ ط الإنجلو المصرية

مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (٣٨)

فإن لم تؤمن أمة النبى به بعد ظهور المعجزة ، فقد استوجبت عقاب الله عز وجل.

قال تعالى : ﴿ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ (٣٩)

﴿ والسنة تنص على وجه دلالة المعجزة ﴾

وإذاكان القرآن قد نص على وجه دلالة المعجزة ، وأنها بمثابة الشاهد على صدق النبى فى دعواه النبوة ، فإن السنة قد نصت على ذلك أيضا ، فى مواضع كثيرة ، منها ما يلى:

١ - ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال حينما اشتد الغرماء فى حقوقهم بعد قتل أبيه يوم أحد: « فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فسألهم أن يقبلوا ثمر حائطى ، ويحللوا أبى ، فأبوا ، فلم يعطهم ، ولم يكسره لهم ، ولكنه قال : سأغدو عليك إن شاء الله.

فغدا علينا حين أصبح ، فطاف فى النخل ، فدعا فى ثمره بالبركة ، فجددتها ، فقضيتهم حقوقهم ، وبقى لنا من ثمرها بقية ، ثم جئت رسول الله ﷺ ، وهو جالس فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : اسمع - وهو جالس - يا عمر ، فقال ألا يكون ، قد علمنا أنك رسول الله ، والله إنك لرسول الله » (٣٠)

٢ - أخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أو عن أبى سعيد - شك الأعمش - قال:

« لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا يارسول الله لو أذنت لنا

---

(٢٨) سبق تخريجه

(٢٩) البقرة: ٢١١

(٣٠) البخارى : كتاب الهبة ، باب : إذا وهب دينا على رجل

فنحرنا نواضحنا (٣١) ، فأكلنا وادهنا ، فقال رسول الله ﷺ : افعلوا ، قال : فجاء عمر فقال : يا رسول الله ، إن فعلت قل الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل فى ذلك . فقال رسول الله ﷺ : نعم .

قال : فدعا بنطع (٣٢) فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، قال : فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ، قال : ويجىء الآخر بكف تمر ، قال : ويجىء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير ، قال : فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة ، ثم قال : خذوا فى أوعيتكم ، قال : فأخذوا فى أوعيتهم ، حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه.

قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة.» (٣٣)

وهكذا لا بد من دليل فى غاية القوة والوضوح ، يؤيد النبى فيما يدعيه ، حتى لا يكون الأمر فوضى .

ومن المعلوم والبدهى أنه من المحال أن يؤيد الله كاذبا بأمر خارق ، لأن هذا الخارق شهادة بصدق مدعى النبوة ، والله يستحيل أن يشهد بكذب ، أو يؤيد من اتصف به .

الكرامة والفرق بينهما وبين المعجزة

ومن الجدير بالذكر أثناء الحديث عن المعجزة ، أن نتحدث عن الكرامة نظرا لوجود قدر مشترك بينهما ، وهو الأمر الخارق للعادة..

---

(٣١) النواضح من الإبل : التى يستقى عليها.
(٣٢) بساط متخذ من أديم
(٣٣) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان ، باب (٤٥) واحمد فى المسند ٣/ ١١

الكرامة فى اللغة

والكرامة فى اللغة تعنى أن مصدرا ما تكرم بكرمة على غيره قال ابن منظور : « الكريم من صفات الله وأسمائه ، وهو الكثير الخير ، الجواد المعطى ، الذى لا ينفذ عطاؤه ، وهو الكريم المطلق ، والكريم : اسم جامع لكل ما يحمد .

وأكرم الرجل وكرمه : أعظمه ونزهه.

والكرامة : اسم يوضع للإكرام ، كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة، والغارة موضع الإغارة.»(٣٤)

فالكرامة فى اللغة تطلق على كل ما يتكرم وينعم به.

وإذا كان الله مصدر كل كرامة ونعمة ، فخير الكرامة ما كان معطى منه عز وجل.

الكرامة فى الاصطلاح

أما الكرامة فى اصطلاح العلماء فهى:

أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد ولى من أوليائه االصالحين ، دون ادعاء للنبوة .

ثبوت الكرامة

ثبت وقوع الكرامة ، بمصادر عدة ، منها القرآن والسنة والعقل.

ثبوتها بالقرآن

أما ثبوتها بالقرآن ، ففى أكثر من موضع ، منها:

١ - ما وقع لمريم عليها السلام ، فى حالتين:

أ - عندما كفلها زكريا عليه السلام ، فقد كان الله يرزقها برزق من عنده ،

---

(٣٤) لسان العرب (كرم)

دون أن يتدخل فى ذلك بشر ، مما أثار عجب زكريا عليه السلام ، ودعا حينئذ أن يرزقه الله الذرية الصالحة.

قال تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾(٣٥)

(ب) حينما ولدت المسيح عليه السلام ، أمرها ربها بهز جذع النخلة ، ليتساقط عليها الرطب ، ومثل هذا الفعل من امرأة فى هذا الحال النفسى والجسدى لا يمكن أن يتحقق بحال من الأحوال.

هذا لو كان فى النخلة رطب ، أما إذا أخذنا بأقوال من قالوا إن النخلة كانت عبارة عن جذع فقط ، فأنبت الله فيها فى الحال جريدا ورطبا فالأمر فى خرق العادة - حينئذ - أظهر وأعجب.

٢ - ما تضمنته قصة أصحاب الكهف ، من نومهم ثلاثمائة سنين وازداوا تسعا ، من غير أكل وشرب ، دون أن يموتوا . فهذا أمر خارق للعادة ، لم يحدث لبشر إلى الآن.

ثبوتها بالسنة

أما ثبوتها بالسنة فقد ورد فى ذلك الكثير والكثير ، نقتصر على ذكر قليل من هذا الكثير كالاتى:

١ - أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة ، عيسى بن مريم ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج ـ كان يصلى ، فجاءته أمه ، فدعته، فقال : أجيبها أو أصلى؟ فقالت : اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعته ، فتعرضت له امرأة ، وكلمته فأبى ، فأتت راعيا، فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاما، فقالت من**

(٣٥) آل عمران : ٣٧، ٣٨

جريج ، فأتوه فكسروا صومعته ، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام ، فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعى ، قالوا نبى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين .»[٣٦] الحديث

٢ - أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطر ، فأووا إلى غار، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه . فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير ، عمل لى على فرق**[٣٧] **من أرز ، فذهب وتركه ، وأنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرا ، وأنه أتانى يطلب أجره ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر ، فسقها ، فقال لى: إنما لى عندك فرق من أرز ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق ، فساقها.» فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا فانساخت عنهم الصخرة** فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان ، شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة ، بلبن غنم لى ، فأبطأت عنهما ليلة ، فجئت وقد رقدا ، وأهلى وعيالى يتضاغَوْن من الجوع ، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى. فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدعهما ، فيستكنا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر ، حتى طلع الفجر . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساخت عنهم الصخرة ، حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى ابنة عم ، من أحب الناس إلى ، وأنى راودتها عن نفسها ، فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرت ، فأتيتها بها ، فدفعتها إليها ، فأمكنتنى من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها ، فقالت ، اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقمت وتركت المائة الدينار. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك

---

(٣٦) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب رقم (٤٨) ، ومسلم فى كتاب البر ، باب (٨)
(٣٧) الفرق - بفتح الفاء والراء ، وسكونها أيضا - مكيال يسع ثلاثة آصع

من خشيتك ففرج عنا ، ففرج الله عنهم ، فخرجوا.»[٣٨]

٣ - قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره »[٣٩]

قال كثير من العلماء : كفى بهذا الحديث دلالة على ثبوت الكرامة

وقوعها لأولياء هذه الأمة

وقد ثبت وقوع الكرامة لكثير من أولياء هذه الأمة ، نقتصر فى ذلك على ذكر نماذج فقط.

١ - ثبت فى صحيح البخارى أن أبا بكر ضيف ضيوفا ، وكان الطعام قليلا فأكلوا جميعا وشبعوا ، ولم ينقص الطعام بعد الأكل عما كان قبله [٤٠]

٢ - ما ثبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من كرامات ، ومنها :

(أ) تكليم الملائكة إياه ، لقوله ﷺ فيما يرويه البخارى: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون ، من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر**»[٤١]

(ب) هروب الشياطين من الطريق الذى يسير فيه لما رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال له : « **والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان سالكا فجاقط إلا سلك غير فجك**»[٤٢]

(جـ) ما ثبت فى قصة « ياسارية، الجبل » ، حيث كان رضى الله عنه يخطب يوم الجمعة ، ووقع فى قلبه أن الجيش الذى أرسله مع سارية ، إلى نهاوند ، بفارس ، لاقى العدو وهم فى بطن واد ، وقد هموا بالهزيمة ، وبالقرب منهم جبل ، فقال : « يا سارية ، الجبل » فى أثناء

---

(٣٨) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب حديث الغار.

(٣٩) أخرجه مسلم فى كتاب البر ، باب (١٣٨).

(٤٠) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة.

(٤١) البخارى : كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر.

(٤٢) الموضع السابق.

خطبته ، ورفع به صوته ، فألقاه الله في سمع سارية ، فانحاز بالناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم» قال الحافظ ابن حجر : « إسناده حسن» (٤٣)

(د) أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر قال: «ما سمعت عمر لشئ قط يقول إنى لأظنه كذا إلا كان كما يظن» (٤٤)

٣ - ما أخرجه البخارى فى شأن خبيب بن عدى ، الصحابى الذى قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فأسره المشركون ليقتلوه به ، حيث قالت امرأة من بنات الحارث بن عامر: «والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده ، وإنه لموثق بالحديد ، وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله خبيبا » (٤٥)

٤ - ما أخرجه البخارى وأحمد عن أنس رضى الله عنه ، أن أسيدبن حضير وعباد بن بشر تحدثا عند رسول الله ﷺ ليلة فى حاجة لهما ،حتى ذهب من الليل ساعة ، وكانت ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ ينقلبان ، وبيد كل واحد منهما عصية ، فأضاءت عصا أحدهما لهما، حتى مشيا فى ضوئها ، حتى إذا افترق بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه ، فمشى كل واحد منهما فى ضوء عصاه ، حتى بلغ إلى أهله » (٤٦)

وإذا كانت الكرامة ثبتت للصحابة ، فليس معنى ذلك اختصاصهم بها رضوان الله عليهم ، بل بابها مفتوح إلى يوم الدين ، لمن شاء الله إكرامه بها ، وقد شهد الواقع منها الكثير ، لأناس اشتهروا بالورع والتقوى .

---

(٤٣) كشف الخفاء للعجلونى : ٣٨١/٢ ط دار إحياء التراث العربى

(٤٤) البخارى : كتاب مناقب الأنصار ، باب إسلام عمر

(٤٥) البخارى : كتاب المغازى ، باب (١٠) .

(٤٦) البخارى : كتاب مناقب الأنصار ، باب منقبة أسيدبن حضير وعبّاد بن بشر، ومسند أحمد : ٣ / ١٣٧ ، ١٣٨.

العقل لا يحيل وقوع الكرامة

وإذا كان القرآن والسنة والواقع قد أيد وقوع الكرامة ، التى هى أمر خارق للعادة ، فإن العقل فى الوقت ذاته يتقبل ذلك بكل سهولة ، ولا يحيل وقوعها لرجل صالح يسير على شرع الله عز وجل.

فهى ليست بأعظم من كثير مما أنعم الله به على كثير من خلقه.

يقول الرازى - محمد بن عمر - فى كتابه الأربعين:

« إن تشريف الله تعالى عبده بمعرفته ومحبته ، أعظم وأعلى من إعطائه رغيفا فى المغارة ، أو سقية شربة من الماء ، فإذا لم يبعد الأول كيف يبعد الثانى .»(٤٧)

الفرق بين المعجزة والكرامة

مما سبق يتضح لنا أن الفرق الأساس بين المعجزة والكرامة أن المعجزة يصحبها ادعاء النبوة والتحدى ، والكرامة لا يصحبها ذلك ، وعلى ذلك : فالمعجزة لا تكون إلا للنبى ، أما الكرامة فتكون لأولياء الله الصالحين.

السحر والفرق بينه وبين المعجزة

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، الإشارة إلى السحر ، والتفريق بينه وبين المعجزة ...

والسحر فى اللغة : عبارة عن كل ما لطف مأخذه ، وخفى سببه ، عن معظم الناس .

قال الجوهرى : « السحر : الأُخْذَة ، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر»(٤٨)

---

(٤٧) الأربعين فى أصول الدين ، لمحمد بن عمر الرازى : ٣٨٦.
(٤٨) الصحاح : ٢ /٦٧٩

وقيل هو فى أصل اللغة : الصرف

قال الأزهرى : « وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، فكأن الساحر لما رأى الباطل فى صورة الحق ، وخيل الشيء على غير حقيقته ، قد سحر الناس عن وجهه ، أى صرفه »(٤٩)

أما المراد منه فى اصطلاح العلماء ، فلهم فيه عبارات كثيرة ، لعل أدقها ما كان مثل قول الشافعى رحمه الله ، كما ينقل عنه ابن قدامه فى « المغنى »: « هو عقد ورقى ، وكلام يتكلم به ، أو يكتبه ، أو يعمل شيئا يؤثر فى بدن المسحور ، أو قلبه ، أو عقله ، من غير مباشرة له ، وله حقيقة ، فمنه ما يقتل ، وما يمرض ، وما يأخذ الرجل عن امرأته ، فيمنعه وطأها ، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، وما يبغض أحدهما إلى الآخر ، أو يحبب بين الاثنين »(٥٠) وللسحر أنواع كثيرة ، منه ما يكون تخييلا ، ومنه ما يكون له تأثير بالفعل..

والمقام ليس مقام تفصيل لهذه الأنواع ، وحكم كل نوع ، وحكم فاعل كل نوع .

الفرق بين السحر والمعجزة

من خلال تعريف المعجزة والسحر ، والمراد منهما ، يتضح الفرق بينهما ، ونستطيع أن نبرز أهم الفروق بينهما فيما يأتى :

١ - المعجزة فعل الله المحض ، وليس للنبى أى دور فيها إلا الطلب ،

قال تعالى ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾(٥١)

أما السحر فهو فعل شرير محض ، من إنس أو جان.

٢ - المعجزة تصحبها دعوى النبوة ، والسحر لا تصحبه تلك الدعوى.

٣ - المعجزة خارقة للعادة ، والسحر ليس بخارق لها.

٤ - المعجزة لا يمكن تعلمها ، بخلاف السحر فإنه يمكن تعلمه.

٥ - المعجزة لا يمكن معارضتها والاتيان بمثلها ، أما السحر فيمكن معارضته ،

---

(٤٩) لسان العرب (سحر).

(٥٠) المغنى : ١٢ / ٢٩٩ ط هجر.

(٥١) الرعد : ٣٨ ، غافر : ٧٨ .

والاتيان بأعظم منه.

٦ - الاشتهار يزيد المعجزة وضوحا، بخلاف السحر فإنه يزداد بالاشتهار افتضاحا.

ولابن تيمية رحمه الله كلام في الفرق بين آيات الأنبياء، وما يظهر على أيدى السحرة والكهان، نلخص أبرز ما جاء فيه كما يلى:

١ - أن النبي صادق فيما يخبر به، لا يكذب قط، ومن خالف الأنبياء من السحرة والكهان لا بد أن يكذب،

كما قال تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم ﴾(٥٢)

٢ - من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله، فإن الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة، وعبادة الله وحده، وأعمالهم البر والتقوى ومخالفوهم يأمرون بالشرك والظلم، ويعظمون الدنيا، وفى أعمالهم الإثم والعدوان.

٣ - الكهانة والسحر يناله الإنسان بتعلمه وسعيه واكتسابه، وهذا مجرب عند الناس، بخلاف النبوة، فإنه لا ينالها أحد باكتسابه.

٤ - ما يأتى به الكهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدورًا للجن والإنس، وآيات الرسل لا يقدر عليها جن ولا إنس، بل هى خارقة لعادة كل من أرسل إليه النبى **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾**(٥٣)

٥ - أفعال السحرة يمكن أن تعارض بمثلها، وآيات الأنبياء لا يمكن أحد أن يعارضها بمثلها»(٥٤)

---

(٥٢) الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٥٣) الاسراء: ٨٨.

(٥٤) النبوات لابن تيمية : ١٢٧ ، ١٢٨ ط دار الفكر

الفصل الثانى

ثبوت المعجزات الحسية
لرسول الله صلى الله عليه وسلم

معجزات حسية لرسول الله ﷺ

وإذا كانت معجزة الرسول ﷺ الكبرى هى القرآن فليس معنى ذلك أنه لم يعط من المعجزات الحسية مثل ما أعطى إخوانه السابقون من الأنبياء.

فلقد جرى على يديه الكثير والكثير من هذه المعجزات ... ونحن فى هذا المقام لن نستطيع أن نذكر كل ما وقع له من ذلك ، بل سنذكر نماذج فقط للتدليل على وقوع تلك المعجزات الحسية ، ومن هذه المعجزات ما يلى :

١ - الإسراء والمعراج

فلقد ثبت بالتواتر أن الرسول ﷺ أسرى به بروحه وجسده فى جزء من الليل من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء السابعة ، وعاد قبل الفجر ، ولما أنكرت عليه قريش ذلك أخبرهم بعلامات صدقه فى هذه الرحلة ، من وصف بيت المقدس ، وبما رآه فى الطريق فى تلك الليلة ، بما أيقنت قريش بصدق ما يخبر به .

ولقد نص القرآن على ذلك ، ونزلت سورة خاصة بهذه المعجزة ، وسميت بها ، وهى سورة الاسراء. وفى سورة النجم آيات تتحدث عن رحلة المعراج.

٢ - انشقاق القمر

عن أنس رضى الله عنه قال : « إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما»[١]

وعن ابن مسعود قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا»[٢]

---

(١) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة .

(٢) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة .

٣ – الإخبار بالغيب بإذن ربه *

قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ﴾(٣)

وقد أطلع الله نبيه عليه الصلاة والسلام على كثير من الغيب ، نذكر منه ما يلى:

(أ) عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى النبى ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تدعو الله ، فقعد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمر وجهه وقال: كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له فى الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بمنشار ، فيوضع فوق رأسه ، فيشق باثنين فما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون . »(٤)

(ب) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أقبلت فاطمة تمشى كأن مشيتها مشى النبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ : مرحبا يا ابنتى ، ثم أجلسها عن يمينه ، أو عن شماله ، ثم أسر إليها حديثا ، فبكت ، فقلت لها لم تبكين ؟ ثم أسر إليها حديثا فضحكت ، فقلت ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن .فسألتها عما قال ، فقالت ، ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ ، حتى قبض النبى ﷺ ، فسألتها ، فقالت أسر إلى أن جبريل كان يعارضنى القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى ، وإنك أول أهل بيتى لحاقا

---

(٣) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة.

بى ، فبكيت فقال : أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة ، أو نساء المؤمنين ، فضحكت لذلك »[٥]

(جـ) عن عدى بن حاتم قال : « بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه الآخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة ، حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحدًا إلا الله .

ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ، يطلب من يقبله ، فلا يجد أحدًا يقبله منه.

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان ، يترجم له ، فليقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى فيقول : ألم أعطك مالا ، وأفضل عليك ؟ فيقول بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم ، اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة ، حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله .

وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ابن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ « يخرج ملء كفه »[٦]

٤ – إبراء المرضى

ورد فى ذلك وقائع كثيرة ، نقتصر منها على ما يلى:

(أ) عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: « لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله

---

(٥) الموضع السابق .

(٦) الموضع السابق .

ورسوله فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : « أين على بن أبى طالب » ؟ فقالوا : هو يا رسول الله يشتكى عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » ، فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع » (٧) الحديث

(ب) عن يزيد بن أبى عبيد قال : « رأيت أثر ضربة فى ساق سلمة بن الأكوع ، فقلت يا أبا مسلم ، ما هذه الضربة ؟ قال : ضربة أصابتنى يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة ، فأتيت النبى ﷺ ، فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة »(٨)

(جـ) فى قصة قتل أبى رافع اليهودى ، عبد الله بن أبى الحقيق ، يروى البخارى حديثا طويلا عن البراء بن عازب ، جاء فيه « بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع البهودى رجالا من الأنصار ، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، إلى أن يقول عبد الله بن عتيك:

« ثم وضعت السيف فى بطنه ، حتى أخذ فى ظهره ، فعرفت أنى قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت ، حتى جلست على الباب ، فقلت لا أخرج الليلة ، حتى أعلم أقتلته .

فلما صاح الديك ، قام الناعى على السور ، فقال : أنعى أبا رافع ، تاجر أهل الحجاز.

فانطلقت إلى أصحابى فقلت النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبى ﷺ ، فحدثته ، فقال لى ابسط رجلك ، فبسطت رجلى ، فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط . »(٩)

---

(٧) البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة خيبر .

(٨) الموضع السابق .

(٩) البخارى ، كتاب المغازى ، باب قتل أبى رافع.

انقياد الشجر له

ورد فى ذلك وقائع عدة ، نقتصر منها على هذه الرواية التى وردت فى صحيح مسلم حيث روى بإسناده عن جابر قال:

« سرنا مع رسول الله ﷺ ، حتى نزلنا واديا أفيح (١٠) ، فذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، فلم ير شيئا يستتر به ، وإذا شجرتين بشاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال:

« انقادى علىَّ بإذن الله » فانقادت معه كالبعير المخشوش (١١) الذى يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال : « انقادى علىّ بإذن الله » فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما قال : « التئما على بإذن الله » فالتأمتا ، فجلست أحدث نفسى ، فحانت منى لفتة ، فإذا برسول الله ﷺ مقبلا ، وإذا بالشجرتين قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق »(١٢)

٦ - حنين الجذع

أخرج البخارى عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار ، أو رجل ، يا رسول الله ألا نجعل لك منبرا ؟ قال : إن شئتم .

فجعلوا له منبرا ، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر ، فصاحت النخلة صياح الصبى ، ثم نزل النبى ﷺ ، فضمه إليه ، يئن أنين الصبى الذى يسكن ، قال : كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها . »(١٣)

كما أخرج البخارى أيضا عن جابر قوله : « كان المسجد مسقوفا على

---

(١٠) أى واسعا.

(١١) هو الذى يجعل فى أنفه الخشاش ، وهو عويدة تجعله أسلس انقيادا.

(١٢) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب (٧٤).

(١٣) ، (١٤) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة.

جذوع من نخل ، فكان النبى ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر ، فكان عليه ، فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار ، حتى جاء النبى ﷺ ، فوضع يده عليها فسكنت »(١٤)

٧ - تثبيت حفظ أبى هريرة رضى الله عنه

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنة قال : قلت يا رسول الله ، إنى سمعت منك حديثا كثيرا فأنساه ، قال : ابسط رداءك ، فبسطته فغرف بيديه فيه ثم قال : ضمه ، فضممته ، فما نسيت حديثا بعد(١٥)

٨ - تكثير الطعام

وقد حدث ذلك فى مرات عدة ، نقتصر منها على ما يلى:

(أ) أخرج البخارى عن جابر قال : « إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية (١٦) شديدة ، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : « أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبى ﷺ المعول ، فضرب فعاد كثيبا أهيل ، فانكفأت إلى امرأتى فقلت : هل عندك شىء ؟ فإنى رأيت بالنبى ﷺ خمصا شديدا ، فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ، ولنا بهمة داجن ، فذبحتها ، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البُرمة ، ثم جئت النبى ﷺ فساررته فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا ، وطحنت صاعا من شعير ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبى ﷺ يا أهل الخندق ، إن جابرا صنع سؤرا (١٧) فحى هلا بكم » فقال رسول الله ﷺ : « لاتنزلن برمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى أجىء » ، وجاء فأخرجت له عجينا ، ثم قال : ادعى خابزة فلتخبز

---

(١٤) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة.

(١٥) الموضع السابق.

(١٦) قطعة صخرية ، غاية فى الصلابة.

(١٧) أى طعاما.

معك ، واقد حى [١٨]من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف ، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو . [١٩]

(ب) أخرج البخارى وغيره عن أنس قال : قال أبو طلحة لأم سليم لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير، ثم أخرجت خمارا لها ، فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدى ، ولا تتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله ﷺ فذهبت به فوجدت رسول اله ﷺ فى المسجد ، ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال لى رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة ؟ » قلت : نعم ، قال : بطعام ؟ قلت نعم ، فقال رسول الله ﷺ لمن معه : قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ﷺ : « هلمى يا أم سليم ما عندك » فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته ، ثم قال رسول الله ﷺ : فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ثم قال : « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا »[٢٠]

وفى رواية أخرى للبخارى فى الموضع ذاته : أن جابراً قال : « فجعلت أنظر هل نقص منها شىء»

---

(١٨) أى اغرفى .

(١٩) البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الخندق.

(٢٠) البخارى ، كتال المناقب، باب علامات النبوة.

٩ – نبع الماء من بين أصابعه ﷺ وتسبيح الطعام

وفى ذلك وقائع عدة ، نقتصر منها على ما يلى:

(أ) عن أنس رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده فى الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال ثلاثمائة ، أو زهاء ثلاثمائة [(٢١)]

(ب) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « عطش الناس يوم الحديبية والنبى ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ ، فجهش الناس نحوه، فقال : ما لكم ؟ قالوا ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب ، إلا من بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة » [(٢٢)]

(جـ) عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا ، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فقل الماء ، فقال : « اطلبوا فضلة من ماء» ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده فى الإناء ثم قال : « حى على الطهور المبارك والبركة من الله » ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » [(٢٣)]

١٠ – كلام الحيوانات

وفى ذلك وقائع عدة ، نذكر منها اثنتين.

(أ) روى أبو داود وغيره عن جابر أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ، ثم أهدتها لرسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ الذراع ، فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه معه ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا أيديكم » ، وأرسل إلى اليهودية فدعاها ، فقال لها : « أسممت هذه الشاة » ؟ قالت : من أخبرك ؟ قال

(٢١) ، (٢٢) ، (٢٣) البخارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة

« أخبرتنى هذه فى يدى » للذراع ، قالت : نعم قال : فما أردت إلى ذلك ؟ قالت : قلت إن كان نبيا فلن يضره ، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه ، فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها ، وتوفى بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاه ، واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله ، من أجل الذى أكل من الشاة » (٢٤)

(ب) أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة قال : جاء ذئب إلى راعى غنم فأخذ منها شاة ، فطلبه الراعى ، حتى انتزعها منه ، قال : فصعد الذئب على تل فأفعى واستذفر (٢٥) وقال عمدت إلى رزق رزقنيه الله ، أخذتُه ثم انتزعته منى ؟ فقال الرجل : تالله إنْ رأيت كاليوم ، ذئب يتكلم ! فقال الذئب : أعجب من هذا رجل فى النخلات بين الحرتين ، يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم قال : فكان الرجل يهوديا ، فجاء إلى النبى ﷺ ، فأخبره وأسلم ، فصدقه النبى ﷺ ثم قال النبى ﷺ : « إنها أمارات بين يدى الساعة ، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدثه نعلاه وسوطه بما أحدث أهله بعده » (٢٦)

١١ – رؤيته ﷺ من خلفه

أخرج البخارى عن أنس رضى الله عنه قال :

« أقيمت الصلاة ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال : « أقيموا صفوفكم ، وتراصوا ، فإنى أراكم من وراء ظهرى »(٢٧).

إلى غير ذلك من المعجزات الحسية التى تدل على أن الرسول ﷺ قد أعطى منها الكثير ، ولم تقتصر معجزاته على القرآن الكريم.

---

(٢٤) رواه أبو داود فى كتاب الديات ، باب ٦ .

(٢٥) أى أدخل ذنبه بين رجليه.

(٢٦) أخرجة أحمد فى مسنده : ٢ / ٣٠٦ .

(٢٧) البخارى ، كتاب الأذان ، باب تسوية الصفوف عند الاقامة وبعدها.

الفصل الثالث

القرآن هو المعجزة الكبرى
لرسول الله صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول : القرآن ، والفرق بينه وبين الحديث القدسى

المبحث الثانى : لماذا كانت المعجزة الكبرى للرسول كلاما يتلى؟

المبحث الأول

* القرآن ،والفرق بينه وبين الحديث القدسي

اتضح مما سبق أن الله عز وجل أيد رسوله ﷺبالكثير من المعجزات الحسية ،ولكنه عز وجل جعل المعجزة الكبرى له هى القرآن الكريم ،فما هو هذا القرآن ؟ ولماذا كان هو المعجزة الكبرى دون غيره ،ذلك ما سوف نتحدث عنه الآن بإذن الله عز وجل ،فنقول:

القرآن فى اللغة : مصدر مرداف للقراءة ،ومنه قوله تعالى: ﴿**لاتحرك به لسانك لتعجل به ،إن علينا جمعه وقرآنه ،فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ [(١)]، أى قراءته.

أخرج البخارى عن ابن عباس فى هذه الآيات ،أنه قال :

« كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه إذا أنزل عليه ،فقيل له لا تحرك به لسانك – يخشى أن ينفلت منه – (إن علينا جمعه) أن نجمعه فى صدرك ، (وقرآنه، أن تقرأه ، (فإذا قرأناه) يقول أنزل عليه (فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) أن نبينه على لسانك ». [(٢)]

ثم انتقل استعمال هذا اللفظ (القرآن) من كونه مصدرا مرادفا للقراءة ،وجعل علما على كلام الله عز وجل المنزل على نبيه ، ليكون شريعة لأمته ..

وقد اختلفت عبارات العلماء فى تعريف القرآن اصطلاحا ،وتفاوتت بين الإيجار والتوسط والاطناب ...

ونختار من هذه التعاريف تعريفا فيه بعض الاطناب، حيث يمكن حذف بعض جزئياته، التى لا تعتبر من ماهية القرآن، وإنما هى من خصائصه . وهو:

«كلام الله المعجز المنزل على النبى ﷺ ،المنقول بالتواتر، المتحدى بأقصر

---

(١) القيامة : ١٦ – ١٨

(٢) البخارى ، كتاب التفسير ،سورة القيامة.

سورة منه ، المتعبد بتلاوته ،المكتوب بين دفتي المصحف »

وواضح أنه يمكن الاستغناء عن بعض العبارات هنا ،ولكن المقام مقام توضيح أكثر مما هو تعريف، فلذلك اخترنا هذا التعريف .

الفرق بين القرآن والحديث القدسى

ويحسن بنا ونحن نتحدث عن القرآن، كلام الله عز وجل،أن نشير باختصار إلى نوع آخر من كلامه عز وجل، وهو ما يسمى بالحديث القدسى.

فما هو الحديث القدسى؟ ولم وصف بهذه الصفة ؟ ومالفرق بينه وبين القرآن ؟ فنقول وبالله التوفيق.

الحديث القدسى هو : كلام أخبر به رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل بواسطة جبريل، أو بالإلهام، أو بالمنام، بلفظ من عنده ﷺ، أو من عند ربه عز وجل.

ووصف هذا النوع من الكلام بكونه قدسيا، نسبة إلى القُدْس، وهو الطهر، يقال أرض مقدسة، أى مطهرة .

فسمى الحديث قدسيا لأن معناه من عند الله عز وجل، ومن صفاته القدوس .،إذ هو متصف بكل صفات الكمال.

أما الفرق بين القرآن والحديث القدسى، فقد ذكر العلماء فى ذلك فروقا متعددة، نبرز أهمها فيما يلى:

١ - القرآن لفظه ومعناه من الله عز وجل، أما الحديث القدسى فمعناه من عند الله عز وجل ، أما لفظه فيجوز أن يكون من عند النبى ﷺ

٢ - القرآن لا بد فيه من واسطة جبريل عليه السلام، أما الحديث القدسى فقد يكون بالإلهام وقد يكون بالمنام.

٣ - القرآن متواتر، والحديث القدسى ليس بمتواتر.

٤ - القرآن معجز، بخلاف الحديث القدسى.

٥ - القرآن لا تجوز روايتة بالمعنى، بخلاف الحديث القدسى.

٦ - جاحد القرآن يكفر بخلاف الحديث القدسى.

٧ - لا تصح الصلاة إلا بالقرآن، بخلاف الحديث القدسى.

٨ - القرآن يحرم مسه للجنب والحائض بخلاف الحديث القدسى.

٩ - القرآن متعبد بتلاوته، وله حسنات خاصة، بخلاف الحديث القدسى.

إلى غير ذلك من الفروق، التى أفاض العلماء فى ذكرها ،وفيما ذكرناه كفاية للتمييز بينهما.

المبحث الثانى

لماذا كانت المعجزة الكبرى للرسول ﷺ كلاما يتلى

اقتضت حكمة الله عز وجل أن يجعل القرآن هو المعجزة الكبرى لرسوله ﷺ ، فليس فوقه معجزة أكبر منه ولا أعظم ،بل هو وحده يكفى ويغنى عن كل معجزة.

قال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾(١)

وقد يسأل سائل : لم كانت المعجزة الكبرى له ﷺ كلاما معنويا ،ولم تكن شيئا حسيا ؟

لقد علل كثير من العلماء هذا الأمر بأن ذلك هو المناسب للقوم، الذين أرسل فيهم الرسول ﷺ أول الأمر، فقد كانوا أهل فصاحة ولسان، وبلغوا الذروة فى البلاغة ،والقمة فى البيان.

واستدلوا على هذا التعليل بمعجزات الأنبياء السابقين، من حيث كونها مناسبة لحال قومهم.

وقالوا إن معجزة إبراهيم كانت فى النجاة من النار، لأن إبراهيم كان على مقربة من عبدة النار ،ومعجزات موسى كانت من نوع يناسب حال البلدة التى وقعت فيها تلك المعجزات، حيث كان السحر شائعا فى مصر، واحتل السحرة مكانة مرموقة بين الشعب والحكام.

وكانت معجزة عيسى فى إحياء الموتى ،وإبراء المرضى ،لأن الطب وصل إلى درجة راقية فى عصره .

ولكننا لا نوافق علماءنا الأجلاء رحمهم الله تعالى فى كل نقطة قالوها فى هذا التعليل فليس من شرط المعجزة أن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم.

---

(١) العنكبوت : ٥٠، ٥١.

فمثلا : كيف ينطبق هذا الكلام على معجزة تكليم سليمان الطير ، وعلى معجزة ناقة صالح عليه السلام ،وغير ذلك.

بل إن هذه المعجزات التى تحدثوا عنها، وعن نبوغ أقوام الأنبياء فى جنسها لنا فيها نظر...

إن الذين أوقدوا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يكونوا يعبدونها ،وإنما كانوا يعبدون الأصنام.

وما يذكرونه عن معجزات عيسى ومناسبتها لقومه ،حيث كان الطب قد بلغ عندهم مبلغا عظيما، فيه نظر ،لأن بنى إسرائيل فى عهد عيسى عليه السلام لم يشتهروا بالنبوغ فى الطب.

يقول « رينان » فى كتابه «حياة يسوع »[٢] :

« لم يكن علم الطب رائجا بين بنى إسرائيل، فلم يكن بينهم علم أبقراط»

إن عيسى عليه السلام لم يبعث لقوم أبقراط، ليعجزهم بمعجزاته ،وإنما أرسل لبنى إسرائيل ،كما جاء فى القرآن والسنة والإنجيل.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ،ورسولا إلى بنى إسرائيل** ﴾[٣]

ومن السنة قوله ﷺ : « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة »[٤].

ومن الإنجيل ما جاء على لسان عيسى نفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »[٥]

وعلى ذلك فإن ما قرره كثير من العلماء بأن معجزة الرسول ﷺ كانت القرآن لنبوغ العرب - فى عهد النبوة - فى البلاغة والبيان فيه نظر ،وقد يكون ذلك جزءا من الحكمة ،وليس كلها ،أو معظمها، إن المعجزة الكبرى لرسول الله

---

(٢) كما ينقل عنه الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه « المعجزة الكبرى» : ١٢.
(٣) آل عمران : ٤٨، ٤٩.
(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ،كتاب التيمم ،باب (١).
(٥) الكتاب المقدس : إنجيل متى الاصحاح ١٥ آية ٢٥.

ﷺ كانت كلاما متمثلا فى القرآن لعدة أسباب ،أهمها فى نظرى ما يأتى :

١ - لتتناسب مع شمول رسالته لكل زمان . فمما هو بد هى أن رسالته عامة لكل زمان إلى يوم الدين ،فلو كانت شيئا حسيا يرى ثم ينقرض ،لزالت بزوال وقتها ،ولا يبقى إلا الحديث عنها ،إن كان هناك من سيتحدث بها.

وبالتالى سيكون تأثيرها فى مستقبل الزمان منعدما ،أو ضئيلا للغاية.

يقول المفكر الفرنسى ايتين دينيه [٦] (١٨٦١ - ١٩٢٩):

« إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمدا كانت فى الواقع معجزات وقتية ،وبالتالى معرضة للنسيان السريع ،بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآيات القرآنية (المعجزة الخالدة) ،وذلك أن تأثيرها دائم ،ومفعولها مستمر ،ومن اليسير على المؤمن فى كل زمان وفى كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة فى كتاب الله .

وفى هذه المعجزة نجد التعليل الشافى للانتشار الهائل ،الذى أحرزه الإسلام ،ذلك الانتشار الذى لا يدرك سببه الأوربيون ،لأنهم يجهلون القرآن ،أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ،فضلا عن أنها غير دقيقة . »[٧]

٢ - ولأن رسالة الرسول ﷺ ليست خاصة بقومه العرب الذين نبغوا فى الفصاحة والبلاغة ،بل هى شاملة لهم ولكل من عداهم ،من إنس وجان.

ولذلك وجدنا للقرآن وجوها من الاعجاز ،غير الإعجاز البيانى ،الذى لا يفهمه إلا العرب.

ومن أجل هذه الحكمة حفظ الله كتابه من التحريف ،ولذلك عد البعض هذا الحفظ من التحريف وجها من وجوه الإعجاز القرآنى :

يقول القاضى عياض رحمه الله :

« ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية ،لا تعدم ما بقيت الدنيا ،مع

---

(٦) أعلن إسلامه عام ١٩٢٧ وتسمى بناصر الدين ،وألف عدة كتب إسلامية.

(٧) من كتابه « محمد رسول الله » : ١١٨ ،كما ذكر مؤلف « قالوا عن الإسلام » ص : ٦٣، ٦٤.

تكفل الله تعالى بحفظه ، فقال :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [8] وقال : **﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾**[9] ،

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها ،فلم يبق إلا خبرها»[10].

٣ - أكثر الناس يتشككون فى المعجزات الحسية ،حيث لم يروها ،بل إن معظم السابقين الذين شاهدوها بأعينهم كفروا بها ،ولهذا لم يسترسل الله تعالى مع كفار قريش بالإستكثار من هذه المعجزات الحسية ،وعلل ذلك بأنهم لا يستجيبون لداعى الإيمان إذا تحقق ذلك .

قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ [11]

وحينما أرى الله قريشا آية انشقاق القمر قالوا إن هذا سحر ،قال تعالى:

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ،وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[12]

ودلنا القرآن على مدى استعدادهم لإنكار أى معجزة حسية بقوله تعالى

﴿ ولوفتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[13]

فإذا كان المشاهدون للآيات الحسية قد كفروا بها ،فكيف بحال من لم يشاهدوها .

٤ - حين يكون القرآن هو المعجزة ،تكون الرسالة الاسلامية فى قمة مجدها وأوج عظمتها.

حيث تكون الرسالة عين المعجزة ،والمعجزة عين الرسالة ،وهذا هو الإعجاز ،

---

(٨) الحجر : ٩.

(٩) فصلت : ٤٢.

(١٠) الشفاء : ٢٧٥ مطبعة دار الفكر.

(١١) الاسراء : ٥٩.

(١٢) القمر : ١، ٢.

(١٣) الحجر : ١٤، ١٥.

الذى يتضاءل معه كل إعجاز.

يقول ابن خلدون رحمه الله فى مقدمته:

« فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة ،القرآن الكريم ،المنزل على نبينا محمد ﷺ ،فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى ،الذى يتلقاه النبى ،ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ،والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى ،وهو الخارق المعجز ،فشاهده فى عينه ،ولا يفتقر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوحى ،فهو أوضح دلالة ،لاتحاد الدليل والمدلول فيه ،وهذا معنى قوله ﷺ «ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ،وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى ... الحديث [١٤] يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ،وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها ،فكثر المصدق المؤمن ،وهو التابع والأمة »[١٥]

٥ - المعجزات الحسية لا تتناسب مع التطور العلمى ،تناسب القرآن معه ، وبالتالى فإن تأثير القرآن فى نشر الاسلام خاصة بين العلماء يكون أعظم منها.

يقول المفكر اليهودى العراقى الذى أسلم وتسمى باسم أحمد نسيم سوسه : « إن معجزة القرآن هى أكثر بروزا فى عصرنا الحالى ،عصر النور والعلم ،مما كانت عليه فى الأزمنة ،التى سادها الجهل والخمول »[١٦]

لهذه الأسباب وغيرها جعل الله عز وجل المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ هى القرآن ،وإليها أيضا الإشارة بحديث رسول الله ﷺ : « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ،وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[١٧] .

---

(١٤) سبق تخريجه .

(١٥) مقدمة ابن خلدون : ٨٠ ط الأعلمى بيروت.

(١٦) من كتابه « فى طريقى إلى الإسلام » ١ /١٨٥ كما ذكر صاحب قالوا عن الإسلام : ٧٢.

(١٧) سبق تخزيجة :

الفصل الرابع

معارضة القرآن

معارضة القرآن

معنى المعارضة

علمنا مما سبق أن الله عز وجل تحدى العرب وغيرهم أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا فتدلى معهم بخطابه إلى التحدى بعشر ثم إلى التحدى ولو بمثل أقصر سورة منه ،فلم يفعلوا ،ولو فعلوا لكان ذلك منهم معارضة للقرآن.

فالمعارضة تعنى مقابلة الشىء بمثله ،يقول ابن منظور : « عارض الشىء بالشىء قابله ،وعارضت كتابى بكتابه ،أى قابلته ،وفلان يعارضنى أى يباريني »(*)

والمعارضة لا تعنى استراق كلام الخصم ،وتبديل كلمة منه بكلمة أخرى ،والسير على حذو النظم الآخر ،كما فعل مسيلمة الكذاب ،حينما سار على نمط النظم القرآنى فى مثل قوله تعالى ﴿**والذاريات ذروا ،فالحاملات وقر ا**﴾(1) **وقوله تعالى :** ﴿**والمرسلات عرفا ،فالعاصفات عصفا**﴾(2) **وقوله تعالى** ﴿**والنازعات غرقا ،والناشطات نشطا**﴾(3)

فقال : « والمبذرات زرعا ،والحاصدات حصدا ،والذاريات قمحا ،والطاحنات طحنا ،والعاجنات عجنا ،والخابزات خبزا » الخ تلك السخافات ..

إن ذلك لا يسمى معارضة ،وإلا لأمكن من شاء أن يغير بعض الأحرف ،أو الكلمات من أى كلام آخر ،وينسبه لنفسه ،دون أن يكون صاحب فكر ،أو ذا صلة بالفن من أصله ...

يقول الرمانى رحمه الله : « فإن قال قائل : فإنه يمكن فى القصار أن تغير الفواصل فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها ،فهل يكون ذلك معارضة ؟

(*) انظر لسان العرب (عرض).

(1) الذاريات : ١، ٢.

(2) المرسلات : ١ ، ٢.

(3) النازعات : ١ ، ٢.

قيل له : لا ،من قبل أن المفحم [٤] يمكنه فى قوافى الشعر مثل ذلك ،وإن كان لا يمكنه أن ينشىء بيتا واحدا ،ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ،فلو أن مفحما رام أن يجعل بدل قوافى قصيدة رؤبة :

وقاتم الأعـماق خاوى المخترقْ
مشـتبه الأعـلام لَـمـاع الخَفَقْ
يَكلُّ وفد الريح من حيث انخرقْ

فجعل بدل المخترق الممتزق ،وبدل الخفق الشفق ،وبدل انخرق انطلق ،لأمكنه ذلك ،ولم يجب به قول الشعر ،ولا معارضة. رؤبة فى القصيدة ، عند أحد له أدنى معرفة ،فكذلك سبيل من غير الفواصل ،وزعم أنه قد عارض ،وهذا واضح بين لا يخفى على متأمل والحمد لله .»[٥]

وحول المعنى السابق أيضا يقول الخطابى رحمه الله : « وليس - أى المعارض - أن يتحيف من أطراف كلام خصمه ،فينسف منه ،ثم يبدل كلمة مكان كلمة ،فيصل بعضه ببعض ،وصل ترقيع وتلفيق ،ثم يزعم أنه واقفه موقف المعارضين .»[٦]

إن المعارضة لو كانت بهذا الشكل - الذى افترضه الرمانى والخطابى - لاستطاع الجهال والصبيان معارضة القرآن ،فضلا عن معارضة فحول الشعراء ،وعظماء البلغاء ،وهذا لا يقول به عاقل.

إن المعارضة تعنى : إنشاء كلام جديد ،باستحداث معنى بديع ،رائع أخاذ ،به يغالب القرين قرينه ،فى قوة اللفظ وجزالته ، ويصارعه فى عظيم معناه وروعته.

أوجه المعارضة

وللمعارضة بهذا المفهوم السابق عدة أوجه ،من خلالها يمكن للمتبارين

---

(٤) أى الذى لا يقدر أن يقول شعرا.

(٥) ثلاث رسائل فى الاعجاز ،الرسالة الثانية للرمانى (النكت فى إعجاز القرآن) : ١٠٣، ١٠٤.

(٦) المصدر السابق ،الرسالة الأولى للخطابى : بيان إعجاز القرآن : ٥٠.

سلوكها، ليتغلب كل خصم على صاحبه ،نذكر بعضا منها[٧]

(أ) فمنها : التبارى فى وصف شىء ،بحيث يأتى أحد الرجلين ، بما يوازى وصف خصمه ،أو يزيد عليه فى بيان ماتباريا فيه .

على نحو ما حدث بين امرىء القيس، وعلقمة بن عبدة ،فى وصف الفرس حيث افتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله:

خليلى مُرَّابى على أم جندب

فلما وصل إلى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

فللزجر ألهوب وللساق درة   وللسوق منه وقع أهوج مُنْعِب[٨]

وافتتح علقمة قصيدته بقوله :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب

فلما وصل إلى ذكر الفرس ،وسرعة ركضه قال:

تعفى على آثارهن بحاصب   وغيبه شؤبوب من الشد ملهب
فأدركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

وكانا قد حكما بينهما امرأة امرىء القيس ، فقالت لزوجها ، علقمة أشعر منك ،فقال : وكيف ؟ قالت : لأنه وصف الفرس بماذا ؟ درك الطريدة من غير أن يجهده أو يكده ،وأنت مريت فرسك بالزجر ،وشدة التحريك والضرب » ، فغضب عند ذلك وطلقها.

ومن عجيب المعارضات التى استوفت الوصف الكامل لمعنى المعارضة ،تلك التى حدثت بين عملاقين من عمالقة الشعر العربى ،والتى كان أحد طرفيها امرؤ القيس أيضا والآخر هو الحرث بن التوأم اليشكرى ،وكانت العاقبة فيها للحرث ، مما ترتب عليها اعتزال امرىء القيس لمعارضة أى شاعر بعدها.

ومما جاء فيها:

أن امرؤ القيس قال: أحار ترى بريقا هب وهنا

---

(٧) انظر رسالة الخطابى : ٥٣ وما بعدها.

(٨) الأهوج : الأحمق ،والهوجاء : السريعة ،والمنعب : المستغين بنعقه .

فقال الحرث : كنار مجوس تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريح

فقال الحرث : إذا ما قلت قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس : فمر بجانب العبلات منه

فقال الحرث : وبات يحتفر الأكم احتفارا

فقال امرؤ القيس : فلم يترك ببطن السى ظبيا

فقال الحرث : ولم يترك بعرصتها حمارا

فقال امرؤ القيس : كأن هزيزه بوراء غيب

فقال الحرث : وعشارٌ وُلَّهٌ لاقت عشارا

فقال امرؤ القيس : فلما أن علا شرجى أضاخ

فقال الحرث : وهت أعجاز رَيِّقه فخارا

فقال امرؤ القيس : فلم تر مثلنا ملكا هماما

فقال الحرث : ولم تر مثل هذا الجار جارا

فآلى امرؤ القيس ألا يناقض بعده شاعرا.

وكم أعجب العلماء والأدباء بهذا النوع من المعارضة، ومن تلك المباراة بالذات،

ومن هؤلاء المعجبين الإمام الخطابى، حيث يقول:

« هذه مباراة عجيبة، ومعارضة تامة، مستوفاة فصلا فصلا ومصراعا مصراعا، وللحرث فيها ما ليس لامرىء القيس، لأن المبتدىء متمكن من الاختيار، موسع عليه الطرق، يسلك أيها شاء، والمجيز مقصور القيد، ممنوع من التصرف، إلا فى الجهة التى هو بإزائها، فلذلك قد أبر عليه الحرث، لما جاء من حسن التشبيه والتمثيل، الذى خلا منه كلام امرىء القيس ولأجل ذلك آلى امرؤا القيس أن لا يماتن شاعرا بعده » (٩)

---

(٩) ثلاث رسائل فى الإعجاز : ٥٦.

(ب) ومن أوجه المعارضة أيضا: تنازع معنى من المعانى ،فيسمو أحد الرجلين إلى ذروة هذا المعنى ،ولا يستطيع الآخر محاذاته . كما حدث من الأعشى والأخطل ،فى وصف الخمر على معنى واحد .

فقد دخل الشعبى على الأخطل ،فوجده ثملا، وحوله لخالخ (١٠) ورياحين فقال يا شعبى، فعل الأخطل وذكر أمهات الشعراء ،فقال الشعبى : بماذا يا أبا مالك ؟ قال : بقوله:

وتظل تنصفنا بها قروية   إبريقها برقاعه ملثوم
فإذا تعاورت الأكف زجاجها   نفحت فنال رياحها المزكوم

فقال الشعبى : أشعر منك الذى يقول:

وأدكن عاتق جحل سبحل   صبحت براحة شربا كراما
من اللآلىء حملن على الروايا   كريح المسك تستل الزكاما

فقال له الأخطل : من يقول هذا ياشعبى ؟ قال : الأعشى ،قال : قدوس قدوس ،فعل الأعشى ،وذكر أمهات الشعراء . »(١١)

إن الأخطل فى وصفه رائحة الخمر لم يزد على أن المزكوم يشم رائحتها ،بينما جعلها الأعشى دواء مستأصلا للزكام.

(حـ) ومن أوجه المعارضات ذلك الوجه الذى يبنى الشىء ويهدمه ،ويشيده ثم ينقضه ، وهو ما يعرف بالمقابلات والمناقضات.

كما حدث من أحدهم حينما ذم الخمر ،ثم مدحها . قال حسان ثابت : « أتيت جبلة بن الأيهم الغسانى ،وقد مدحته فقال لى : يا أبا الوليد ،إن الخمر قد شغفتنى ، فاذ ممها ،لعلى أرفضها ، فقلت :

ولولا ثلاث هن فى الكأس لم يكن   لها ثمن من شارب حين يشرب
لها نزق مثل الجنون ومصرع   دَنِيٌّ وأن العقل ينأى ويعزبُ

فقال : أفسدتها ، فحسنها ، فقلت:

ولولا ثلاث هن فى الكأس لم يكن   كأنفس مال يستفاد ويطلب

(١٠) نوع من الطيب .

(١١) ثلاث رسائل فى الاعجاز.

أمانيها والنفس يظهر طيبها   على حزنها والهم يسلى فيذهب
فقال : لا جرم ،والله لا تركتها أبدا. (١٢)

إذا علم ما ذكرناه سابقا من معنى المعارضة ،وكيفيتها ،تبين لنا أن ما روى عن مسلمة وغيره ،من كلام قال عنه إنه قرآن ،أو أنه معارضة للقرآن ليس بقرآن ولا معارضة له ،حيث كان يسترق ألفاظ القرآن ،ونظم آياته ،ويبدل كلمة بأخرى ،إضافة إلى انحاط المعنى ،وسفالته ،إذا ما قيس بالقرآن الكريم ،كما سنورده الآن بعد قليل إن شاء الله تعالى.

العرب كانت تعرف المقصود من المعارضة

حينما تحدى الله العرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ،فإن هؤلاء العرب كانوا يعلمون معنى المعارضة ،ويدركون الوجه المقصود منها فى هذا التحدى ،وإلا لما كان هناك فائدة من هذا التحدى ،بل لكان الأمر عبثا والعبث على الله تعالى محال ،ولذلك جاء عن كبار فصحائهم بأن له لحلاوة ،وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ،وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

يقول الامام عبد القاهر الجرجاني:

« أيجوز أن يكون الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا مثله ؟

فلا يقوم فى عقل عاقل أن يقول لخصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعلى وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه فى فعله ،ويراه قد وقع عليه .

أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر إنى قد أحدثت فى خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها ،لم تتجه له عليه حجة ،ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه ،إلا من بعد أن يريه الخاتم ،ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة ،لأنه لا يصح فى وصف الإنسان بأنه قد عجز عن شىء حتى يريد ذلك الشىء ويقصد إليه ، ثم لا يتأتى له ،وليس يتصور أن يقصد إلى شىء لا يعلمه ،وأن تكون منه إرادة

---

(١٢) الموضع السابق.

لأمر لم يعلمه فى جملة ولا تفصيل »[١٣]

توافر الدواعى لمعارضة القرآن

وجدت كثرة من الدواعى مجتمعة ، كان الواحد منها فقط كفيلا بأن يحرك ذا الهمة ،ويشجع الجبان ،ويحفز من كان عنده أدنى كرامة ،أو مسكة من عقل ،لمعارضة القرآن ،ومن هذه الدوافع ما يأتى:

(أ) طبع العرب الذى جبلوا عليه ،واتخذوه ديدنا فى مخاصماتهم . فقد جبلوا على عدم التسليم للخصم بالتفوق ،والاعتراف بالعجز ،ما دام هناك طريق للوصول إلى هذا التفوق ،ودفع ذلك العجز . والمطلع على تاريخ الادب العربى ،قبل الإسلام وبعده ،يرى أن الأديب منهم – شاعرا كان ،أو خطيبا أو كاتبا – إذا ما سمع بظهور شخص ما ،بعيد عنه ،يباهى بما برع فيه ،استنفرته حميته إلى خلق أى وسيلة لمعارضته ،رغم عدم رؤيته إياه ،ورغم عدم التحدى ،والدعوة إلى المعارضة ،فيراسله لتظهر براعته عليه ،وتفوق ما لديه على ما عنده .

فإن حدث وكان ذلك الذى يباهى قريبا منه ،يراه ويسمعه ، كان ذلك آكد فى حصول معارضته ،ليريه أن لافضل لما عنده على ما لديه ،إن لم يكن أقل منه.

فإن تصاعد الأمر، وحدثت دعوة للمعارضة ،ليظهر فيها صاحب الفضل ،ويرى الناس من ملك أمره دون الآخر ،وادعى المتحدى أنه البطل الوحيد ،والفارس الفريد ،فإن ذلك السامع به لن يهدأ له بال ،ولن يقر له قرار ، إلا بعد أن يستفرغ جهده ،ويأتى بأقصى ما جادت به قريحته ،ليناقضه ...

وتاريخ الأدب العربى عرف الكثير مما كان بين كل شاعرين ،متعاصرين متناطحين ، كجرير والفرزدق ،رغم أنه ليس لأحد الخصمين هدف ،سوى الفوز بكلمة إطراء ، أو الحكم بأنه صاحب السبق على صاحبه .

كان هذا يحدث بين فردين ،فرد يتحدى فردا ،فما بالنا حين يكون التحدى

---

(١٣) دلائل الإعجاز : ٢٤٧.

للخلق جميعا ،وفى المقدمة تلك الأمة العربية ،التى كان الكلام سيد عملها ،والأنفة والحمية سمة كبارها وصغارها ،قال تعالى: ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتو بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾(١٤)

وقال : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتو بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ،فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾(١٥)

أبعد هذا التحدى من دافع يثير حميتهم ،ليدافعوا عما به يتباهون ،ويتبارون ؟

(ب) معروف عن العرب كذلك اعتزازهم بأنفسهم وعقولهم وآرائهم ،وافتخارهم بآبائهم وأجدادهم ،وتقديس معبوداتهم . والناس جميعا وإن اشتركوا مع العرب فى ذلك ،إلا أن العرب فى هذا أشد اعتزازا ،وأكثر افتخارا ،وأعظم تقديسا ،وحينما جاء القرآن شن حربا لا هوادة فيها على هذه العقول المنحرفة ،والآراء الباطلة ،والآباء والأجداد الضالين ،والآلهة الزائفة . وما ترك منها شيئا إلا وصوب إليها قذائفه ،وسخر منها ،وتهكم بها ،أشد ما تكون السخرية ،وأشنع ما يكون التهكم.

نقرأ فى القرآن كثيرا من مثل قوله تعالى: ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ،ولهم آذان لا يسمعون بها ،أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾(١٦)

كما نقرأ فى القرآن من مثل قوله تعالى:

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾(١٧)

كما نقرأ فى القرآن مما ورد فى شأن آلهتهم ، من مثل قوله تعالى:

---

(١٤) الإسراء : ٨٨.

(١٥) البقرة : ٢٣، ٢٤.

(١٦) الأعراف : ١٧٩.

(١٧) البقرة : ١٧٠.

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ،ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ،قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ،إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ،والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ،وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ (١٨)

فهل بعد تسفيه العقول والآراء ،وسب الآباء والأجداد ،والنيل من الآلهة والمعتقدات ،هل بعد هذا كله من دوافع للمعارضة ،خاصة وأن الذى طولبوا بمثله مجرد كلام مما ينطقون ،وعبارات ما به يتباهون ؟

يقول القاضى عبد الجبار رحمه الله :

« أما الذى يعرف به توفر دواعيهم أنا نعلم أن من قرّعه غيره بالعجز عن أمر أتى به ،أن ذلك التقريع يحرك طبعه إذا كان عالما به ،فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المقرع من قومه وأبناء جنسه كانت الدوافع أقوى ،فإن كان المقرع ممن لم تظهر له تلك الاحوال العظيمة ،الموجبة للرياسة والنباهة من قبل فهو أقوى ،فإن انضاف إلى التقريع أنه صر فهم لذلك من عادات وأغراض من قبل كان أقوى ،لأنه ﷺ أوجب لمكان القرآن انتقالهم عن العادات فى الدين ،لأنه سفه آلهتهم وطريقتهم فى الدين ،بل سفه أحلامهم وعقولهم ،لإقدامهم على ما كانوا يتدينون به ،ونقلهم مع ذلك عن عادات تختص الدنيا ،من رياسات واحوال ،كانوا عليها ،وصيرهم تبعا ،بعد أن كانوا متبوعين ، وألزمهم الكلف على النفس ، والحقوق فى المال ، وأبطل رياسة البعض على البعض ،حتى منع التوارث بين أهل ملتين وقطع أحكام الأنساب ،باختلاف الدين ،وجمع لهم وجوه المذلة بالثبات على طريقتهم ،وعرفهم أنواع العز ،بالانتقال إلى شريعته ، وانضاف إلى ذلك ما كانوا يتحققونه ،وتظهر أماراته من نقصان عددهم ،وزيادة عدده ،وضعف حالهم ،وقوة حاله ،لأجل عجزهم عن مساواته ،وكل ذلك مما يقوى الدواعى ، فلا يمكن أن يقال إنهم ذهبوا عن ذلك بسهو وغفلة ، ولبس وشبهة » (١٩)

---

(١٨) الأعراف : ١٩٤ - ١٩٨.

(١٩) المغنى للقاضى عبد الجبار : ١٦ / ٢٦٦، ٢٦٧.

لماذا لم يعارض العرب القرآن؟

إذا كانت العرب بهذه الصفات من الحمية والأنفة ،وعدم التسليم للخصم بالفضيلة ،وإذا كان القرآن لم يترك لهم شيئا باطلا كان محل اعتزازهم وافتخارهم وتقديسهم إلا وشن عليه حربا شنعاء ،وإذا كان العرب قدتوا فرلهم من دواعى المعارضة مالو ظهر لهم واحد منها فقط ما تركوها ومع ذلك فلم يعارضوا ،فما سبب عدم معارضتهم القرآن ؟

لا جواب عن ذلك إلا عجزهم البين ،وقصورهم الظاهر ،وعدم رغبتهم فى النزول ببلاغتهم إلى حد الانحطاط إذا ما قورن كلامهم بكلام الله عز وجل .

إن العرب – خاصة فى عصر نزول القرآن – من أين تأملهم الانسان رآهم وكأنهم خلقوا خلقا لغويا ،وصنعوا صناعة بلاغية ولذلك نظروا إلى القرآن وأدركوا قدره بحاسة الذوق البلاغى ،التى لا تبلغها الصفة ،ولا تقف عليها المعرفة ، كما تدرك الألوان والروائح والطعوم ،نظروا إلى القرآن فوجدوه قد بلغ بأسلوبه أرقى ما تحس به الملكة البلاغية ،والفطرة البيانية ،والحاسة اللغوية ،فسلموا له بالفضل وحكموا على أنفسهم بالعجز ،وقعدوا عن المعارضة ،لأنها شىء فوق القدرة ، لم تتيسر للبشر ،ولن تنالها أطماعهم.

العرب تعترف بعجزها عن معارضة القرآن

بلغ العرب فى عهد القرآن – كما يقول الرافعى رحمه الله : « مبلغا من الفصاحة لم يعرف فى تاريخهم من قبل ،مما جعل الكلمة نافذة فى أكثرهم لا يصدها اختلاف من اللسان ،ولا يعترضها تناكر فى اللغة ،فقامت فيهم بذلك دولة الكلام ،ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن »(٢٠)

ورغم هذه الدولة اللغوية للعرب ، ورغم توافر تلك الدواعى لمعارضة القرآن ، فإنهم لم يعارضوه كما قلنا ،عجزا منهم عن هذه المعارضة ،وتسليما للقرآن بالفضيلة ،وشهادة منهم أن كلامه فوق كل كلام ،وأنه أكبر من طاقة كل إنس أو جان ،حتى لو كان محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام....

(٢٠) إعجاز القرآن للرافعى : ٢٠٥.

وكان اعترافهم بعجزهم ،وتسليمهم للقرآن بالفضيلة نابعا من أحوالهم وأقوالهم ...

وهذه نماذج تشهد بذلك:

أولا : نماذج من الاعترافات القولية

(١) تحت عنوان : « تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن » يقول ابن هشام فى السيرة النبوية : « ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ،وكان ذا سن فيهم ،وقد حضر الموسم ،فقال لهم : يا معشر قريش ،إنه قد حضر هذا الموسم ،وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ،وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ،فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ،ويرد قولكم بعضه بعضا ،قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ،فقل وأقم لنا رأيا نقول به ،قال : بل أنتم ،فقولوا أسمع.

قالوا : نقول كاهن ،قال : لا والله ما هو بكاهن ،لقد رأينا الكهان ،فما هو بزمزمة [٢١] الكاهن ولا سجعه ،قالوا : فنقول مجنون قال : ما هو بمجنون ،لقد رأينا الجنون وعرفناه ،فما هو بخنقه ،ولا تخالجه ،ولا وسوسته.

قالوا : فنقول : شاعر ،قال : ما هو بشاعر ،لقد عرفنا الشعر كله ،رجزه وهزجه ،وقريضه ،ومقبوضه ،ومبسوطه فما هو بالشعر ،قالوا : فنقول ساحر، قال : ما هو بساحر ،لقد رأينا السحار وسحرهم ،فما هو بنفثهم ولا عقدهم ،قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ،[٢٢] - ويقال لغدق - وإن فرعه لجناه ،وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ،وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر، جاء بقول هو سحر ،يفرق به بين المرء وأبيه ،وبين المرء وأخيه ،وبين المرء وزوجته ،وبين المرء وعشيرته

---

(٢١) الزمزمة : الكلام الخفى الذى لا يسمع.

(٢٢) العذق : النخلة ،يشبهه بها ،إذا بثت أصلها وقوى، وطاب فرعها إذا جنى والغدق: الماء الكثير.

« فتفرقوا عنه بذلك .»[٢٣]

٢ – يروى الحاكم بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما ،أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ ،فقرأ عليه القرآن ،فكأنه رق له ،فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ،فقال : ياعم ،إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم ؟ قال : ليعطوكه ،فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله .

قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ،قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ،قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ،ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منى ،ولا بأشعار الجن ،والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا . ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ،وإن علية لطلاوة ،وإنه لمثمر أعلاه ،مغدق فى أسفله ،وإنه ليعلو وما يعلى ،وإنه ليحطم ما تحته.

قال : لا يرضى عنك قومك ،حتى تقول فيه ،قال : فدعنى حتى أفكر ،فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ،يأثره عن غيره ،فنزلت : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾[٢٤]

٣ – روى ابن هشام أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ،فلما عرضها عليه قرأ عليه الرسول ﷺ سورة فصلت ،ولما رجع إلى قومه قال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ،فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا ،والله ما سمعت مثله قط ،والله ما هو بالشعر ،ولا بالسحر ،ولا بالكهانة »[٢٥] الخ.

٤ – فى حديث إسلام أبى ذر الغفارى وأمه وأخيه أنيس ،يقول أبو ذر رضى الله عنه : « فقال أنيس : إن لى حاجة بمكة فاكفنى ،فانطلق

---

(٢٣) السيرة النبوية لابن هشام : ١ / ٢٧٠.

(٢٤) أخرجة الحاكم فى المستدرك ،كتاب التفسير ،تفسير سورة المدثر ٢ / ٥٠٦،٥٠٧ وقال صحيح الاسناد على شرط البخارى ،وأقره الذهبى ،المستدرك ط النصر الحديثة بالرياض .

(٢٥) سيرة ابن هشام .

أنيس حتى أتى مكة ، فراث على ثم جاء فقلت ما صنعت ؟ قال : لقيت رجلا بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله ،قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر ، كاهن ،ساحر ،وكان أنيس أحد الشعراء.

قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ،فما هو بقولهم ،ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر ،فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر ،والله إنه لصادق ،وإنهم لكاذبون » (٢٦)

ثانيا : اعتراف العرب بالعجز عن المعارضة بأحوالهم

إن عدم معارضة العرب للقرآن وفيهم قادة البلاغة ،وصناع البيان ،من شعراء وخطباء ،وغيرهم من الأدباء ،لدليل عجز ظاهر على عدم قدرتهم على معارضة مقبولة.

يقول الجاحظ رحمه الله : « فلم يرم ذلك خطيب ،ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ،ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ،ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ،فدل ذلك العاقل على عجز القوم ، مع كثرة كلامهم ،واستجابة لغتهم ،وسهولة ذلك عليهم ،وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه ،وخطباء أمته »(٢٧) ا. هـ

وليت أمر العرب وقف عند هذا الحد ،من اعترافهم بأن القرآن فوق مستوى الخلق ،وبعجزهم عن معارضته ،بل انتقلوا إلى حال أشد ،ليضيفوا بانتقالهم إلى هذا الحال دليلا قويا وبرهانا ساطعا على عجزهم عن معارضة القرآن ،وعلى ألوهية مصدره.

فلقد تركوا الإتيان بمثل أقل سورة منه ،وذهبوا إلى ميدان الحرب وإراقة الدماء ،وإزهاق الأرواح ،وتقطيع الأرحام ،وإهلاك الحرث والنسل ،وإضاعة المال فيما لا طائل تحته . وكان الأجدر بهم - وهم الذين جعلوا من بلادهم دولة

---

(٢٦) أخرجة مسلم فى صحيحه ،فى كتاب الفضائل الصحابة ،باب فضائل أبى ذر

(٢٧) الحيوان : ٤ / ٤١.

للكلام ، ومن بلغائهم وزراء لتلك الدولة - كان الأجدر بهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة ،ببعض كلمات يتفوهون بها ،وهم جالسون على مقاعدهم ،أو متكئون على سررهم ،فإن عجزوا فليتركوا النبى وأصحابه وما هم عليه ،ولكنهم استبدلوا بالأدنى ما هو شرمنه إن هذا الاستبدال - أعنى ترك الإتيان بالكلام والأقوال ، إلى اللكام والاقتال - لا تفسير له إلا بأمر من اثنين ،إما بالعجز الذى بلغ قمة الوضوح ،وإما بأن القوم قد فقدوا عقولهم وصاروا فى عداد المجانين ،وبما أن الأمر الثانى لم يقل به أحد ،فلم يبق إلا الأول ...

يقول الخطابى رحمه الله : « وقد بقى ﷺ يطالبهم به - أى بالقرآن - مدة عشرين سنة ،مظهرا لهم التكبر ،زاريا على أديانهم ،مسفها آراءهم وأحلامهم ،حتى نابذوه ،وناصبوه الحرب ،فهكلت فيه النفوس ،وأريقت المهج ،وقطعت الأرحام ،وذهبت الأموال ،ولو كان ذلك فى وسعهم ،وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ،ولم يركبوا تلك الفواقر المبيدة ،ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول ،إلى الحزن الوعر من الفعل ،هذا مالا يفعله عاقل ،ولا يختاره ذولب ،وقد كان قومه - قريش خاصة - موصوفين برزانة الأحلام ،ووفارة العقول والألباب ،وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون ،وقد وصفهم الله فى كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** ﴾(٢٨) ،وقال سبحانه : ﴿ **لتنذر به قوما لدا** ﴾(٢٩)

فكيف كان يجوز - على قول العرب ،ومجرى العادة ،مع وقوع الحاجة ،ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ،ولا يهتبلوا الفرصة فيه ،وأن يضربوا عنه صفحا ،ولا يحوزوا الفلج والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه ، والعجز المانع منه ؟ » (٣٠)

---

(٢٨) الزخرف : ٥٨.

(٢٩) مريم : ٩٧.

(٣٠) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : ١٩، ٢٠.

من المحال ترك المعارضة مع القدرة عليها والإقدام على إضاعة الأنفس والأموال

إن سكوت العرب عن معارضة القرآن ،وهى قادرة عليها ،مع توافر الدواعى والدخول فى هذه الحروب المتعدده ،التى أتت على زعمائها ،وأهلكت أموالها وأولادها ،من الأمور المحالة ،التى لم يشهد لها التاريخ البشرى وجودا على أرض الواقع .

لأن سورة واحدة ،وآيات يسيرة ، كانت كما يقول الجاحظ رحمه الله (٣١) : « أنقض لقوله ﷺ ،وأفسد لأمره ،وأبلغ فى تكذيبه ،واسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس ،والخروج من الأوطان ،وإنفاق الأموال ،وهذا من جليل التدبير ،الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب ،فى الرأى والعقل بطبقات ،ولهم القصيد العجيب ،والرجز الفاخر ،والخطب الطوال البليغة ،والقصار الموجزة ،ولهم الأسجاع والمزدوج ،واللفظ المنثور ،ثم تحدى به أقصاهم ،بعد أن أظهر عجز أدناهم .» ا. هـ

نعم إن تاريخ البشرية لم يعهد أمرا مثل أمر تلك المعارضة ،رجل يسفه قومه ، ويسب آلهتهم ،ويحدث فى رياستهم شرخا لم يسد ،وفى أنفسهم جروحا لا تلتئم ،وينتقل كل يوم من نصر إلى نصر ،وينتقلون هم كل لحظة من هزيمة إلى أخرى ،وقد دلهم هذا الرجل على ما به تكون هزيمته ،بل إلى ما به تكون نهاية امره ،وهو الاتيان بمثل أقصر سورة مما جاء به ،ثم لا يفعلون ،بل يؤثرون على ذلك حروبا لا نهاية لها ،وإضاعة لأموال لا حصر لها ،هذا أمر لم يقع ولا يجوز لعاقل أن يصدقه ،إلا إذا كان هذا الرجل مبعوثا من قبل الله الجبار ،وإلا أن يكون هذا الكلام قد صدر عن الواحد القهار ...

يقول الجرجانى رحمه الله : « وهل سمع قط بذى عقل ومسكة ، استطاع أن يخرس خصما له ،قد اشتط فى دعواه ،بكلمة يجيبه بها ،فترك ذلك إلى أمور ،يسفه فيها، وينسب معها إلى ضيق الذرع والعجز ،وإلى أنه مغلوب قد

(٣١) كما نقل عنه الرافعى فى إعجاز القرآن : ٢٢٥.

أعوزته الحيلة ،وعز عليه المخلص ؟

أم هل عرف فى مجرى العادات وفى دواعى النفوس ،ومبنى الطبائع أن يدع الرجل ذو اللب حجته على خصمه ،فلا يذكرها ولا يفصح بها ،ولا يجلى عن وجهها ،ولا يريه الغلط فيما قال ،والكذب فيما ادعى ،ولا يدعى أن ذلك عنده وأنه مستطيع له ،بل يجعل أول جوابه له ،ومعارضته إياه التسرع إليه ،والسفه عليه ،والاقدام على قطع رحمه ،وعلى الإفراط فى أذاه ؟

أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم ،لهم رياسة ،ولهم دين ونحلة ،فيؤلب عليهم الناس ،ويدبر فى إخراجهم من ديارهم ،وأموالهم ،وفى قتل صناديدهم وكبارهم ،وسبى ذراريهم وأولادهم ،وعمدته التى يجد بها السبيل إلى تألف من يتألفه ،ودعاء من يدعوه ،دعوى له ،إذا هى أبطلت بطل أمره كله ،وانتقض عليه تدبيره ،ثم لا يعرض له فى تلك الدعوى ،ولا يشتغل بإبطالها ،مع إمكان ذلك ،ومع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع ؟ »(٣٢)

محاولات مفضوحة

تؤكد إعجاز القرآن ،وتشهد بسخافة أصحابها

وإذا كان العرب على ما هم عليه من القمة فى الفصاحة ،والذروة فى البلاغة ،قد عرفوا قدر كلامهم من القرآن ،وأيقنوا بعجزهم عن معارضته ،حيث جاء فوق كل القوى والقدر ،ورأوا أنه صادر ممن أحاط علما بالكلام والمتكلمين ،العلماء منهم والأميين ،فإن نفرا قد تسلط عليهم الشيطان ،فظنوا ظنا آخر ،وقاموا بمحاولات زعموا بها أنهم قد عارضوا القرآن ،ولكن الحقيقة أنهم أسفوا بها ،وحطوا من قدر أنفسهم ،ومن منزلة بلاغتهم ،ولو علموا أن كلامهم هذا سيكون موضع هزء وسخرية على مر الدهور لما تفوهوا به ،إذ جاء دون كلامهم الذى لم يعارضوا به القرآن بمراحل ومراحل ،واحتوى على معان هابطة ،تضحك الأطفال والنساء ،ويسخر منها الرجال والأدباء.

وما أعظم حكمة الله تعالى ،حيث جعلت من تلك المحاولات دليلا على

(٣٢) الرسالة الشافية : ١١٠،١١١ ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز .

مصدر القرآن وألوهيته ،بدلا من التدليل على بشريته ونستطيع أن نحصر هؤلاء الذين عارضوا القرآن - حسب علمنا - فى خمسة أشخاص:

١ - مسيلمة بن حبيب الكذاب

من بنى حنيفة باليمامة ،وفد على رسول الله ﷺ ،وأسلم ،ولكنه كان شغوفا بالملك ،فتنبأ ،وكتب إليه ﷺ ،يقول له : « من مسيلمة رسول الله ،إلى محمد رسول الله ،سلام عليك

أما بعد

فإنى قد شوركت فى الأرض معك ،وإن لنا نصف الأرض ،ولقريش نصفها ،ولكن قريشا قوم يعتدون» فقدم عليه ﷺ رسولان بهذا الكتاب ،فقال لهما : « فما تقولان أنتما » ؟ قالا : نقول كما قال » فقال ﷺ : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » (٣٣)

وقد ادعى مسيلمة هذا أن ملكا من السماء اسمه رحمن يأتيه بقرآن من عند الله ،وكان معظم ما قاله مسيلمة فى هذا الشأن ،استراقا لألفاظ من القرآن ،وتبديل كلمة بأخرى ،والسير على نمط النظم القرآنى ،مع مراعاة السجع فى عباراته .

ومما جاء عنه (٣٤) قوله : « الفيل ما الفيل ،وما أدراك ما الفيل ،له مشفر طويل ،وذنب أثيل ،وماذاك من خلق ربنا بقليل»

وقوله : « والمبذرات زرعا ،والحاصدات حصدا ،والذاريات قمحا ،والطاحنات طحنا ،والعاجنات عجنا ،والخابزات خبزا ،والثاردات ثردا واللاقمات لقما ،إهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبر ،وما سبقكم أهل المدر ،ريفكم فامنعوه ،والمعتر فآووه والباغى فناوئوه »

وقوله أيضا : « والشاء وألوانها ،وأعجبها السود وألبانها ،والشاة السوداء ،واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ،فما لكم لا

(٣٣) تاريخ الطبرى : ٣٠ / ١٤٦ سيرة ابن هشام ٤ / ٣٢٩،فتوح البلدان للبلاذرى ٩٧،ومسند أحمد : ٣ / ٤٨٨.

(٣٤) كما فى تاريخ الطبرى : ٣ / ٢٨٣، ٢٨٤،ثلاث رسائل فى الاعجاز : ٤٩.

تمجعون »[(٣٥)]

وقوله : « ياضفدع بنت ضفدعين ،نقى ما تنقين ،نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ،لا الماءتكدرين ،ولا الشارب تمنعين »

إن الناظر فى أقوال مسيلمة هذه يلاحظ عليها ما يأتى : .

١ – التزامه السجع فيها ،وسبب ذلك دعواه ،النبوة ، وظنه إياها ضربا من الكهانة ،إذ كان السجع من سمة الكهان ،ولذلك قال رسول الله ﷺ عمن سجع أمامه « إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذى سجع»[(٣٦)]

وقد عهد العرب من الكهان ذلك السجع ،وكانوا يصدقونهم فيما يقولون ،فاستدرج مسيلمة الناس بسجعه هذا ،طمعا فى تأثيره فيهم ، وانقيادهم له.

٢ – انحطاط أسلوبه فى كلامه الذى ادعى أنه قرآن عن أسلوبه فى كلامه الآخر ،ويبدو ذلك بمقارنة كلامه هذا برسالته التى أرسلها إلى النبى ﷺ .

٣ – انحطاط المعنى الذى احتوته ألفاظه .... فإذا كان القرآن قد نزل على قلب النبى ﷺ ،فإن القارىء لكلام مسيلمة يرى أنه قد نزل على معدته ،بين قوم جياع ،أراد أن يسيل به لعابهم .

٤ – كذلك انحطاطه من الناحية البلاغية . فمن يقرأ قوله فى الفيل ،يرى مدى السفالة البلاغية التى انحط إليها فإنه أراد بكلامه فى الفيل أن يسير على نظم:

ألحاقة ،ما الحاقة ،وما أدراك ما الحاقة » و «القارعة، ما القارعة ،وما أدراك ما القارعة ،. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» ولكنه كان قمة فى الغباء ،وذروة فى السفاهة .

فالقرآن حينما بدأ نظمه بهذا التهويل ، الحاقة ،ما الحاقة ،وما أدراك ما

---

(٣٥) المذق : خلط اللبن بالماء والمجع : أكل التمر باللبن ،سواء يشربه عليه ،أم بعجنه . به .

(٣٦) أخرجه مسلم فى كتاب القسامة ،باب (٣٦) ، وأحمد فى مسنده : ٥٣٥/٢ .

الحاقة وكذا القارعة ،ما القارعة وما أدراك ما القارعة » أعقب هذا التهويل بما يتناسب معه ،حيث قال : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) الخ

أما هذا الكذاب الأشر فقد ارتكب من الحماقات ما ارتكب ،حيث سرق النظم القرآنى ،وبدل بكلمة منه كلمة من عنده ،فأسف وسفه ،وبلغ به غباؤه أن صدر كلامه بالتهويل ،وافتتحه بالمبالغة ،ثم رتب على هذه المقدمة المهولة ما لا يتناسب معها إطلاقا ،حيث ذكر الفيل واقتصر منه على ذكر المشفر والذنب ،دون بقية أجزائه التى يحار فيها العجب ، فكان حاله كحال من قال :

وإنى وإنى ثم إنى وإننى إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا

وإذا كان مسليمة كاذبا ،فإن قومه كانوا يوقنون بذلك ،ولكنها العصبية ،وحمية الجاهلية الأولى ،ويدل على هذا ما روى عن الأحنف بن قيس (٣٧) أنه أتى مسيلمة مع عمه ،فلما خرجا من عنده قال له الأحنف : كيف رأيته ؟ قال : «ليس بمتبنى ء صادق ،ولا بكذاب حاذق»

٢ - ابن المقفع

وممن نسب إليه معارضة القرآن ابن المقفع ،وهو من أدباء القرن الثانى الهجرى ،المشهود لهم بالفصاحة والبلاغة.

وقد زعم بعض المصنفين أنه عارض القرآن مدة من الزمان ،حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿**وقيل يا أرض ابلعى ماءك**﴾(٣٨) ،فقال إن البشر يعجزون عن الإتيان بمثل القرآن ،وترك المعارضة.

وقد قتله والى البصرة ،متهما إياه بالزندقة.

وأول من اتهمه بالزندقة - كما يقول الحمصى - (٣٩) القاسم بن إبراهيم الرازى (٢٤٦ هـ) ،فقد ألف رسالة « الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع » ،وهو

---

(٣٧) كما ذكر الرافعى فى إعجاز القرآن : ٢٣٠.
(٣٨) هود : ٤٤.
(٣٩) فى كتابه « فكرة إعجاز القرآن » : ٤٨.

يعرض فيها أقوال ابن المقفع فى هذا الكتاب ،ويحاول أن يدحضها بالحجج ...

وقد تشكك كثير من العلماء فى معارضة ابن المقفع للقرآن ،وفى تأليفه كتابا يحمل فيه على الإسلام ،وينتقد فيه القرآن .

وعلى رأس هؤلاء المتشككين مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ..

وقد بنى تشككه هذا على عدة اعتبارات ، منها : (٤٠)

١ - أن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة ،لأنه من أبلغ الناس.

٢ - هذه الآية التى ترك ابن المقفع المعارضة على أثر استماعه إياها فى سورة هود ،لأن هذا يعنى أنه قد عارض السور الطوال حتى انتهى إلى هذه الآية ،وهو شىء لم يزعمه الملاحدة أنفسهم ،إذ قالوا إن المعارضة كانت بالدرة اليتيمة ،وهى أوراق قليلة .

ولهذا رأينا أهل التدقيق إذا ساقوا هذا الخبر فى كتبهم ،قالوا : إن ابن المقفع سمع صبيا يقرأ الآية من سورة هود فترك المعارضة . ويرى الرافعى أن هؤلاء المدققين فاتهم أن مثل ابن المقفع - وهو من هو بلاغة - لا يأخذ فى معارضة القرآن إلا وقد قرأه وتأمله ،ومر بهذه الآية فيه ،ووقف عندها متحيرا ،فليس يحتاج إلى صبى يسمعها منه ،ليترك ما أخذ فيه ،إن كان إبطال المعارضة موقوفا على سماع هذه الآية.

٣ - ويرى الرافعى أن نسبة المعارضة لابن المقفع إنما هو تصحيح من بعض العلماء ،لما تزعمه الملاحدة ،من أن كتاب الدرة اليتيمة لابن المقفع هو فى معارضة القرآن ،فكأن الكذب لا يدفع إلا بالكذب .

فكتاب الدرة اليتيمة هذا منسوخ من كتاب بزر جمهر فى الحكمة ،وفيه عبارات وأساليب مسروقة ،من كلام الإمام على رضى الله عنه.

٤ - ويعلل الرافعى رحمه الله نسبة المعارضة لابن المقفع بقوله:

« وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره ،من بلغاء الناس لأن فتنة

---

(٤٠) انظر كتابه إعجاز القرآن : ٢٣٥، ٢٣٦.

الفرق الملحدة إنما كانت بعده ،وكان البلغاء كافة لا يمترون فى إعجاز القرآن ،وإن اختلفوا فى وجه إعجازه ،ثم كان ابن المقفع متهما عند الناس فى دينه ،فدفع بعض ذلك إلى بعض ،وتهيأت النسبة من الجملة.

ولو كانت الزندقة فاشية أيام عبد الحميد الكاتب ،وكان متهما بها ،أو كان له عرق فى المجوسية ،لما أخلته إحدى الروايات من زعم المعارضة ،لا لأنه زنديق ،ولكن لأنه بليغ يصلح دليلا للزنادقة »[٤١]

٣ - ابن الراوندى

وممن نسبت معارضة القرآن إليه أحمد بن يحيى ، المشهور بابن الراوندى ،الذى ظهر فى القرن الثالث.

والمتتبع لما كتب فى إعجاز القرآن ،ومعارضته لم يجد لابن الراوندى شيئا فيها ،وإنما يجد له طعنا فى القرآن ،وهمزا وغمزا لشريعة الإسلام وقد اشتهر عنه أنه ألف كتابا أسماه « التاج » عارض به القرآن ،وقد سخر منه أبو العلاء المعرى ، الذى ظهر بعد ذلك وتوفى فى القرن الخامس (٤٩٩ هـ) ،حيث قال عن هذا الكتاب فى رسالة الغفران :

« وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلا ،وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة : أف وتف ، وجورب وخف ،قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان فى جهنم »[٤٢]

ولعل أبا العلاء المعرى بكلمته هذه يشير إلى أن « التاج » هذا ليس فيه معارضة للقرآن ،وإنما فيه تلبيس للأمور ،وتدليس على الناس ،وصرف لحقائق الكلام ،كما تفعله تلك الكاهنة التى فسرت الجورب والخف بأنهما واديان فى النار...

أقول : لعل أبا العلاء يشير إلى هذا ،وهذا ما أميل ،فلو كانت له معارضة فى

---

(٤١) إعجاز القرآن الرافعى : ٢٣٦، ٢٣٧.

(٤٢) رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى : ٣٢٤، ٣٢٥ ط دار صادر بيروت.

القرآن لتناقلتها كتب الأدب والتاريخ ،كما تناقلت غيرها عن مسيلمة وغيره .

إن كل ما فعله ابن الراوندى الزنديق هو الطعن فى القرآن ،والحط من شريعة الله ،وكان دافعه إلى ذلك حب الدينا والرغبة فى الثراء ،حتى ولو أدى ذلك إلى نقض كلامه هو بكلام من عنده هو ...

يقول الحمصى: « وألف كتابا فى الطعن على القرآن ،سماه « الدافع» ،وقد طعن فيه على نظم القرآن ونقضه عليه الخياط ،وأبو على الجبائى ،وذكر أنه نقضه على نفسه أيضا ،وأنه كان يؤلف الكتب لأعداء الإسلام بأثمان يعيش منها ،ثم ينقضها بأثمان أخرى ،ولم ينقل من معارضته للقرآن شيء »(٤٣)

٤ - أبو الطيب المتنبى

وممن اتهم بالمعارضة أيضا شاعر الإسلام أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى أحد فحول العربية الذين ظهروا فى القرن الرابع (ت ٣٥٤ هـ).

ولقب بالمتنبى لأنه ادعى النبوة فى أول أمره ،فى وادى السماوة بين الكوفة والبصرة ،وكان له خدع وتمويهات ،استطاع بها أن يخيل للناس قدرته على القيام بالخوارق ،وقد ذكر أبو العلاء المعرى بعضها فى رسالة الغفران (٤٤)

ومما يروى فى معارضته للقرآن قوله:

« والنجم السيار ،والفلك الدوار ،والليل والنهار ،إن الكافر لفى أخطار ، امض على سننك ،واقف أثر من قبلك من المرسلين ،فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى دينه وضل عن سبيله ».

ومن يقرأ أدب المتنبى شعرا أو نثرا يتضح له بجلاء مدى انحطاط كلامه الذى عارض به القرآن عن سائر أدبه الشعرى أو النثرى ،ولعل السبب فى ذلك محاولته اقتفاء طريقة النظم القرآنى ،ولكن هيهات هيهات ...

ولذلك يعلق الرافعى على كلامه هذا بقوله :

« ونحن لا نمنع أن يكون للرجل شيء من هذا ومثله ،وإن لم يكن فى طبقة

---

(٤٣) فكرة إعجاز القرآن : ٥٢.

(٤٤) انظر رسالة الغفران : ٢٨٩.

شعره ،ولا فى وزن ما يؤثر عنه من فصول النثر »[٤٥]

٥ – ابو العلاء المعرى

وممن نسب إليهم معارضة القرآن أبو العلاء المعرى ،أحد أدباء القرن الخامس (٤٤٩ هـ) ...

فقد تناقل البعض – كياقوت الحموى أن أبا العلاء المعرى عارض القرآن بكتاب أسماه « الفصول والغايات فى مجاراة السور والآيات » ،وأنه قيل له ما هذا إلا جيد ،غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن ،فقال : « حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة ،وعند ذلك انظروا كيف يكون »[٤٦]

ومما ذكره ياقوت وغيره عن أبى العلاء فى معارضة القرآن قوله : « أقسم بخالق الخيل ،والريح الهابة بليل ، ما بين الأشراط ومطالع سهيل ،إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل ،اتق مدارج السيل ،وطالع التوبة من قبيل ،تنج وما إخالك بناج »[٤٧]

وواضح من هذا الكلام أنه أراد أن يحاكى به النظم القرآنى ،ولكنه لم يكن كذلك ،حيث جعل كلمة « ناج» غاية ،فى حين أن ما قبلها فصل مسجوع ،على عكس الفواصل القرآنيه التى تكون خاتمة لآياته ...

وإذا كان البعض يتهم ابا العلاى المعرى بمعارضة القرآن ،وينسب إليه مثل هذا الكلام ، فإننا رأينا البعض الآخر يتشكك فى تلك المعارضة ، ومن هؤلاء أديب العربية ،مصطفى صادق الرافعى ، الذى جاوز الشك إلى درجة النفى ،واعتبر هذه المعارضة فرية مكذوبة على المعرى ،وبنى الرافعى نفيه هذا على الأسس التالية:

١ – لأن المعرى أبصر الناس باضطراب أسلوبه ،والتواء مذهبه ،فأسلوبه متعثر ،يسقط بعضه فى جهة ، وينهض بعضه فى جهة ،ويستقيم من ناحية ،ويلتوى من ناحية.

---

(٤٥) إعجاز القرآن للرافعى : ٢٤٢.

(٤٦) فى كتابه معجم الأدباء : ٣ / ١٤٠.

(٤٧) معجم الأدباء لياقوت الحموى : ٣ / ١٤٠.

٢ – كما أن المعرى أبصر الناس بطبقة الكلام الذى يعارضه .

٣ – ولأن المعرى أثبت إعجاز القرآن فيما أنكر فى رسالته على ابن الراوندى ،حيث قال:

« وأجمع ملحد ومهتدى ،وناكب عن المحجة ومقتدى ،أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوه بالإرجاز ،ما حذى على مثال ،ولا أشبه غريب الأمثال ،ما هو من القصيد الموزون ،ولا فى الرجز من سهل وحزون ،ولا شاكل خطابة العرب ،ولا سجع الكهنة ذوى الأرب ،وإن الآية منه ،أو بعض الآية ،لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ،فتكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جنح غسق ،والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق »(٤٨)

٤ – ويرى الرافعى أيضا أن أحداً من الناس لم يجبر المعرى ،حتى يقول بالإعجاز ،ولم يحصل له ظرف ما اضطره إلى المداراة ،وإظهار شىء مخالف لما اعتقده بقلبه . (٤٩)

وإذا كان البعض قد اتهمه بالمعارضة ،والبعض نفاها عنه ،إلا أن بعضا ثالثا – كالدكتور دراز فى (النبأ العظيم) ،والزرقانى فى (مناهل العرفان) قد ذهب إلى أن المعرى وقبله المتنبى إن كانا فعلا ذلك ،فهو من قبيل (ولكن ليطمئن قلبى) ، أى لزيادة إيمانهما بأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن .

وأيا كان الأمر ،فالعبرة بالخواتيم ،فلو افترضنا جدلا أن المعرى قد عارض القرآن فى يوم ما ،فقد اتضح له فى النهاية أن هذه المعارضة هراء ،وأن أى محاولة نتيجتها محسومة قبل البدء فيها ،ألا وهى أن القرآن فى غاية الإعجاز كما اعترف بذلك المعرى لابن الراوندى ،حينما كان يدافع عن القرآن الذى طعن فيه ذلك الزنديق.

يقول الحمصى : « وليس من مانع فى الحقيقة لأن يكون المعرى فكر فى

---

(٤٨) (٤٩) انظرا كلامه هذا فى كتابه إعجاز القرآن : ٢٤٥.

معارضة القرآن وإمكانها فى زمن ، ورأى عدم إمكانها فى زمن آخر ،فالرأى يتغير بتغير الظروف والحالات العقلية والنفسية ،والمعرى فى كثير من المسائل الدينية والفلسفية لا يثبت على رأى واحد ،لأنه يقف فى أكثر الأوقات منها موقف الحائر المتردد ،وقد يجعل الشك سبيلا إلى اليقين . » (٥٠)

وبـــعـــد

فقد كان هؤلاء هم الذين وقفت عليهم فيمن عارضوا القرآن أو اتهموا بمعارضته ،وهم كما نرى لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة رغم الفتوحات الإسلامية واتساعها ،وتطاول القرون وامتدادها ،ولولا أن كتب الأدب والتاريخ تروى لنا أخبارهم ما عرف أحد عنهم شيئا ،ولذهبت آثارهم ، كما تسفى الرياح آثار السير من البرارى .

---

(٥٠) فكرة إعجاز القرآن : ٦٩.

الفصل الخامس

الصرفة ليست سببا فى الإعجاز

الصرفة ليست سببا فى الإعجاز

اتفق المسلمون على أن الله أعجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن ،وأكثر العلماء فى الحديث عن وجوه هذا الإعجاز ،وعن أن هذا الإعجاز نابع من القرآن ذاته ،ولكننا رأينا قلة لا وزن لها - إذا وضعوا فى كفة ،وعلماء الأمة فى كفة أخرى - رأيناها نحت نحوا آخر وقالت إن القرآن معجز بالصرفة ، وهنا نطرح هذه الأسئلة :

١ - ما الصرفة لغة ؟

٢ - وما المقصود منها عند القائلين بها ؟

٣ - ومتى نشأ القول بها ؟ وكيف ؟

٤ - ومن أشهر القائلين بها ؟

٥ - وماالقيمة العلمية لهذا المذهب ؟

فإذا ما جئنا إلى الإجابة عن هذه الأسئلة ،قلنا وبالله التوفيق :

أولا : الصرفة لغة.

الصرفة فى اللغة : اسم مرة ،على وزن فعلة ،ماخوذة من الصرف ،الذى هو رد الشيء عن وجهه ،يقولون : انصرف زيد من مكانه ،أى رجع عنه إلى مكان آخر ،ولذلك تطلق العرب لفظ « الصرفة » على منزل من منازل القمر ،لانصراف البرد وإقبال الحر.(١)

ثانيا : المقصود من الصرفة

أما المقصود من الصرفة عند القائلين بها ،فإنها تعنى أحد أمرين :

١ - أن الله تعالى منع الناس عن معارضة القرآن ،بأن جعل هممهم غير متعلقة بتلك المعارضة ،فى حين أنهم لو لم تصرف هممهم عن المعارضة ،وتعلقت إرادتهم بها ،لاستطاعوا الاتيان بمثل القرآن.

٢ - أو أن الله سلب الناس العلوم التى بها يستطيعون معارضة القرآن .

---

(١) انظر لسان العرب ،مادة صرف .

والفرق بينهما : أن الاول يعنى أن الناس لو توجهوا إلى الإتيان بمثل القرآن ،ولم يمنعهم مانع ،لاستطاعوا أن يأتوا بمثله .

أما الثانى : فإنه يعنى أن الناس لو توجهوا إلى المعارضة ،فإنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن لأنهم قد سلبوا العلوم التى بها يستطيعون معارضته.

ثالثا : نشأة القول بالصرفة

تبين لنا أثناء الحديث عن معارضة القرآن كيف أعجز القرآن العرب بقوة فصاحته وبلاغته ، وحسن نظمه ونور عبارته ،وأنهم سلموا للقرآن بذلك ،واعترفوا بأقوالهم وأحوالهم على ذلك .

وظل هذا الاعتراف قائما بالإجماع ،لم يخرج عنه أحد طوال الصدر الأول من الإسلام ،إلى أن اتسعت الفتوحات الإسلامية ،واطلع بعض فلاسفة المسلمين على ثقافة الفرس واليونان والهند ،فتأثر أولئك الفلاسفة ببعض أفكار هؤلاء خاصة تلك التى وفدت من الهند ،فى عهد أبى جعفر المنصور ،ثانى خلفاء بنى العباسى والذى توفى سنة ١٥٦ هـ .

وكان مما تأثر به البعض القول بالصرفة ،وهو قول قاله البراهمة فى كتابهم « الفيدا » ، الذى يحوى مجموعة من الأشعار ،ليس فى مقدور الناس - فى زعم جمهور علمائهم - الاتيان بمثلها ،لأن براهما صرفهم عن الإتيان بمثلها.

ولكن خاصتهم - كما يقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » - يقولون إن فى مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ،ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها . (٢)

تأثر البعض بالبراهمة فى هذا ،فقالوا إن الله عز وجل منع الناس أن يأتوا بمثل القرآن ،وإن اختلف هذا البعض فى كيفية هذا المنع على الوجهين اللذين ذكرناهما سابقا ،وإن التقى الوجهان فى النهاية على مقصود واحد ،وهو أن القرآن الكريم ليس بمعجز بذاته ،وإنما بأمر خارج عنه ،وأن فصاحته وبلاغته

---

(٢) انظر فى ذلك : المعجزة الكبرى لأبى زهرة : ٧٦.

ليست فوق قدرة البشر ،وإنما من الممكن محاكاتها منهم ...

رابعا : القائلون بالصرفة.

وقد اشتهر من بين هؤلاء القائلين بمذهب الصرفة كل من :

١ - النظام ٢ - الجاحظ ٣ - الرمانى ٤ - الشريف المرتضى

٥ - ابن حزم الظاهرى ٦ - ابن سنان الخفاجى ٧ - الأصبهانى

ولنفرد لكل منهم كلمة ،لبيان حقيقة مذهبه.

أولا النظام

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانىء النظام ،أحد كبار المعتزلة . لقب بالنظام لأن نظم الخرز كان حرفة له فى سوق البصرة. أخذ الاعتزال عن خاله أبي الهذيل العلاف ،أحد أئمة المعتزلة ثم مالبث أن استقل عنه ،وصار صاحب مذهب منفرد .

ويعتبر النظام أول من اشتهر بالقول بالصرفة ،فلم يعرف تاريخ الإسلام من سبقه إلى ذلك ،ويرجع هذا كما ذكرنا آنفا إلى التأثر بمذهب البراهمة فى الفيدا ،حيث اطلع هذا الرجل على مذاهب الكفر والإلحاد ،وتأثر بها تأثرا خطيرا ،وخالط كثيرا من زعماء الكفر وكبار الملحدين ،ويذكر عنه أصحاب التراجم والأعلام ، كثيرا من كفرياته ،وانحرافاته ،وفسقه وفجوره ،ولذلك ذهب إلى تكفيره كثير من علماء المسلمين ،من أهل السنة وغيرهم ،حتى أستاذه وخاله أبو الهذيل العلاف .

ولندع الامام عبد القاهر البغدادى يحدثنا عن شىء من مآثره ،حيث يقول عنه فى كتابه « الفرق بين الفرق ».:

« دون مذاهب الثنوية ،وبدع الفلاسفة ،وشبه الملحدة فى دين الإسلام ،وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ،ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفا من السيف ،فأنكر إعجاز القرآن فى نظمه ،وأنكر ماروى من معجزات نبينا ﷺ ،من انشقاق القمر ،وتسبيح الحصى فى يده ،ونبوع الماء من بين أصابعه ليتوصل بإنكار معجزات نبينا ﷺ إلى إنكار نبوته ثم إنه استثقل

أحكام شريعة الإسلام فى فروعها ، ولم يجسر على إظهار دفعها ، فأبطل الطرق الدالة عليها ، فأنكر لأجل ذلك الحجة من الأخبار ، التى توجب العلم الضرورى .

ثم إنه علم إجماع الصحابة على الاجتهاد فى الفروع الشرعية ،فذكرهم بما يقرؤه غدا فى صحيفة مخازيه ،وطعن فى فتاوى أعلام الصحابة رضى الله عنهم. »(٣)

ثم عدد البغدادى بعض فضائح النظام ،فذكر منها إحدى وعشرين فضيحة ،وقال عند الفضيحة الخامسة عشرة:

« الفضيحة الخامسة عشرة : قوله : « إن نظم القرآن ،وحسن تأليف كلماته ليس بمعجز »

وعلق البغدادى على ذلك بقوله : « ولم يكن غرض منكر إعجاز القرآن إلا إنكار نبوة من تحدى العرب بأن يعارضوه بمثله »

ثم ذكر البغدادى بعض مساوئه الأخلاقية ،مثل إدمان شرب الخمر وارتكاب الفواحش (٤)

كذلك ذكر الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ثلاث عشرة مسألة انفرد بها النظام عن أصحابه من المعتزلة ،وذكر فى التاسعة قوله بالصرفة (٥)

وأمام هذه الكبائر التى يصل كثير منها إلى حد الكفر ،فقد كفره كثير من علماء المسلمين ،يقول البغدادى : « وجميع فرق الإسلام من فريقى الرأى والحديث - مع الخوارج والشيعة والعمارية وأكثر المعتزلة - متفقون على تكفير النظام »

ثم ذكر البغدادى بعضا من شيوخ المعتزلة الذين كفروه كشيخه وخاله أبى الهذيل العلاف ،والجبائى والإسكافى .

ولم يكتف علماء المسلمين بتكفيره بألسنتهم ،بل ألفوا فى ذلك كتبا

(٣) الفرق بين الفرق : ١٣١، ١٣٢.
(٤) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى : ١٣١ - ١٥٠.
(٥) انظر الملل والنحل : ٥٣ ط دار الفكر.

متعددة ، يقول البغدادى : « وأما كتب أهل السنة والجماعة فى تكفيره فالله يحصيها ،ولشيخنا أبى الحسن الأشعرى رحمه الله فى تكفير النظام ثلاثة كتب ،وللقلا نسى عليه كتب ورسائل »(٦)

وكان الجاحظ الذى تتلمذ على يدى النظام ، وأكبر معجب بعقله وشخصه ،والقائل : « كان الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ،فإن كان ذلك صحيحا فهو النظام »(٧)

أقول : كان الجاحظ هذا أكبر ناقد قد لشيخه ،حيث قال فيه (٨) « إنما كان عيبه الذى لا يفارقه بسوء ظنه ،وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل ،الذى قاس عليه ،كان أمره على الخلاف ،ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ،وينسى أن بدء أمره كان ظنا ،فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ،وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ،ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ،وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعه ،لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ،أو عن معاينة قد بهرته » ا. هـ

وكان أبلغ رد من الجاحظ على شيخه النظام ردا عمليا ،حيث صنف كتابا يعتبر أول كتاب أفرد فى قضية الإعجاز ،رد فيه على مذهب الصرفة ،بما يبين أن القرآن معجز بفصاحته وبيلاغته لا بأمر خارج عنه ،وأسمي الجاحظ كتابه هذا « نظم القرآن ».

وإلى هذا الكتاب أشار الباقلانى فى مقدمة كتابه إعجاز القرآن وإن كان قد ذكره بشىء من النقد

---

(٦) الفرق بين الفرق ١٣١ - ١٥٠.

(٧) نقله أحمد أمين فى ضحى الإسلام : ٣ / ١٢٠ ط دار الكتاب العربى عن المرتضى فى المنية والأمل ص : ٢٩.

(٨) كما ذكر الرافعى فى إعجاز القرآن ص : ١٨٧، ١٨٨.

٢ – الجاحظ

والجاحظ من كبار المعتزلة ،ومن أئمة البيان العربى ،وقد أشرنا الآن إلى أنه أول من أفرد كتابا فى إعجاز القرآن ،فهو إذا من القائلين بأن القرآن معجز ، ولكن بم كان هذا الإعجاز ؟ هذا ما وجدنا عنه رأيين متناقضين فيه ،رأى يقول بالصرفة ،وآخر يقول بالنظم البديع ،جاء عنه هذان الرأيان فى موضعين متقاربين فى كتابه « الحيوان »

فعن الإعجاز بالصرفة يقول : « ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ،وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن ،بعد أن تحداهم الرسول بنظمه »(٩) وبعد ذلك بقليل يقول عن الإعجاز بالنظم : « فلم يبق له – أى للدهرى الذى لا يقول بالتوحيد – رأى إلا أن يسألنا عن الأصل الذى دعا إلى التوحيد ،وإلى تثبيت الرسل فى كتابنا المنزل ،الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع ،الذى لا يقدر على مثله العباد ،مع ما سوى ذلك من الدلائل ،التى جاء بها من جاء فيه »(١٠) والمدقق فى مذهب الجاحظ يرى أن مذهبه فى الإعجاز ،كمذهب أهل السنة ،فى أنه معجز بالنظم والبلاغة ،لا بالصرفه ،ولذلك يقول الرافعى : « أما الجاحظ فإن رأيه فى الإعجاز كرأى أهل العربية ،وهو أن القرآن فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها »(١١)

وإذا كان الرافعى يعلل هذا التناقض بقوله : « وقد يكون الجاحظ استرسل بهذه العبارة – أى التى صرح فيها بالصرفة – لما فى نفسه من أثر أستاذه ،وهو شىء ينزل على حكم الملابسة ،ويعترى أكثر الناس ،إلا من تنبه له ،أو نُبه عليه ،أو هو يكون ناقلا »(١٢)

أقول : إذا كان الرافعى يعلل هذا التناقض من الجاحظ بهذا التعليل فإنى أرى أن الجاحظ كان له رأيان ،رأى فى بداية أمره حين كان متتلمذا على أستاذه

---

(٩) الحيوان : ٤٠ / ٤١ تحقيق فوزى عطوى المحامى .
(١٠) الحيوان : ٤ / ٤٢.
(١١) إعجاز القرآن للرافعى : ١٩٠.
(١٢) الموضع السابق

النظام ،أو حين كان قريب عهد بهذه التلمذة ،فتأثر بمذهب أستاذه ،ونحا نحوه ،ولكنه بعد أن أعمل عقله ،واستقل بفكره ،وتبين له وجه الصواب ،قال بالرأى الثانى وهو الإعجاز بالنظم البديع ،وهذا شىء طبيعى يحدث لكل صاحب فكر حر ،غير مقلد لغيره ،يتأثر بمذهب حينا ،حيث يظنه هو الصواب ،فلما يتضح له بطلانه يتركه ويتمسك بما ظهر له واعتقده هو الصواب ،ومما يرجح هذا ما قاله فى كتاب النبوة [١٣] : « ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ،ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها لغا ولفظا »[١٤] .

٣ – الرمـــانى

ومن علماء القرن الرابع الهجرى ،الذين ألفوا فى إعجاز القرآن ،أبو الحسن على بن عيسى الرمانى ،فقد ألف رسالة أسماها : « النكت فى إعجاز القرآن » وعد للإعجاز سبعة أوجه ،منها الصرفة حيث قال فى مقدمة رسالته تلك : « وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة ،والتحدى للكافة ،والصرفة ،والبلاغة ،والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ،وقياسه بكل معجزة » ثم تحدث بالتفصيل عن هذه الوجوه[١٥] والذى يلفت النظر ،ويدعو إلى العجب ،جمعه بين الصرفة وغيرها من البلاغة وسائر ما ذكر ،إذ الإعجاز بالصرفة يكون بسبب خارج عن القرآن ،أما الإعجاز بالبلاغة ،فبسبب ذاتى منه وليس بخارج عنه ،وعلى ذلك فقوله متناقض.

٤ – الشريف المرتضى

وفى القرن الخامس الهجرى ظهر من علماء الشيعة الشريف المرتضى ،المتوفى

---

(١٣) كما ذكر الجرجانى فى دلائل الإعجاز ٢٥٠.

(١٤) يقال لغى به لغا إذا لهج به

(١٥) انظر ثلاث رسائل فى الإعجاز ،الرسالة الثانية : ٦٩ وما بعدها

سنة ٤٣٦ هـ ،وقد نسب إليه القول بالصرفة ضمن من اشتهروا بها .

قال ياقوت الحموى وهو يتحدث عن ابن سنان الخفاجى ،وقوله بالصرفة : « وهو مذهب لجماعة من المتكلمين والرافضة ،منهم بشر المريسى ،والمرتضى أبو القاسم » (١٦)

ولكن الذين نسبوا إلى الشريف المرتضى هذا القول نسبوه إليه على وجه يختلف عن وجه الصرفة عند النظام ،حيث قالوا إن الصرفة عنده تعنى أن الله سلب الناس العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة ،وقد بينا فى تعريف الصرفة الفرق بين الوجهين .

وفى نسبة هذا القول إلى الشريف المرتضى شك كبير ،فهى أقوال تنسب إليه ،دون أن يكون له تأليف خاص يدل على صحة هذه النسبة إليه.

ولذلك يقول عبد العليم هندى فى مقالة له (١٧): « ونحن لا ندرك ما يتصل بأقواله فى الموضوع ،لأن كتبه ضاعت »

ورغم أن هذا هو المشهور عن المرتضى فإن له ما يشهد بخلافه ، حيث ينص على أن القرآن معجز بالنظم .

فقد جاء فى كتابه « طيف الخيال » (١٨) ،وهو يتحدث عن أبيات قالها عمرو بن قميئة التصريح بأن الإعجاز قائم على البلاغة ،حيث يقول :

« فانظر إلى هذا الطبع المتدفق ،والنسج المطرد المتسق ،من أعرابى قح ،قيل إنه مفتتح لو صف الطيف ،وكأنه لانطباع سبكه ،وجودة وصفه ،قد قال فى هذا المعنى الكثير ،ونظم منه الغزير ،وقلب ظاهره وباطنه ،وباشر أوله وآخره ،وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين ، وإجادة المجيدين ،ما سلك منهجه ،وأخرج كلامه مخرجه ،ولكن الله تعالى أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة ،وهداهم من مسالك البلاغة ،إلى ما هو ظاهر باهر ،ولهذا كان القرآن معجزا ،وعلما على النبوة ،لأنه أعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم . » ا . هـ .

---

(١٦) معجم الأدباء : ٣ /١٣٩ ط إحياء التراث العربى بيبروت .

(١٧) نقلها عنه الحمصى ،فى : فكرة إعجاز القرآن : ٦٩.

(١٨) كما نقل عنه الحمصى فى المصدر السابق : ٧١.

٥ - ابن حزم الظاهرى

*ومن الذين قالوا بالصرفة أيضا ،ذلك الفقية الظاهرى ابن حزم الأندلسى ،الذى ظهر فى القرن الخامس الهجرى ،حيث يقول فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ما نصه : « لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله تعالى معجز ، لكن لما قاله الله تعالى ،وجعله كلاما له أصاره معجزا ، ومنع من مماثلته ،وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره والحمد لله » (١٩)

وهذا كلام عجيب ،وتفسير غريب من ابن حزم للصرفة ،فالمعروف عن الصرفة أنها تقتضى أن القرآن بذاته غير معجز ،وإنما المعجز مانع من خارج القرآن ،ولكن ابن حزم يصرح بأمرين متناقضين حيث ينص على أن القرآن بذاته معجز ،كما ينص على أن الله منع الناس من مماثلته ،وهذا فى منتهى الغرابة ،قرآن معجز بذاته ،وتحد من الله للناس ،ثم منعهم من المماثلة !! ففيم التحدى إذا ؟ إن هذا لشىء عجاب !

ولذا يعلق الرافعى على كلامه هذا بقوله : « ولم نر أحدا فسر هذه الكلمة (الصَّرفة) كابن حزم الظاهرى » (٢٠)

ويرى الشيخ أبو زهرة أن ابن حزم - فى مذهبه ذلك - إنما هو سائر على منهجه فى الأخذ بالظاهر وترك التعليل ،فإذا كان الله قد أخبر بأن القرآن معجز ،فعلينا أن نؤمن بذلك ، دون بحث عن وجه هذا الإعجاز ..

يقول أبو زهرة رحمه الله : « وإن ذلك الكلام يبدو بادىء الرأى غريبا من ابن حزم ،ولكن المتأمل فيه يجده سائرا على مذهبه ،فى نفى الرأى والحكم بظاهر القول ،من غير تعليل ،فالإتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته ،التى علت عن طاقة العرب ،والتى جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه ،من غير مراء ولا جدال يعد تعليلا ،وهو من باب الرأى الذى

---

(١٩) الكتاب المذكور : ٣ / ١٢ ط الخانجى بالقاهرة .
(٢٠) إعجاز القرآن للرافعى : ١٨٩.

ينفيه ،والتعليل الذى يجافيه .» [٢١]

أقول : بل المتأمل فى كلام ابن حزم يراه غير سائر على مذهبه ،بخلاف ما قرره فضيلة الشيخ أبى زهرة رحمه الله ،لأن ابن حزم قد علل إعجاز القرآن ،وذهب إلى أن العلة فى ذلك ترجع إلى أمرين

١ – أن الله أصاره معجزا ،أى جعله على وجه يعجز عنه الخلق

٢ – أنه منع الناس من مماثلته إذا فالإعجاز عنده معلل سببه ،وليس مجهولا ،وإن كانت العلتان متناقضين ،تناقضا يدعو إلى العجب ،حيث فسر الصرفة بما لم يفسرها غيره ،كما قال الرافعى رحمه الله .

٦ – ابن سنان الخفاجى

وممن اشتهر عنهم القول بالصرفة ،وظهر فى القرن الخامس الهجرى أيضا ابن سنان الخفاجى الشاعر ،صاحب « سر الفصاحة » .

يقول عنه ياقوت الحموى فى معجم الأدباء : « قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الشاعر ،فى كتاب له ألفه فى الصرفة ،زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة فى الفصاحة ،حتى صار معجزة ،للنبى ﷺ ،وان كل فصيح بليغ قادر على الاتيان بمثله ،إلا أنهم صرفوا عن ذلك ،لا أن يكون القرآن فى نفسه معجز الفصاحة »[٢٢]

هذا ما قرأه الحموى ،أما ما قرأناه ويقرأه كل من يطلع على كتابه « سر الفصاحة » ،فسيجد فيه التصريح بذلك ،بل بكيفية الصرفة ذاتها.

حيث يقول : « ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار ،فى هذه القضية ،ومتى رجع الإنسان إلى نفسه ،وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ،وجد فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه »[٢٣]

---

(٢١) المعجزة الكبرى : ٧٩.
(٢٢) معجم الادباء : ٣ / ١٣٩.
(٢٣) سر الفصاحة : ٨٩.

وبعد ذلك بقليل ،وفى الصفحة ذاتها ،يبين لنا وجه الصرفة عنده فيقول : « وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ،بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة ،فى وقت مرامهم ذلك »(٢٤)

وإذا كان ابن سنان الخفاجى يدعى أن فى كلام العرب ما يضاهى القرآن ،وأنه لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار ،فلا أدرى لماذا لم يأت لنا بنماذج من كلامهم ،ليبين لنا صحة زعمه هذا .

وهل اطلع الخفاجى على شىء من كلام العرب لم نطلع عليه نحن ولا جميع المسلمين إلى اليوم ،حتى ذهب إلى هذا الزعم ؟

وإذا كان عند العرب ما يضاهئون به القرآن ،فلماذا لم يأتوا به إلى النبى ﷺ حينما تحداهم ،وأثار حفيظتهم بتسفيه الآباء والأجداد ،وسب الآلهة والمعتقدات ،لماذا لم يظهروا ذلك ويكسبوا القضية من أقصر طريق ،دون إزهاق لأرواحهم ،وإضاعة لأموالهم .

ولا أدرى هل كان مع الخفاجى هذا عقله . حين زعم هذا الزعم ،أو كان مسلوبا إياه ، كما يدعى بأن الله سلب العرب العلوم التى بها يتمكنون من المعارضة .. ؟

إن كلامه هذا يحمل من التناقض ،مايرده عليه ،فكيف يكون عندهم كلام يضاهى القرآن ،وكيف سلبهم الله علوم المعارضة ،فلو أنهم سلبوا المعارضة ،فإنهم لم يسلبوا كلامهم وأشعارهم ،فقد كانوا يدونونها ،لتتناقل من جيل إلى جيل ،وها هى بين أيدينا الآن وستظل إن شاء الله إلى ما شاء الله .

ولقد أحسن الباقلانى صنعا (ت ٤٠٣ هـ) والذى ظهر قبل الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ حينما أتى فى كتابه (إعجاز القرآن) بأفصح كلام العرب من شعر وخطابة ورسائل وغير ذلك ،بما فى ذلك أحاديث الرسول ﷺ ،وبليغ كلام الخلفاء ،وأشهر الفصحاء ،ليظهر أن لا مقارنة إطلاقا بين القرآن

---

(٢٤) الموضع السابق .

وغيره ،فالأول كلام الخالق ،والثانى كلام المخلوق ،والفرق بينهما كالفرق بين الخالق والمخلوق.

٧ – الأصبهانى

وممن قالوا بالصرفة أيضا الأصبهانى ،المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ،ولكنه قرن بينها وبين الإعجاز بالنظم ،وكلامه فى الإعجاز بالنظم عجيب وغريب ،والذى يهمنا الآن قوله بالصرفة ،حيث يقول : [٢٥]« وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضا ،إذا اعتبر ،وذلك أنه ما من صناعة محمودة كانت أو مذمومة إلا بينها وبين قوم مناسبات خفية ،واتفاقات جميلة ،بدليل أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف ،فينشرح صدره بملابستها ،وتطيعه قواه فى مباشرتها ،فيقبلها بانشراح صدره ،ويزاولها باتساع قلبه ، فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون فى كل واد من المعانى ،بسلاطة لسانهم ،إلى معارضة القرآن ،وعجزهم عن الاتيان بمثله ،ولم يتصدوا لمعارضته ،لم يخف على أولى الألباب أن صارفا إلهيا صرفهم عن ذلك ،وأى إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزت فى الظاهر عن معارضته ،مصروفة فى الباطن عنها » ا . هـ

ويلاحظ على الأصبهانى تناقضه فى عباراته ،فى أوجه الاعجاز ،سواء فيما يتعلق بالنظم ،أم فيما يتعلق بالصرفة ، بل الجمع بينهما تناقض فى حد ذاته ،فالإعجاز بالنظم إعجاز ذاتى ،والإعجاز بالصرفة إعجاز خارجى ،فما فائدة التحدى من الله للخلق إذا كان فى مقدورهم الاتيان بمثله ،لولا أن الله منعهم ،إن هذا كالتحدى للأموات ،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

إن معنى قوله إن البلغاء عجزوا فى الظاهر عن معارضة القرآن ،لأنهم مصروفون فى الباطن عنها ،لا معنى له إلا كأنهم كالأموات الذين لا يملكون من أمرهم شيئا ،فهل يحفل الله بمثل هذا التحدى؟

---

(٢٥) كما جاء فى الاتقان للسيوطى : ٢ / ١١٩، ١٢٠.

إبطال القول بالصرفة

بعد هذا العرض السريع لمذهب من اشتهر عنهم القول بالصرفة ،نأتى إلى بيان القيمة العلمية لهذا المذهب .

ونستطيع أن نقول بكل ثقة ،إن هذا المذهب فى غاية البطلان ،سواء من ناحية التفسير الذى يقول إن الصرفة معناها أن الله تعالى صرف الناس عن معارضة القرآن ،وجعل هممهم غير متعلقة بتلك المعارضة ،ولولا هذا الصرف لاستطاعوا الاتيان بمثل القرآن .

أم من ناحية التفسير الذى يقول إن الصرفة معناها أن الله سلب الناس العلوم التى بها يستطيعون معارضة القرآن .

ويمكننا أن نبين هذا البطلان عن طريقين ،طريق يبطل التفسيرين معا ،وطريق يبطل كل تفسير على حدة .

أما الطريق الأول وهو الذى يبطل التفسيرين معا ،فنقتصر من الأدلة التى تبطله على ما يلى:.

١ - القول بالصرفة يؤدى إلى كون القرآن ليس بمعجز ،وإنما المعجز أمر خارجى عنه ،وهو المنع ،مما يترتب عليه أن لا فضيلة لكلام الله على كلام غيره .

٢ - آيات القرآن ذاتها صريحة فى أن الإعجاز يكمن فى القرآن نفسه ،لا بأمر خارجى عنه ،ومن الآيات التى تنص على ذلك :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا** ﴾(٢٦) وجواب (لو) محذوف ،للعلم به ،والتقدير : لكان هذا القرآن ،والمعنى : لو أن كتابا من شأنه أن يفعل تلك الأشياء ،من تسيير الجبال ،وتقطيع الأرض وتكليم الموتى لكان هذا القرآن فهذه الآية تنص على أن مزايا هذا القرآن كامنة فى ذاته ،لا فى أمر خارجى .

(ب) قوله تعالى: ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ،أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب**

(٢٦) الرعد : ٣١.

يتلى عليهم إن فى ذلك الرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾(٢٧) فهذا نص صريح فى أن القرآن ذاته معجزة تفوق كل معجزة يطلبونها ، أو يتصورونها .

(جـ) ما ورد من آيات تفيد تأثير القرآن فى قلب كل من يسمعه ، مؤمنا كان أو كافرا .

فمثال ما ورد تأثيره فى المؤمنين قوله تعالى **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾**(٢٨)

ومثال ماورد تأثيره فى الكفار قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾(٢٩)

فقد علم زعماء الكفر تأثير القرآن العجيب ، فى قلب كل من يسمعه ، فتواصوا بعدم سماعه ، وأمروا أتباعهم باللغو فيه أثناء قراءته ، حتى لا يؤمنوا بما جاء به رسول الله ﷺ .

٣ - انعقد إجماع السلف رضوان الله عليهم على أن المعجز هو القرآن لا الصرفة ، فالقول بها مخالف لما أجمع عليه سلف الأمة .

يقول القرطبى رحمه الله عن مذهب الصرفة : « وهذا فاسد لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز ، لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا »(٣٠)

٤ - لو كان الأمر كما يقول القائلون بالصرفة ، للزم أن تكون بلاغة

---

(٢٧) العنكبوت : ٥٠، ٥١.

(٢٨) الزمر : ٢٣.

(٢٩) فصلت : ٢٦.

العرب فى الجاهلية ، وقبل التحدى تضارع أو تفوق بلاغة القرآن . فما أيسر الأمر عليهم حينما تحدوا أن يأتوا بكلامهم قبل التحدى ، ليبطلوا أمر الرسول ﷺ .

يقول الباقلانى : « على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه - أى القائل بالصرفة - لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية ، مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم ، وعجيب الرصف ، لأنهم لم يتحدوا إليه ، ولم تلزمهم حجته ، فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان »(٣١)

٥ - ذكرنا أثناء الحديث عن معارضة القرآن ، أن العرب قد بهرهم القرآن ، وقد أعجبوا بأسلوبه ، وبتأثيره فى النفوس ، كما جاء عن الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وجابر بن عبد الله ، وأخيه أنيس ، وكل هذا ينفى القول بالصرفة ، فلو أنهم صرفوا عن المعارضة لم يعترفوا للقرآن بما اعترفوا به .

قال الشاعر لبيد(٣٢) : « إن الله أبدلنى من الشعر سورة البقرة »

٦ - القول بالصرفة يكاد يوافق قول العرب عن القرآن إنه سحر ، وقد توعد الله من يقول ذلك ، حيث يخاطبه فى جهنم بقوله ﴿ **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون** ﴾(٣٣)

يقول الرافعى رحمه الله: « وعلى الجملة : فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه﴿ **إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾(٣٤) ، وهذا زعم رده الله على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول به ضربا من العمى »(٣٥)

٧ - على من يدعى القول بالصرفة أن يثبت أولا قدرة العرب على الاتيان

---

(٣٠) تفسير القرطبى : ١/ ٧٥.

(٣١) إعجاز القرآن للباقلانى : ٤٢ .

(٣٢) كما فى المغنى للقاضى عبد الجبار: ١٦ /٢٦٩ .

(٣٣) الطور : ١٥ .

(٣٤) المدثر: ٢٤ .

(٣٥) إعجاز القرآن للرافعى : ١٨٩ .

بمثل القرآن ، ثم يثبت بعد ذلك ما يدل على أنهم قد صرفوا عن ذلك . إنه لن يستطيع أن يثبت كلا الأمرين ، وإلا لأثبتها الذين تحدوا بالقرآن ، وخوطبوا به فى أول أمره .

إنهم لم يدعوا تلك القدرة لأنفسهم ، فلماذا ندعيها نحن لهم .؟

وقد أشرنا سابقا إلى أن الباقلانى قد أتى بنماذج من أبلغ كلام العرب ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ وصحابته ، وعظماء الشعراء والبلغاء ، ليثبت أن كلام الجميع لاوجه لمقارنته بنظم القرآن الكريم ، وحسنا فعل ، رحمه الله تعالى .

٨ - ومما ينفى القول بالصرفة أيضا أن الواقع يكذب هذا الادعاء ، فقد قام بعض الناس بمعارضة القرآن ، كمسيلمة وغيره ، وإن كانت تلك المعارضة غاية فى الإسفاف ، مما جعل أصحابها هزءا للناس وسخرية . ولو كان هناك ما يسمى بالصرفة لما وجدنا شخصا واحداً عارض القرآن ، أما وأننا قد وجدنا بعضا قام بهذه المعارضة وإن كانت سخيفة فإن ذلك ينفى القول بأن الله صرف الناس عن معارضة القرآن ، أوسلبهم ما به يعارضون.

٩ - هناك من أوجه الإعجاز الكثيرة للقرآن غير الإعجاز البيانى ، تدل على بطلان القول بالصرفة ، لأن هذه الأوجه لا دخل للصرفة فيها .

هذا عن بطلان الصرفة على كلا التفسيرين اللذين قيلا فى معناها .

فأما إذا جئنا إلى بطلان كل تفسير على حدة ، فإننا نقول بالنسبة للتفسير الأول وهو أن الصرفة تعنى أن الله تعالى صرف الناس عن معارضة القرآن وجعل هممهم غير متعلقة بتلك المعارضة ، ولولا هذا لاستطاعوا الاتيان بمثل القرآن .

نقول : إن هذا باطل ، وذلك لوجود عدة دوافع تدفع العرب دفعا لمعارضة القرآن وقد تكلمنا عن بعض هذه الدوافع أثناء حديثنا عن معارضة القرآن الكريم .

فلا يقال بعد ذلك إن هممهم كانت غير معلقة بتلك المعارضة .. ومما يدلنا على أن تلك الدوافع قد فعلت فعلها فى نفوس العرب .

(أ) إيذاؤه ﷺ وأصحابه، بالسب والسبى والقتل.
(ب) مقاطعة قريش لرسول الله ﷺ وآله، بحيث لا يتزوجون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتبادلون معهم البيع والشراء، حتى ضاق الأمر عليهم فأكلوا ورق الشجر وجلود الحيوانات.
(ج) المفاوضات التى دارت بينهم وبين رسول الله ﷺ وعروضهم المغرية، من أجل أن يترك النبى ﷺ هذا القرآن.
(د) اتهامه ﷺ تارة بالجنون، وتارة بكونه شاعرا، وثالثة بكونه ساحرا.
(هـ) تشويه صورته فى المواسم، حتى لا يتبعه من لا يعرفه.
(و) تشديد الأذى على الصحابة، حتى ألجاؤهم إلى ترك ديارهم واهليهم وأموالهم.
(ز) تآمرهم الخبيث على قتل رسول الله ﷺ، لولا أن الله عصمه، وأمره بالهجرة إلى المدينة.
(ح) نشوب الحرب بينهم وبينه ﷺ فى حوالى سبع وعشرين غزوة، أتت على الأخضر واليابس، وأهلكت الحرث والنسل. فهل يعقل بعد ذلك كله أن يقال إن هممهم كانت مصروفة عن الاتيان بمثل القرآن ولم تفعل دوافع معارضته شيئا فى نفوسهم؟، مع أن الله تعالى قد يسر لهم أمر هذه المعارضة، فلم يطلب منهم سوى الاتيان بمثل أقصر سورة من القرآن. وإذ جئنا إلى التفسير الثانى للصرفة، وهو أن الله تعالى سلب الناس العلوم التى بها يستطيعون معارضة القرآن فإننا نستطيع بيان بطلان هذا القول بما يلى:.

١ - الآيات التى بها تحدى الله الخلق أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه تبطل هذا التفسير للصرفة.

كقولة تعالى: ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾(٣٦) وكقوله تعالى ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن**

(٣٦) البقرة: ٢٣.

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٣٧)

فآيات التحدى هذه تدل على أن إعجاز القرآن بذاته، وإلا فما فائدة التحدى، ودعوة الخلق للاحتشاد والتأليف، والاتيان بالشهداء والمحكمين، ليقارنوا بين القرآن وغيره؟

إن آيات التحدى تعنى دعوة كل الخلق بكامل قوتهم، وتمام عقولهم، لمعارضة القرآن، أفيعقل أن يدعوهم الله إلى هذا التحدى، وذلك الاجتماع، ثم يسلبهم قواهم، وبعد ذلك يطالبهم بالإتيان بمثل القرآن؟

إن هذا يعنى أن الله يتحدى أمواتا، فهل فى هذا إعجاز؟ وهل يحفل عوام الناس بمثل ذلك، فضلا عن فضلائهم؟ حتى ننسب ذلك لله رب العالمين.

يقول الزملكانى - فى معرض رده الصرفة:

« ولأن سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى، فلا يجدى اجتماعهم قوة وظهورا على المعارضة، وهو مخالف لقوله تعالى: **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾**(٣٨)

٢ - لو كان الله عز وجل سلب العرب العلوم اللازمة للمعارضة، لوجدنا العرب بعد التحدى مباشرة قد نزل كلامهم، وزالت بلاغتهم، ونضبت قرائحهم، ولأحسو بذلك، ولعللوا بهذا السلب عجزهم عن المعارضة، ولا تهموا رسول الله ﷺ بأنه فعل ما به قد شل تفكيرهم، وعطل حواسهم، وأفسد آلة بلاغتهم، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث

يقول الجرجانى: « ومما يلزمهم على أصل المقالة، أنه كان ينبغى له - أى القرآن - إن كانت العرب منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا

---

(٣٧) الاسراء: ٨٨.

(٣٨) البرهان فى إعجاز القرآن للزملكانى: ٥٣، ٥٤.

عليها ، أن يعرفوا ذلك من أنفسهم ، كما قدمت ، ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك ، ولكانوا قد قالوا للنبى ﷺ إنا كنا نستطيع قبل هذا الذى جئتنا به ، ولكنك قد سحرتنا ، واحتلت فى شىء حال بيننا وبينه ، فقد نسبوه إلى السحر فى كثير من الأمور ، كما لا يخفى ، وكان أقل ما يجب فى ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم ويشكوه البعض إلى البعض ، ويقولوا ما لنا قد نقصنا فى قرائحنا ، وقد حدث كلول فى أذهاننا »[٣٩]

٣ - لو كان العرب قد سلبوا العلوم اللازمة للمعارضة ، لوجدناهم قد عمدوا إلى كلامهم شعرا ونثرا قبل التحدى ، وعارضوا به القرآن ، وأثبتوا للناس أن كلامهم ليس بأقل بلاغة من بلاغة القرآن ، إن لم يكن أبلغ ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل على العكس ، فقد اعترفوا ببلاغة القرآن ، ولم يستطيعوا إخفاء انبهارهم به ، حتى وصل الأمر بهم فى النهاية إلى أن اعتبروه سحرا ، يسحر عقول الناس وقلوبهم .

٤ - لو كان العرب قد سلبوا العلوم اللازمة للمعارضة لوجدناهم قد فقدوا عقولهم ، وأتوا بما يفعله المجانين ، ولكن ذلك لم يحدث .

يقول الفخر الرازى رحمه الله : « إن نسيان الصيغ المعلومة فى مدة يسيرة ، يدل على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب مازالت عقولهم بعد التحدى »[٤٠]

وهكذا يتبن لنا فساد القول بالصرفة ، على أى تفسير فسرها القائلون بها ، وإن دل هذا المذاهب على شىء فإنما يدل على حماقة قائله ، وتبلد مشاعره تجاه قرآن لو نزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

وإن عذر أحد فى أمر ما ، فلا أراه معذورا فى مثل هذا القول.

وما أصدق الجرجانى حينما قال :

« إن القول بالصرفة قول فى غاية البعد والتهافت ، وأنه من جنس مالا يعذر العاقل فى اجتهاده »[٤١]

---

(٣٩) الرسالة الشافية ، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز : ١٣٥ .

(٤٠) نهاية الإعجاز فى دراية الإعجاز، ٥٥، ٥٦ .

(٤١) الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز: ١٣٦ .

الباب الثانى

وجوه إعجاز القرآن

الفصل الأول

الوجه الأول

الإعجاز البياني

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الاول : بين فصاحة العرب وبلاغتهم وفصاحة القرآن وبلاغته .

المبحث الثاني : نظـــــم القرآن

أ – المقصود من النظم .

ب – نظم حروف القرآن .

جـ – اختيار الكلمة القرآنية .

المبحث الثالث : أســـلوب القرآن

تمهيد

ما المقصود من الإعجاز البيانى ؟

حينما نقول إن من أوجه إعجاز القرآن الكريم الإعجاز البيانى ، فإنما نقصد من ذلك :

مجيء القرآن بأسلوب فصيح بليغ غير مألوف للعرب من قبل ، خارج عن نطاق فصحائهم وبلغائهم .

حيث احتوى على نظم بديع لحروفه ومفرداته ، وجمله وتراكيبه بلغ قمة الفصاحة ، وارتقى عرش البلاغة ، حتى اعتقلهم عن معارضته ، ومثل لهم اليأس قائما ، لا يتصل به طمعهم ، رغم عدم خروجه على مفردات لغتهم ، وقواعد تركيبها وقوانين صياغتها .

ونستطيع بيان ذلك من خلال ثلاثة مباحث على النحو التالى:

المبحث الأول : فصاحة العرب وبلاغتهم ، وفصاحة القرآن وبلاغته .

المبحث الثانى : نظم القرآن .

المبحث الثالث : أسلوب القرآن .

وإلى شيء من التفصيل:

المبحث الأول :

بين فصاحة العرب وبلاغتهم
وفصاحة القرآن وبلاغته .

بين فصاحة العرب وبلاغتهم وفصاحة القرآن وبلاغته .

صناعة الكلام مفخرة العرب ، وسيدة أعمالهم ، بها ارتقوا إلى قمة الفصاحة ، وَسَمَوْا إلى ذروة البلاغة ، ففى الكلام قامت بينهم مباريات ، وفى أفانينه كانت لهم مساجلات ، وبين بلغائهم دارت مناقضات ، كان الرجل منهم ينطق بالكلمة فيلحق بغيره عارا ، وكانت المرأة تتلفظ بها فتوقدها نارا ، وكان الشاعر ببيت واحد ينال من المال ما اشتهته نفسه ، وبكلمة واحدة يقطف بها رؤوسا ، ويزهق بها نفوسا .

لقد جعلوا من فصاحتهم وبلاغتهم ما فاق سحر السحرة ، وألاعيب الحواة ، وخدع المخادعين ...

يقول القاضى عياض فى كتابه الشفاء ، عن العرب وبلاغتهم :

« خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الإحن ، ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجبان ، والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ، ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول ، القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية »(١)

ولكن ما المقصود بكل من الفصاحة والبلاغة ؟ وفيم يكونان ؟ وبم يتحققان ؟ ذلك ما نتناوله الآن إن شاء الله بشىء من الإيجاز .

---

(١) الشفاء ، للقاضى عياض: ١/ ١٦٦، ١٦٧ ط مصطفى الحلبى .

أولا : الفصاحة

أما الفصاحة : فإنها تعنى – فى أصل اللغة – الظهور والبيان ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر ضوؤه ، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته ، وفلان أفصح من فلان ، إذا كان أقدر على بيان المراد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردء ايصدقنى** ﴾(٢)

قال الخفاجى : « وسمي الكلام الفصيح فصيحا ، كأنهم سموه بيانا ، ولإعرابه عما عبر عنه ، وإظهاره له ، إظهارا جليا »(٣)

وعلى هذا المعنوى اللغوى للفصاحة جاء المعنى الاصطلاحى لها فى عبارات جمهور البلغاء ...

ومن ذلك **تعريف الباقلانى** لها : بأنها : « الاقتدار على الإبانة عن المعانى الكامنة فى النفوس ، على عبارات جلية ، ومعان نقية بهية »(٤)

ومعنى كون الكلام الفصيح ظاهرا بينا ، أنه لا يحتاج إلى جهد لفهمه ، لكثرة استعماله .

ولكن ما الذى جعل هذا الفصيح مألوفا لدى الناس ، كثير التردد على ألسنتهم ؟ إنه الحسن لا أكثر ، الحسن الذى يتلاءم مع الذوق السليم ، ويساير الحس المرهف ، فما أن يقع اللفظ على السمع إلا ويستعذبه منذ اللحظة الأولى ، دون غيره من ألفاظ مرادفة له ، تؤدى المعنى ذاته ، فالمطر مثلا له صفات متعددة ، منها المزنة ، التى استعملها القرآن فى قوله ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾(٥) فإن هذه اللفظة تقع على السمع موقعا حسنا ، بعكس مرادفها « البعاق » فإنها كريهة على السمع ، قبيحة على الذوق .

فالألفاظ فى نهاية أمرها تقع على السمع وقع الأصوات ، والصوت إن كان

---

(٢) القصص : ٣٤ .

(٣) سر الفصاحة: ٤٩ .

(٤) إعجاز القرآن للباقلانى ك ١٩٤ .

(٥) الواقعة : ٦٩ .

حسنا كصوت البلبل استعذبه السمع، بعكس ما إذا كان قبيحا كصوت الحمار، فقد قال الله عنه ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[٦]

وحول هذا المعنى يتساءل ابن الأثير ويجيب، فيقول رحمه الله:

« فإن قيل من أى وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ، حتى استعملوه، وعلموا القبيح منها، حتى نفوه ولم يستعملوه؟

قلت فى الجواب: إن هذا من الأمور المحسوسة، التى شاهدها من نفسها، لأن الألفاظ داخلة فى حيز الأصوات، فالذى يستلذه السمع منها، ويميل إليه هو الحسن، والذى يكرهه وينفرعنه هو القبيح.

ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير، وصوت الشحرور، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفرعنه، وكذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس، والألفاظ جارية هذا المجرى.

فإنه لا خلاف فى أن لفظة « المزنة » و « الديمة » حسنة، يستلذها السمع، وأن لفظة « البعاق » قبيحة، يكرهها السمع، وهذه اللفظات الثلاثة، من صفة المطر، وهى تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى لفظى « المزنة، والديمة » وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة، أو من ذوقه غير ذوق سليم »

إلى أن يقول: « ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ فى الدلالة عليه سواء، ليس منها حسن، ومنها قبيح، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى »[٧]

وبمثل ما انتهى إليه ابن الأثير، من أن الفصاحة ترجع إلى اللفظ لا إلى المعنى، انتهى الخفاجى أيضا، حيث يقول: « الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ »[٨]

---

(٦) لقمان: ١٩.
(٧) المثل السائر: ١٤٢/١ وما بعدها.
(٨) سر الفصاحة: ٤٩.

شروط الفصاحة

وإذا كانت الفصاحة ترجع إلى اللفظ ، فما الشروط التى بمراعاتها يكون اللفظ فصيحا ؟

نقول : يجب أن تتوافر فى الكلمة الشروط الآتية : (٩)

١ - أن يكون تأليفها من حروف متباعدة المخارج ، لأن الحروف عبارة عن أصوات ، وهى من السمع بمنزلة الألوان من البصر ، والألوان المتبانية أمتع للنظر ، من الالوان المتقاربة ، ولذلك كان الأبيض مع الأسود ، أفضل منه مع الأصفر.

٢ - أن تقع الكلمة على السمع موقعا أحسن من غيرها ، التى تشاركها التأليف من الحروف المتباعدة ، والمعنى نفسه ، مثل كلمة « الغصن » فإنها أحسن من كلمة « عسلوج » ، وكلمة « أغصان ألبان » أحسن من « عساليج الشوحط » .

٣ - أن تكون الكلمة غير وحشية ، ويمثلون لذلك بقول أبى علقمة النحوى : « مالكم تتكأكئون علّى تكأكؤكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا عنى » .

فكل من لفظتى : « تتكأكئون » و « افرنقعوا » وحشية ، فضلا عن كون كل منهما قد جمعتا مع ذلك قبح التأليف ، الذى يمجه السمع .

٤ - أن تكون الكلمة غير ساقطة ، كقول العوام « تفرعن » الرجل ، مأخوذ من لفظ « فرعون » ، إذا وصفوه بالتسلط والطغيان .

٥ - أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح ، غير شاذة . ويدخل فى هذا كل ما ينكره أهل اللغة ، ويرده علماء النحو ، من التصرف الفاسد فى الكلمة ، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية ، كالديمقراطية ، والديكتاتورية .

---

(٩) للتوسع : انظر سر الفصاحة : ٥٤ وما بعدها .

وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة .

٦ - أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف ، مثل كلمة مغناطيس .

٧ - أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره ، كاستعمال « الكنيف » ، فإنه وضع فى الأصل للحظيرة من الشجر ، إلا أنه غلب بعد ذلك على مكان الحدث ، الذى يستتر فيه أثناء قضاء الحاجة ، فإذا استعمله متكلم الآن ، وأراد به الحظيرة من الشجر ، فإن كلامه لا يكون فصيحا ، بل يعد قبيحا .

ثانيا : البلاغة

معناها فى اللغة :

البلاغة فى اللغة مأخوذة من البلوغ ، وهو الوصول إلى الغاية ، والانتهاء إليها ، يقال بلغت المكان ، إذا انتهيت إليه ، ومبلغ الشىء منتهاه .

يقول أبو **هلال العسكرى** : «البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشىء منتهاه ، والمبالغة فى الشىء : الانتهاء إلى غايته » (١٠)

البلاغة اصطلاحا

وبناء على هذه التفرقة بين الفصاحة والبلاغة ، جاء تعريفهم للبلاغة غير تعريف الفصاحة ....

ولهم فى هذا التعريف عبارات متعددة ، بعضها أدق من بعض ،

يقول الجاحظ :

فى كتابه « البيان والتبيين » « وقيل للفارسى : ما البلاغة ؟ فقال « معرفة الفصل من الوصل » ، وقيل لليونانى ما البلاغة فقال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل للرومى ما البلاغة فقال « حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم

---

(١٠) كتاب الصناعتين : ٦ .

الإطالة » ، وقيل للهندى عنها فقال : «وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشادة » [١١] .

ويعرفها الرمانى بقوله : « البلاغة : إيصال المعنى إلى القلب ، فى حسن صورة من اللفظ » [١٢] .

ويبسط أبو هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين تعريف الرمانى بقوله : « البلاغة : كل ماتبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ، ومعرض حسن » [١٣] وعلى ذلك : فالبلاغة عند البلاغيين تعنى :

« مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، بإيصال المعنى إلى القلب ، فى أحسن صورة من اللفظ » .

شروط البلاغة

اشترط العلماء فى بلاغة الكلام شروطا متعددة ، أهمها ما يلى :

١ - فصاحة الكلام ، فإذا خلا الكلام من الفصاحة خلا بالتالى من البلاغة ، فالكلام قد فصيحا ولا يكون بليغا ، فمن باب أولى إذا لم يكن فصيحا لم يكن بليغا .

٢ - انتقاء الالفاظ الجزلة فليس المراد من البلاغة مجرد إيصال المعنى ، ولكن إيصاله بأحسن صورة يقول الرمانى : « وليست البلاغة إفهام المعنى ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق للفظ على المعنى ، وهو غث مستكره ، ونافر متكلف ، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب ، فى حسن صورة من اللفظ » [١٤]

ويقول أبو هلال العسكرى : « ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام

---

(١١) البيان والتبيين ١ /٨٨ .

(١٢) النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل : ٦٩ .

(١٣) الصناعتين : ١٠ .

(١٤) النكت فى إعجاز القرآن : ٦٩ .

المعانى فقط ، لأن الردىء من الالفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام .

وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه ، وحسن مقاطعه ، وبديع مباديه ، وغريب مبانيه ، على فضل قائله ، وفهم مُنشئه ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الالفاظ ، دون المعانى » (١٥)

٣ - ومن شروط البلاغة أيضا : عدم التكلف فى الألفاظ ، والمبالغة فى التنقيح والتجميل .

ينقل الجاحظ عن الهندى (١٦) أنه قال : « ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها بغاية التهذيب »

الفرق بين الفصاحة والبلاغة

أما الفرق بينهما : فمنهم من جعلها هى والفصاحة بمعنى واحد ، ومنهم من فرق بينهما ، حيث جعل الفصاحة مختصة بالألفاظ ، والبلاغة ترجع إلى المعنى الجيد واللفظ الحسن .

وهذا هو مذهب جمهور العلماء .

يقول الخفاجى :

« والفرق بين الفصاحة والبلاغة ، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعانى »(١٧)

ويقول ابن الأثير : « والبلاغة شاملة للألفاظ والمعانى ، وهى أخص من الفصاحة ، كالإنسان من الحيوان ، فكل إنسان حيوان ، وليس كل حيوان إنسانا »(١٨)

كما يقول أيضا : « اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ، ويطلق

---

(١٥) كتاب الصناعتين : ٥٨ .

(١٦) كما فى إعجاز القرآن للباقلانى : ١٩٤ .

(١٧) سر الفصاحة : ٤٩ .

(١٨) المثل السائر لابن الأثير : ٤٣ .

عليها اسم الفصاحة ، إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة ، وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعنى المفيد في الذى ينتظم كلاما .»(١٩)

موقع البلاغة القرآنية من طبقات البلاغه العربية

البلاغة صناعة ، وشأن الصناعة أن يتفاوت صناعها فيما بينهم على طبقات ، وهذا ما هو كائن فى بلاغة العرب ، وإذا قارنا بلاغة القرآن بها وجدناها قد ارتقت فوق أعلى طبقة منها ، بما لا وجه للمقارنة بينهما .

ولهذا وجدنا الرمانى يقسم البلاغة إلى ثلاث طبقات ، طبقة عليا ، وطبقة فى الوسط ، وطبقة أدنى ، ثم يقول :

« فما كان فى أعلاها طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس »

ويقول : « أعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم ، كإعجاز الشعر المفحم(٢٠) ، فهذا معجز للمفحم خاصة ، كما أن ذلك معجز للكافة »(٢١) .

ويقول القرطبى رحمه الله : « فبلاغة القرآن أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة ، إلى حيز الإرباء والزيادة »

ثم يضرب القرطبى مثلا للمقارنة ، فيقول : « هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتى من جوامع الكلم ، واختص به من غرائب الحكم ، إذا تأملت قوله ﷺ فى صفة الجنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته مُنْحطا عن رتبة القرآن .

وذلك فى قوله ﷺ : « فيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(٢٢)

---

(١٩) الموضع السابق .

(٢٠) الذى يعجز عن نظم الشعر .

(٢١) النكت فى إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٢) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب (٣٥) ، ومسلم فى كتاب الإيمان باب (٣١٢).

فأين ذلك من قوله عز وجل :

﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾(٢٣) ، وقوله: **﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾**(٢٤) .

هذا أعدل وزنا ، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ، على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة ، أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف ، وضاق المقام على القاصر المتكلف ، وبهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة »(٢٥)

وإذا كان أهل البلاغة قد سلموا لبلاغة القرآن بالفضيلة ، وأجمعوا على أنها فى أعلى الطبقات ، وأنها معجزة للكافة ، فإن ذلك لعدة سمات نكتفى منها هنا بذكر اثنتين فقط : .

السمة الأولى : أن هذه البلاغة تستمر على حالة واحدة من العلو والفخامة والعذوبة والروعة ، وجذب القلوب ، والتأثير فى النفوس ، من أول آية فى القرآن ، إلى آخر آية منه .

بينما بلاغة الناس تبدو فى بعض العبارات ، دون البعض الآخر ، ويأخذ أسلوبهم فى الانحطاط والعلو ، تبعا للمواضيع التى يبرز فيها المتكلم ، وتبعا لمزاجه الخاص ، وحالته النفسية . وذلك كله منتف فى بلاغة القرآن .

يقول حازم القرطاجنى فى كتابه منهاج البلغاء :

« وجه الإعجاز فى القرآن ، من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه ، من جميع أنحائها ، فى جميعه ، استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فى جميع أنحائها ، فى العالى منه ، إلا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه ، بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه . »(٢٦) .

السمة الثانية : أن بلاغة القرآن ، كما استمرت فى جميع القرآن ، فإنها مستمرة

---

(٢٣) الزخرف : ٧١ .

(٢٤) السجدة: ١٧ .

(٢٥) تفسير القرطبى : ١ / ٧٧ .

(٢٦) منهاج البلغاء : ٣٨٩ ، ٣٩٠ ط دار الكتب الشرقية بتونس .

أيضا فى جميع الأزمان.

وذلك بخلاف أى بلاغة أخرى ، لأن لكل زمان لونا من الأدب ، كما أن لأهله ثوبا خاصا فى لباسهم وذوقا معينا فى طعامهم وشرابهم ، ونمطا مميزا لصورة حياتهم.

وهذا مالاحظناه فى أدب الكتابة مثلا من عبد الحميد الكاتب وترسله ، إلى ابن المقفع وامثاله وأقيسته ، إلى الجاحظ وترادفه وازدواجه ، إلى ابن العميد وأقيسته وأقضيته ، إلى البديع الهمذانى وسجعه ، إلى الحريرى ومقاماته ، وهكذا ...

ولهذا نرى كثيرا من الناس يجتمعون على بلاغة شخص ما ، وبعد فترة ، سرعان ما ينطفىء بريقها ، ويملون صاحبها.

القرآن معجم البلاغة العربية

إذا كان العرب قد اشتهروا بتباريهم فى الفصاحة ، وتسابقهم فى البلاغة ، وإذا كانوا قد جعلوا للكلام مملكة بدون ملك فإنهم حينما جاءهم القرآن ، وجدوا فيه ذلك الملك ، الذى ينصاعون لنظامه ، ويحتكمون لبيانه ، ويسيرون على ميزانه.

فما فتىء إلا وقد ملك قلوبهم ، وبهر عقولهم ، فانحنت هذه العقول لفصاحته راكعة ، وخرت تلك القلوب لبلاغته ساجدة ، إذ وجدوه فوق ، كل وصف ، وأعظم من كل تصور ، فما من نوع راق من أنواع البلاغة إلا رأوه قد جنح فيه إلى الوضع والتأصيل ، وحينما قارنوا بينه وبين أسمى ما نطق به بلغاؤهم وجدوا الفرق بين البلاغتين كالفرق بين النابغ والمقلد ، وإن صدقت قلت كالفرق بين الخالق والمخلوق ، وله عز وجل المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وإذا كان القرآن الكريم لم ينزل من السماء ليضع فى علم النحو بابا ، أو فى علم الطب فصلا ، أو فى علم الهندسة نظرية ، أو فى علم البلاغة مبحثا ، بل نزل كتاب هداية وإرشاد ، فإنه ببلاغته التى تحدى الله بها الخلق يعتبر معجم البلاغة العربية ، الذى يؤخذ عنه أرقى الأساليب التى تأسر الحس وتملك

الوجدان .

يقول الرافعى رحمه الله : « ولقد كان هذا القرآن الكريم بما استجمع من ذلك - أى من فنون البلاغة - علم البلاغة ، عند أولئك العرب الذين كانت البلاغة فيهم إحساسا محضا ، ثم صار من بعدهم بلاغة هذا العلم فى المولدين ، وهو على ذلك ما بقيت الأرض .

فكان العرب يتلقون عنه فنون البلاغة ، بوجدان الحاسة اللغوية ، وإحساس الفطرة ، كما يتلقى أهل الفن الواحد قواعد النبوغ عن المثال الذى يخرجه لهم نابغة الفن .

ومن هنا كانت دهشتهم له ، وكان عجبهم منه ، إذ رأوه يجرى مجرى الفن ، مما لا يعرفون له فنا ، ووجدوه فى ذلك ببلاغة البلغاء جميعا ، واستيقنوه فوق ما تسع الفطرة ، ثم صار من بعدهم يأخذ منه أصول هذا العلم ، عصراً بعد عصر ، وقبيلا بعد قبيل ، وهو مع ذلك بحيث كان ، لا الفطرة استوت مافيه ، ولا الصناعة ، ولا يزال بعد ، كأنه فى نمط بلاغته سر مُحَجَّب !!

وهذا أمر لم يقع له نظير فى التاريخ ، ولن يقع بعد !!!

وما من أمة فى الأرض - غير العرب - استوفت وجوه البلاغة فى لغتها ، من كتاب واحد (على أن تكون هذه اللغة من أوسع اللغات ، وأبلغهن قصدا ، واستيفاء كالعربية) سواء كان لها ذلك الكتاب قبل أن توضع علومُ بلاغتها ، وقبل أن يعرف منها باب ، أوفصل من باب ، أو مثال من فصل ، كما وقع فى العربية ، أم بعد أن وضعت ، ولا سواء فى المنزلة ، والإعجاز أن يكون الكتاب كذلك .»(٢٧) .

نماذج من البلاغة القرآنية

ويحسن بنا ونحن نتكلم عن بلاغة القرآن أن نضرب بعض الأمثلة لها ، مؤكدين على ما ذكرناه من قبل أن تلك البلاغة صاحبت القرآن من أوله إلى آخره ، ولم يكن فيها أدنى تذبذب ، ولم يعترها الانحطاط والعلو ، بين الحين

---

(٢٧) إعجاز القرآن للرافعى : ٣٣٦ - ٣٣٨ .

والحين، شأن بلاغة الناس، ولكننا نورد أمثلة فقط، لتدل على كل آية قرآنية ...

والبلاغة بكل أنواعها وصورها موجودة فى القرآن، على أسمى ما تكون، ونختار من أنواعها فى هذا المقام نماذج خاصة كالاستعارة، والكناية والتعريض والتلويح، ونماذج عامة يشتمل النص فيها على أنواع متعددة من أنواع البلاغة، كما جاء فى سورة الكوثر التى تحدى الله العالم بمثلها، وكما فى قوله تعالى: ﴿**وقيل يا أرض ابلعى ماءك**﴾، فمن النماذج الخاصة:

١ - الاستعارة

ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿**فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾ (٢٨) ف (مبصرة) استعارة للفظة (مضيئة)، لأنها أدل على موقع النعمة، حيث كشفت عن وجه المنفعة، فلذلك كانت أبلغ.

وقوله تعالى: ﴿**فأذاقها الله لباس الجوع والخوف**﴾ (٢٩) فحقيقة المراد أجاعها الله وأخافها، إلا أن أسلوب الاستعارة هنا أبلغ، حيث يفيد غشيان الجوع والخوف، وشمولهما إياهم شمول الثياب التى يُلْبسونها أجسادهم، وفى ذلك من التهويل مافيه، وزاد التهويل تهويلا، التعبير بالإذاقة، فكما يجد الذائق مرارة الشىء، فهم فى شمول الجوع والخوف واستمرارهما عليهم مثل ذلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿**واشتعل الرأس شيبا**﴾ (٣٠)

فمعلوم أن الاشتعال يستعمل حقيقة فى جانب النار، ولكنه استعير هنا لكثرة شيب الرأس، الذى انتشر بسرعة شابهت سرعة اشتعال النار، فلذلك كان لهذه الاستعارة وقع عجيب فى البلاغة.

٢ - الكناية

وهى تعنى عند علماء البيان لفظا أريد به لازم معناه.

---

(٢٨) الإسراء: ١٢.
(٢٩) النحل: ١١٢.
(٣٠) مريم: ٤.

وهى أبلغ من التصريح بالمعنى المراد .

وقد سلك بها القرآن الكريم مسالك عدة :

أ - فاستعملها فيما يفحش ذكره ، فيكنى بما لاينبو عنه الطبع ، ولا يؤذى السمع .

كقوله تعالى - عن المسيح ابن مريم وأمه : ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾ (٣١) كناية عن التبول والتغوط ، لكونهما لازمين للأكل ، إذ كيف يكونان إلهين ، وهما يتبولان ويتغوطان ؟ وكقوله تعالى : ﴿ **ولكن لا تواعدوهن وهن سرا** ﴾ (٣٢) : ، كناية عن الجماع ، لأنه لا يكون من الآدميين إلا سرا .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ **فالآن باشروهن** ﴾ (٣٣) ، وقوله تعالى : ﴿ **أولا مستم النساء** ﴾ (٣٥) ، كل ذلك كناية عن الجماع .

(ب) واستعملها كذلك فى تحسين اللفظ ، كقوله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ (٣٦) ، كناية عن التخلق بالأخلاق الكريمة ، والسلوك السوى ، كما يقولون فلان طاهر الذيل .

(ج) واستعملها كذلك فى التنبيه على عظم قدرته عز وجل ، كقوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ (٣٧) ، كناية عن آدم عليه السلام .

٣ - التعريض والتلويح

ويعنى الدلالة على المعنى من طريق المفهوم .

قال الزركشى : « وسمى تعريضا : لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض

---

(٣١) المائدة : ٧٥ .
(٣٢) البقرة : ٢٣٥ .
(٣٣) البقرة: ١٨٧ .
(٣٤) البقرة: ٢٢٢ .
(٣٥) النساء : ٤٣ والمائدة : ٦ .
(٣٦) المدثر : ٤ .
(٣٧) الأعراف : ١٨٩ .

اللفظ ، أى من جانبه ، ويسمى التلويح ، لأن المتكلم يلوح منه للسامع مايريده »[٣٨] .

ومن صوره أن يخاطب الشخص فى حين أن المراد غيره ، كقوله تعالى : ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [٣٩] ، فالمخاطب فى هذه الآية هو الرسول ﷺ ، ولكن المراد غيره ، لاستحالة وقوع الشرك منه ﷺ .

قال الزركشى عن هذه الآية : « فيها ثلاثة أمور ، مخاطبة النبى ﷺ والمراد غيره ، وإخراج المحال عليه فى صورة المشكوك ، واستعمال المستقبل بصيغة الماضى »[٤٠] .

ومن التعريض ما جاء قوله تعالى : ﴿ **ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة ، إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ، إنى إذا لفى ضلال مبين ، إنى آمنت بربكم فاسمعون** ﴾[٤١] .

فقد عرض بقوله: (وما لى أعبد الذى فطرنى) عن قوله (مالكم لا تعبدون الذى فطركم ، بدليل قوله (وإليه ترجعون) ، وإلا لقال : وإليه أرجع .

وعرض بقوله (أأتخذ من دونه آلهة) عن قوله أتتخذون من دونه آلهة ، ولذلك قال : (آمنت بربكم فاسمعون) دون أن يقول بربى ، وهذا التعريض فى غاية الحسن ، فقد تضمن أعلى مراتب الأخلاق وأدعاها للقبول والتواضع ، حيث تضمن إعلام السامع بما يراد ، على وجه ، كأنه ليس مرادا ، ولا معنيا بالخطاب ، محافظة على شعوره ، وتقديرا لإحساسه ، وطمعا فى تقبل الحق .

أما النماذج العامة التى يشتمل فيها النص على أنواع متعددة من البلاغة

فهى أكثر من أن يبرز جمالها مجلد أو اثنان أو ثلاثة ، ولكننا نكتفى بما

---

(٣٨) البرهان : ٢ /٤٢١ .
(٣٩) الزمر : ٦٥ .
(٤٠) البرهان : ٤٢١/٢ .
(٤١) يس : ٢٢ - ٢٥ .

يتحمله المقام ، إن لم نكن مطنبين عليه .

١ - فسورة الكوثر أقصر سورة فى القرآن ، وعن مثلها عجز أساطين الفصاحة وزعماء البلاغة ، تحوى الكثير من البلاغة .

ولندع ابن القيم رحمه الله يحدثنا عن شيء من بلاغتها .

حيث يقول فى كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » فى الفصل قبل الأخير منه ، عن هذه السورة ، « فيها من الالفاظ البديعة الرائعة ، التى اقتضت بها أن تكون معجزة أحد وعشرون ، ثمانية فى قوله ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ ، وثمانية فى قوله ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ ، وخمسة فى قوله : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ .

أما الثمانية التى فى قوله ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ .

فالأولى : إن قوله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ دل على عطية كثيرة مسندة إلى معط كبير ، ومن كان كذلك كانت النعمة عظيمة عنده ، وأراد بالكوثر الخير الكثير ، ومن ذلك الخير الكثير ينال أولاده إلى يوم القيامة من أمته ، ومن الخير الذى وعد به ما أعطاه الله فى الدارين ، من مزايا التعظيم والتقديم والثواب ، ما لم يعرفه إلا الله . وقيل : إن الكوثر ما اختص به من النهر الذى ماؤه أحلى من كل شيء ، وعلى حافته أوانى الذهب والفضة ، كالنجوم ، أو كعدد النجوم .(٤٢)

الثانية : أنه جمع ضمير المتكلم ، وهو يشعر بعظم الربوبية .

الثالثة : أنه بنى الفعل على المبتدأ ، فدل على خصوصية وتحقق ، على ما بينا فى باب التقديم والتأخير .

الرابعة : أنه صدر الجملة بحرف التوكيد ، الجارى مجرى القسم .

الخامسة : أنه أورد الفعل بلفظ الماضى ، دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة ، دون عطاء الآجلة ، ودلالة على أن المتوقع من سيب(٤٣) الكريم فى حكم الواقع ..

السادسة : جاء بالكوثر محذوف الموصوف ، لأن المثبت ليس فيه ما فى

---

(٤٢) وبهذا صح الحديث

(٤٣) أى عطايا

المحذوف، من فرط الإيهام والشياع، والتناول على طريق الاتساع.

السابعة: اختيار الصفة المؤذنة بالكثرة.

الثامنة: أتى بهذه الصفة مصدرة باللام، المعروف بالاستغراق، لتكون لما يوصف بها شاملة، وفى إعطاء معنى الكثرة كاملة.

وأماالثمانية التى فى قوله ﴿**فصل لربك وانحر**﴾

فالأولى فاء التعقيب ها هنا، مستفادة من معنى التسبب لمعنيين، أحدهما جعل الإنعام الكثيرة سببا للقيام بشكر المنعم وعبادته.

الثانية: جعله لترك المبالاة بقول العدو.

فإن سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال إن محمدا صنبور، والصنبور الذى لا عقب له، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

الثالثة: قصده بالأمر التعريض بذكر العاص، وأشباهه، ممن كانت عبادته ونحره لغير الله، وتثبيت قدمى رسول اله ﷺ، على الصراط المستقيم، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم.

الرابعة: أشار بهاتين العبادتين إلى نوعى العبادات، أعنى الاعمال البدنية التى الصلاة قوامها، والمالية التى نحر الإبل سنامها، للتنبيه على ما لرسول الله ﷺ من الاختصاص فى الصلاة، التى جعلت فيها قرة عينه، ونحر الإبل التى همته فيه قوية،

الخامسة: حذف اللام الأخرى، لدلالة الأولى عليها،

السادسة: مراعاة حق السجع، الذى هو من جملة صنعة البديع، إذا ساقه قائله مساقا مطبوعا، ولم يكن متكلفا،

السابعة: قوله (لربك) فيه حسنان، وروده على طريق الالتفاف، التى هى أم من الأمهات، وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، وفيه إظهارلكبرياء شأنه، وإثباته لعز سلطانه، ومنه أخذ الخلفاء - يأمرك أمير المؤمنين بكذا - وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حين خطب الأزدية إلى أهلها، فقال خطب إليكم سيد شباب

قريش ، مروان بن الحكم ،

الثامنة: علم بهذا أن من حقوق الله التى تعبد العباد بها أنه ربهم وما لكهم وَعَّرَض بترك التماس العطاء من عيد مربوب*، ترك عبادة ربه .

وأما قوله جل جلاله ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ ففيه خمس فوائد:

الأولى : أنه علل الامر بالإقبال على شأنه ، وترك الاحتفال بشانيه ، على سبيل الاستئناف ، الذى هو حسنٌ حسن الموقع ، وقد كثرت فى التنزيل مواقعه ،

الثانية : ويتجه أن نجعلها جملة الاعتراض ، مرسلة إرسال الحكمة الخاتمة الأغراض ، كقوله تعالى ﴿**إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾ (٤٤) ، وعنى بالشانىء العاص بن وائل ،

الثالثة : إنما لم يسمه باسمه ليتناول كل من كان فى مثل حاله ،

الرابعة: صدر الجملة بحرف التوكيد الجارى مجرى القسم ، وعبر عنه بالاسم الذى فيه دلالة على أنه لم يتوجه بقلبه إلى الصدق ، ولم يقصد بلسانه الإفصاح عن الحق ، بل نطق بالشنآن الذى هو قرين البغى والحسد ، وعين البغضاء ، ولذلك وسمه بما ينبىء عن الحقد ،

الخامسة: جعل الخبر معرفة ، وهو الأبتر ، والشانىء كذلك ، حتى كأنه الجمهور الذى يقال له الصنبور »(٤٥)

وهذا نموذج آخر من النماذج الدالة على قمة البلاغة القرآنية وهوخاص بما جاء فى قوله تعالى:

﴿**وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعد اللقوم الظالمين**﴾(٤٦)

فقد احتوت هذه الآية الكريمة على العديد من الصور البلاغية التى أفاض

---

(٤٤) القصص : ٢٦ .

(٤٥) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : ٢٥٣ - ٢٥٥ .

(٤٦) هود : ٤٤ .

العلماء فى إبرازها ، والتفنن فى بيان روعتها ، كما فعل الباقلانى والسكاكى وابن أبى الأصبع المصرى ، وغيرهم ، ونقتصر هنا على ما ذكره ابن أبى الأصبع حيث عقد فى كتابه « بديع القرآن » بابا قبيل نهايته ، وسماه « باب الإبداع » وعرفه بقوله:

« وهو أن تكون كل لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمنه بديعا أو بديعين ، بحسب قوة الكلام ، وما يعطيه معناه بحيث يأتى فى البيت الواحد ، والجملة الواحدة ، عدة ضروب من البديع ، ولا تخلو لفظة منه من بديع فما زاد عليه »

ثم ضرب مثالا لكلامه هذا بالإبداع الوارد فى آية هود حيث قال :

« وما رأيت ولا رويت فى الكلام المنثور ، والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى ، استخرجت منها أحداً وعشرين ضربا من البديع ، وعددها سبع عشرة لفظة ، وهى قوله تعالى ﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك** .. ﴾ الآية ... ثم قال : وتفصيل ما جاء فيها من البديع: المناسبة التامة ، فى ﴿ **ابلعى** ﴾ و ﴿ **أقلعى** ﴾ و والمطابقة للفظين فى ذكر السماء والأرض ، والاستعارة فى قوله ﴿ **ابلعى** ﴾ و ﴿ **أقلعى** ﴾ للأرض والسماء، والمجاز فى قوله ﴿ **يا سماء** ﴾ ، فإن الحقيقة : ويا مطر السماء أقلع والاشارة فى قوله ﴿ **وغيض الماء** ﴾ ، فإنه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ، لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء، فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء .

والإرداف ، فى قوله « واستوت على الجودى » ، فإنه عبرعن استقرار السفينة على هذا المكان ، وجلوسها جلوسا متمكنا ، لازيغ فيه ولا ميل ، لطمأنينة أهل السفنية بلفظ قريب من لفظ الحقيقة.

والتمثيل : فى قوله تعالى ﴿ **وقضى الأمر** ﴾ ، فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ، ونجاة الناجين ، بلفظ فيه بعدما من لفظ الحقيقة ، بالنسبة إلى لفظ الإرداف .

والتعليل : لأن غيض الماء علة الاستواء ، وصحة التقسيم حين استوعب

سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء ، واحتقان الماء الذى ينبع من الأرض ، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض .

والاحتراس : فى قوله ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لايستحق الهلاك ، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين، ليعلم أنهم مستحقو الهلاك ، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه .

والانفصال : فإن لقائل أن يقول إن لفظة القوم مستغنى عنها ، فإنه لو قيل وقيل بعدا للظالمين لتم الكلام ، والانفصال عن ذلك أن يقال : لما سبق فى صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى ﴿ **وكلما عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾ ، وقال سبحانه قبل ذلك مخاطبا لنوح عليه السلام ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظ القوم التى آلة التعريف فيها للعهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم فى قوله تعالى : ﴿ **وكلما مر علية ملأمن قومه** ﴾ ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون ، بقوله ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ ، فحصل الانفصال عن الإشكال ، وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة فى الكلام .

والمساواة : لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ، ولا ينقص عنه .

وحسن النسق ، فى عطف القضايا بعضها على بعض ، بأحسن ترتيب ، حسبما وقعت أولا فأولا ، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة ، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، لكون كل لفظة لا يصلح فى موضعها غيرها:

والإيجاز ، لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة ، بحيث لم يخل منها بشيء فى أخصر عبارة ، بألفاظ غير مطولة.

والتسهيم : لأن من أول الآية إلى قوله تعالى ﴿ **أقلعى** ﴾ يقتضى آخرها ، والتهذيب : لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سهلة ،

مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه .

وحسن البيان : من جهة أن السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شىء منه .

والتمكين : لأن الفاصلة مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى مكانها ، غير قلقة ولامستدعاة .

والانسجام : وهو تحدر الكلام بسهولة ، وعذوبة سبك ، مع جزالة لفظ ، كما ينسجم الماء القليل من الهواء .

وما فى مجموع ألفاظ الآية من الإبداع ، وهو الذى سمى به هذا الباب سبع عشرة لفظة ، تضمنت أحداً وعشرين ضربا من البلاغة ، سوى ما يتعدد من ضروبها، فإن الاستعارة وقعت فيها فى موضعين ، وهى استعارة الابتلاع والاقلاع .

فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه ، لتقدره قدره، وهذا ما ظهر لى منه ، على ضعف نظرى ، وقلة مادتى ، من العلوم وكلال ذهنى، والله أعلم . »(٤٧)

وبعد

فهذه مجرد أمثلة لبعض النصوص القرآنية ، وهاك القرآن كله ، فضع يديك على أى آية منه ، بل على أى جملة منه ، لترى فيها قمة الفصاحة ، وذروة البلاغة التى لم يستطع العرب وصفها إلا بقولهم « إن هذا إلا سحر يؤثر » ومع ذلك فإن السحر قد يؤثر فى نفس من يوجه إليه وقد لا يؤثر حسب إرادة الله عز وجل ، أما القرآن فلابد يؤثر وأن فى نفس كل من يسمعه بتدبر وتعقل ، حتى لو لم يكن من المؤمنين به .

(٤٧) بديع القرآن ، لابن أبى الأصبع المصرى : ٣٤٠ - ٣٤٣ طبعة نهضة مصر .

المبحث الثاني

النظم القرآني للحروف والكلمات

النظم القرآنى للحروف والكلمات

ما ذكرناه سابقا عن فصاحة القرآن وبلاغته ، وماضربناه من أمثلة لذلك ، إنما كان على سبيل النظرة الكلية للقرآن و دون التعرض لنظم حروفه وكلماته ، فعلنا ذلك لنقدم بين يدى هذا شاهدا على الفرق بين كلام الانسان ، وكلام من خلق الانسان وعلمه البيان ، ولنفرد لذلك النظم بعضا من المساحة التى يستحقها ، أو من التى يستطيع الانسان أن يتحدث عنها فى عجالة وحينما نتكلم عن نظم القرآن فإننا لانعنى به أسلوبه ، لأن الأسلوب أوسع وأشمل مما نقصده هنا من النظم ، فالأسلوب قد لا يتحقق فى الجملة الواحدة ، بينما النظم يتحقق فيها ، بل فى الكلمة الواحدة.

وإذا كان الأمر كذلك ، فما المقصود من النظم لغة ؟ ومالمراد بقولنا نظم القرآن ؟

النظم فى اللغة

أما النظم لغة ، **فقد قال ابن دريد** : « النظم : نظمك الخرز وغيره ، والنظام كل شىء منظوم »(١)

وقال الأزهرى فى تهذيب اللغة : « قال الليث : « النظم : نظمك الخرز بعضه إلى بعض فى نظام واحد ، كذلك هو فى كل شىء ، حتى يقال ليس لأمر نظام ، أى لا تستقيم طريقته ، حتى يقال طعنه بالرمح ، فانتظم ساقيه أو جنبيه » (٢)

وجاء فى تاج العروس للزبيدى : « النظم : التأليف ، وضم شىء إلى شىء آخر ، وكل شىء قرنته بآخر فقد نظمته ، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ألفه وجمعه فى سلك ، فانتظم ، ومنه نظمت الشعر »(٣)

وقال ابن منظور فى لسان العرب: « النظم : التأليف ، وكل شىء قرنته

---

(١) جمهرة اللغة ، لابن دريد : ٢ / ١٢٥ .

(٢) تهذيب اللغة للأزهرى : ١٤ / ٣٩١ .

(٣) تاج العروس للزبيدى : ٩ / ٧٦ ، ٧٧ .

بآخر ، أو ضممت بعضه إلى بعض ، فقد نظمته ، والانتظام الاتساق .» (٤)

وفي المعجم الوسيط : « والنظيم : المنظوم ، ومن كل شيء ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحدة » (٥)

مما سبق يتبين لنا :

١ - أن النظم يطلق على : الضم ، مع الاتساق والائتلاف .

٢ - وأنه يشمل المحسوسات ، والمعنويات .

فمن المحسوسات : ضم الخرز ، بعضه إلى بعض ، واللؤلؤ بعضه إلى بعض في سلك.

ومن المعنويات : تأليف الشعر، واستقامة الأمر ، على أحسن ما يكون.

المقصود من نظم الكلام

وعلى هذا فالمقصود من نظم الكلام:

اتساق أجزائه من الحروف والكلمات والجمل ، وائتلافها ، وتناسبها بمنتهى الدقة والإحكام .

المراد من نظم القرآن

وبناء عليه ، فإن المراد من نظم القرآن : تأليف حروفه وكلماته ، وجمله ، بطريقة هي غاية في التناسق والتناسب ، وبمنتهى الدقة والإحكام ، لتؤدي المعنى المراد ، على أبلغ ما يكون التعبير ، وأجمل ما يكون التصوير ، شأن نظم اللؤلؤ في السلك ، ليبدو العقد ، في نظر الناظرين ، على أحكم ما يكون التناسب ، وأقوى ما يكون التماسك ، وأجمل ما يكون التناسق.

أنواع النظم عند العرب
وموقع النظم القرآني منها

الناظر في لغة العرب ، يرى أن كلامهم لا يخلو من أحد الأنواع الآتية: إما

---

(٤) لسان العرب : مادة (نظم) .

(٥) المعجم الوسيط ، وضع مجمع اللغة العربية :٩٣٣ .

شعر موزون ، وإما كلام موزون غير مقفى، وإما كلام معدل مسجع ، وإما كلام معدل غير مسجع ، وإما مرسل إرسالا ، خاليا من الوزن ، والقافية ، والتعديل ، والسجع .

والناظر فى نظم القرآن ، لا يراه مندرجا تحت أى نوع ، من الأنواع السابقة ، رغم أنه نزل بلسان عربى مبين .

فهو إذًا بدع من النظم ، لم يشهد له العرب مثيلا من قبل ، وتلك الطريقة البديعة ، صاحبت القرآن من اوله إلى آخره ، دون ان تمس بتمام تناسبه ، وغاية تناسقه ، ودون أدنى تكلف ، أو لى عنق عبارة ما ، رغم طول القرآن .

ولهذا تاهت العقول فى جهته ، وحارت فى بحره ، وضلت دون وصفه.

يقول الباقلانى رحمه الله ، فى حديثه عن القرآن وإعجازه :

« إنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة ، إلى الحد الذى يُعلم عجز الخلق عنه »

ثم يقول : « فالذى يشتمل عليه بديع نظمه ، المتضمن للإعجاز وجوه . منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن - على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه - خارج عن المعهود ، من نظام جميع كلا مهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن اساليب الكلام المعتاد .

وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر ، على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا .

وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق »(٦)

ولكن ما الذى جعل نظم القرآن فى حروفه وكلماته متميزا عن غيره ، إلى الحد الذى صار به معجزا ؟ ذلك ما نتناوله الآن إن شاء الله تعالى .

---

(٦) إعجاز القرآن للباقلانى : ٥١ ، ٥٢ باختصار .

أولا : نظم الحروف القرآنية

للقرآن الكريم نظم بديع ، فى حروفه ، لم يعرفه العرب من قبل ، فلم يكن لهم اهتمام بالحروف فوق تحقيقها ، بإخراجها من أمكاكنها ، متصفة بصفاتها .

أما التكييف الصوتى لهذه الحروف ، بحيث تنظم حروف كل كلمة ، تنظيما متآلفا ، فى الحركات والسكنات ، والمدات والغنات ، والاتصالات والسكتات ، بمثل ما جاء به القرآن الكريم ، فلم تعرف العرب ذلك ، لا فى شعرها ولا فى نثرها .

فلما قرىء عليهم القرآن ، ورأوا فيه تلك الحروف ، تتتابع أصواتها على نسب معينة ، بين مخارجها المختلفة ، حتى تنتهى الآيات بفواصل ، هى صورة تامة لتلك الأبعاد ، التى تنتهى بما تنتهى به الجمل الموسيقية عند مؤلفيها ، ومع ذلك وجدوا تلك الفاصلة متفقة تمام الاتفاق ، مع آياتها صوتا ومعنى ، بصورة عجيبة ، هى غاية فى طريقة الاستهواء الصوتى .

أقول : لما قرىء على العرب هذا القرآن ، بهذا النظم العجيب لحروفه ، ثم لكماته ، أدركوا أنه يفوق أبلغ شعرهم ، وأفخم نثرهم ، لأنه جمع من الشعر غاية جماله ومتعته ، ومن النثر قمة جلاله وروعته ، بل فاق كل ذلك بما لا حد له ولا نهاية ، ولا وصف لتلك الغاية .

إن هذا النظم العجيب لتلك الحروف هو الذى أوهم من عارض القرآن – كمسيلمة – أن إعجازه يكمن فيما يطلق عليه أجراس الحروف ، وأوزان الكلمات ، لا غير، وذلك لا يكون إلا فى الموزون ، من الشعر أو السجع.

وهذا هو الذى دعا العرب إلى أن تقول عنه إنه شعر ، لأنها وجدت لتوقيع تلك الحروف، هزة لا تجدها إلا فى الشعر ، ذى الأوزان الخاصة ، وما يسمونه بالموسيقى المميزة .

والحقيقة أن توقيع الحروف القرآنية ، ليس توقيعا موسيقيا ، ولا ترنيما شعريا ، لأن أجراس الموسيقى متشابهة ، وأنغامها متقاربة ، وسرعان ما يملها السمع ،

ويمجها الطبع، وليس شعرا ، لأن أوزان الشعر متحدة ، وقوافيه متشابهة ، وهذا يؤدى فى النهاية إلى ما تؤدى إليه الموسيقى من الملل والسآمة عند من يسمعونها .

أما اللحن القرآنى ، فهو خلاف ذلك كله ، لأن قائل القرآن هو الذى خلق النفوس وأمزجتها ، والقلوب وأوتارها ، وأدرى بالذى يؤثر فى تلك الأمزجة ، ويهز هذه الأوتار.

لقد تحير العرب فى وصف القرآن ، ويصور لنا هذا التحير قول الوليد بن المغيرة ، لأبى جهل ، حينما طلب منه أن يقول فى القرآن شيئا بعد ما سمعه من رسول الله ﷺ ، ورق له قلبه ، حتى يرضى عنه كفار مكة :

« وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئا ، ووالله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته .»(٧)

لقد أدرك الوليد فيه - ضمن ما أدرك - ألحانا متجددة متنوعة ، على أوضاع مختلفة ، كل وضع منها يفعل فى النفس والقلب ، مالا يفعله السحر ، لذلك لم يجد الوليد وصفا يصف القرآن به - بعد أن أدرك أنه ليس بشعر - إلا أن قال : ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾

ولقد كذب ، فأين السحر من القرآن ؟ وأين الساحر من سيد الأنام ؟ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام السحر طريق الضلال والخراب ، والقرآن طريق الهدى والصواب ، والساحر وسيلته الكذب والخيانة ، والرسول ﷺ مجبول على الصدق والأمانة ، وقد عرف عنه العرب ذلك ، وعاملوه عليه ، قبل النبوة وبعدها ، فقبلها كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ، وبعدها كانوا يودعون عنده كل غال ثمين ، إلى أن هاجر ، وخلف وراءه عليا بن أبى طالب ليرد للكفار ودائعهم .... ﷺ

---

(٧) أخرجه الحاكم فى مستدركه فى كتاب تفسير سورة المدثر على شرط البخارى .

جاذبية نغم الحروف القرآنية

حينما قال تعالى: « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل مدكر »[٨] جعل لذلك أسبابا متعددة ، منها تلك الجاذبية لنغم حروفه ، التى تبدو فى غاية الاتساق ، وتمام الروعة ، بين الحركات والسكنات ، والمدات والغنات ، والاتصالات والسكتات ، حتى تأتى قمة الاستهواء الصوتى ، مع نهاية الفاصلة التى تختتم بها الآية .

إن ذلك الانسجام بين الحروف بهذه الطريقة ولد ثمرة أخرى ، ألا وهى شدة انسياب الألفاظ على اللسان بمنتهى اليسر ، وتمتع السمع بذلك النغم غاية التمتع ، مما جعل حفظ القرآن ميسرا لكافة الخلق ، عربهم وعجمهم ، وكم رأيت كثيرا من المسلمين طلابا وغير طلاب من العجم يحفظون القرآن عن ظهر قلب دون معرفتهم نطق عبارة واحدة باللغة العربية !!

هذه ميزة للقرآن ، خصه بها من يسره للذكر ، وجعله معجزة للكافة ، رغم أنه لم يسر على نمط الشعر الموزون ، ولا كلام العرب المعدل الموزون أو غير الموزون ، ولا كلامهم المسجع .

إن أى مقارنة بين نظم الحروف القرآنية ، ونظم غيرها ، تبين لنا مدى هذا الاعجاز للنظم الحرفى للقرآن ، وتلك قواعد التجويد وأحكام التلاوة أمامنا ، فليعمد إنسان إلى قراءة أى نص قرآنى ، بتلك القواعد والأحكام ، ثم إلى نص آخر من كلام البشر ، بتلك القواعد والأحكام أيضا ، ثم ليقل لنا ما الذى أحسه ؟ وليقل لنا من استمعه ما الذى اعتراه ؟ إنه سيشعر بالضيق وثقل الحروف على لسانه ، وسيعترى من سمعه الملل والضيق ، فضلا عن ضياع بعض المعنى الذى تحتويه تلك الألفاظ البشرية .

يقول الرافعى رحمه الله : «إذا أنشات ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم ، على طريقة التلاوة فى القرآن ، مما تراعى فيه أحكام القراءة ، وطرق الأداء ، فإنك لا بد ظاهر بنفسك على النقص فى كلام البلغاء ، وانحطاطه فى

---

(٨) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

ذلك عن مرتبة القرآن ، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرت الكلام وغيرته ، فأخرجته من صفة الفصاحة وجردته من زينة الأسلوب ، وأطفأت زواءه ، وأنضبت ماءه ، لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها فى كل جهاته ، فلا تعدو أن تظهر من عيبه ما لم يكن يعيبه ، إذا أنت أرسلته فى نهجه ، وأخذته على جملته .

وحسبك لهذا اعتبارا فى إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن ، وأنه مما لا يتعلق به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه إلا فيه ، لترتيب حروفه ، باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعض ، مناسبة طبيعية ، فى الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشى والتكرير ، وغير ذلك »[٩]

تجربتان

ومن أراد أن يقف على تميز نظم الحروف القرآنية ، وانسجامها ، ونزول أصواتها على السمع أعظم من نزول صوت البلبل ، فإننا ندله على تجربة يقوم بها ، بنفسه عمدا ، وبتجربة ، أخرى ، يقوم بها أعجمى كافر لا يعرف عن لغة العرب شيئا .

أما التجربة الاولى : فعليه أن يحضر إنسانا حسن الصوت ، ليقرأ قدرا من القرآن ، بأحكام التلاوة ، ويبتعد عنه ، بحيث لا يسمع إلا أصوات الحروف ، دون أن يميز تلك الحروف .

فسيجد نفسه أمام لحن بديع ، لم ولن يرى لحنا قبله ولا بعده ، فى كلام أحد ، نتيجة لتناسق الحروف القرآنية التى يسمعها ، فى الحركات والسكنات ، والغنات والمدات ، والاتصالات والسكتات.

أما التجربة الثانية : وهى فعل صوت تلك الحروف القرآنية بنظمها البديع ورصفها العجيب فى الناس ولو كانوا كفارا ، لا يعرفون لغة العرب ، فقد حدثت لكثيرين ، ولا تزال وستظل إن شاء الله تعالى.

---

(٩) إعجاز القرآن للرافعى : ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

فليؤت بأى كافر منصف ، لا يعرف العربية ، وليقرأ أمامه نص من القرآن ، ونص آخر ، من التوراة ، أو من الإنجيل ، أو من أى كلام ، ثم ليسأل هذا الكافر المنصف ، بأى نغم تأثر ، وبأى صوت تحركت أوتار قلبه ، وتفاعلت معه عواطفه ؟

ويحضرنى فى هذا المقام واقعة من هذا القبيل ذكرها الأستاذ سيد قطب - زاده الله نعيما فى علياء جناته - فى كتابه (ظلال القرآن) ، وكانت تلك الواقعة مع سيدة يوغسلافية ، كانت تشاهده وهو يخطب ويصلى الجمعة ، على ظهر سفينة جمعتهم فى سفر .

يقول زاده الله تكريما : « وقمت بخطبة الجمعة ، وإقامة الصلاة ، والركاب الأجانب - معظمهم - متحلقون ، يرقبون صلاتنا ، وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح القداس !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ، ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنها يوغوسلافية مسيحية هاربة من جحيم « تيتو » وشيوعيته - كانت شديدة التاثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ، ولا تتمالك مشاعرها ، جاءت تشد على أيدينا بحرارة وتقول - فى إنجليزية ضعيفة - إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق ، بصلاتنا هذه ، وما فيها من خشوع ونظام وروح ، وليس هذا موضع الشاهد فى القصة ، ولكن ذلك كان فى قولها : « أى لغة هذه التى كان يتحدث بها « قسيسكم » ؟ فالمسكينة لا تتصور أن يقيم الصلاة إلا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة ، وقد صححنا لها هذا الفهم ، وأجبناها ، فقالت إن اللغة التى يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفا ، ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا ، وهى تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أن أسال عنه ، إن الموضوع الذى لفت حسى هو : أن « الإمام » كانت ترد فى أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر ، غير بقية كلامه ، نوع أكثر موسيقية ، وأعمق إيقاعا ، هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فىَّ رعشة وقشعريرة ، إنها شىء

آخر ! كما لو كان الإمام مملوء من روح القدس ! - حسب تعبيرها المستمد م
مسيحيتها ! وتفكرنا قليلا ، ثم أدركنا أنها تعنى الآيات القرآنية ، التى وردت
فى أثناء خطبة الجمعة ، وفى أثناء الصلاة ! وكانت مع ذلك مفاجأة لنا ، تدع
إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما نقول شيئا . »[10]

علاقة النغم بيان المعنى

ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى تلك الأحاديث التى أمر الرسول ﷺ فيها بتزيين الصوت فى قراءة القرآن وتحسينه ، والتغنى بقراءتة ، مثل « زينوا القرآن بأصواتكم » [11] ومثل « **ليس منا من لم يتغن بالقرآن** » [12]

فما نحسب أن رسول الله ﷺ أمر بذلك وحث عليه إلا لفائدة عظمى ، تنتهى عند تمتع السمع بالنغم القرآنى ، وإنما تصل إلى بيان المعنى القرآنى فى كثير من المواضع .

فهناك صلة وطيدة بين النغم القرآنى ، والمعنى المراد ، وتبرز تلك الصلة كلما حسن الصوت ، وأدى لكل حرف حقه من أحكام التلاوة ! وهذا يستشعره كل متدبر للقرآن ، حينما ينصت بإجلال وخشوع لقارىء حسن الصوت خاشع بتلاوته ، مؤدٍ لكل حرف حقه ....

وإن أنس فلن أنسى زميلالى كان يسبقنافى الدراسة ،ويؤمنا فى الصلاة الجهرية ، فقد كنا نفهم منه تفسير الآيات بمجرة تلاوته إياها ، حيث كان يجمع بين حسن الصوت ، ومراعاة الأحكام ، فضلا عن الخشوع التام .

---

(١٠) ظلال القرآن : ٣ / ١٦ ١٧ .
(١١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب رقم (٥٢) .
(١٢) الموضع السابق ، باب (٤٤) .

ثانيا : نظم الكلمات القرآنية.

عمود البلاغة أن يوضع اللفظ فى موضعه الخاص به ، والمناسب له ، بحيث إذا وضع مكانه لفظ آخر سقط عن رتبة البلاغة .

وكثير من الناس يظن فى كلمات كثيرة أنها متساوية فى المعنى ، فيحسبها مترادفة - فلا يمتنعون من استعمال إحداها موضع الأخرى كالحمد والشكر ، والنعت والصفة ، والمطر والغيث ، ولو دققوا لتبين لهم الفرق بينها .

فالحمد والشكر ، وإن اشتركا فى الثناء ، إلا أن بينهما عموما وخصوصا وجهيا ، فالحمد أعم من الشكر ، من جهة أنه يكون عن مقابل وغير مقابل ، أما الشكر فلا يكون إلا عن مقابل ، والشكر أعم من الحمد، من جهة مصدر كل منهما ، لأن الحمد باللسان ، أما الشكر فبالقلب واللسان والعمل ، قال تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا** ﴾ (١٣)

أما النعت فلا يكاد يستعمل إلا فيما لا يتبدل ولا يتغير ، كالبياض والسواد ، والطول والقصر ، أما الصفة فإنها تستعمل فيما هو أعم ، أى فيما يتبدل ، وفيما لا يتبدل .

فلو قلنا زيد الطويل ، فإن كلمة الطويل نعت وصفة ، ولو قلنا زيد الجاهل فهى صفة لا نعت ، فالصفة أعم ، والنعت أخص .

أما المطر فلا نجد القرآن استعمله إلا فى مقام الانتقام ، بخلاف الغيث الذى به ينتفع الناس ، ويغاثون . (*)

وعلى هؤلاء الذين لا يفرقون فى استعمال لفظ دون آخر ينكر الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين فيقول :

« وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن « الجوع » إلا فى موضع العقاب ، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ؟ والناس لا يذكرون السغب ،

(١٣) سبأ : ١٣ .

(*) وإنما عبر عن الغيث بالمطر فى سورة النساء ﴿ أو كان بكم أذى من مطر ﴾ لما فيه من بعض الأذى .

ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطرويين ذكر الغيث ».

إلى أن يقول : « والعامة ربما استخفت أقل اللغتين ، وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل ، فى أصل اللغة استعمالا ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذاك المثل السائر »(١٤)

وإذا كان البلغاء جميعا يسقطون فى هذه الحفرة ، فإنهم لن يستطيوا أن يعصموا أنفسهم من الوقوع فى حفرة أخرى ، ألا وهى التخمة فى الألفاظ ، أو القصور فيها ، حينما يلبسون المعنى لفظا أوسع منه ، أو قصيرا عليه ، وإن اتفق لأحدهم التوفيق فى بعض العبارات ، فإنه لن يستطيع مواصلة السير على ذلك ، لأنه كلما طال الطريق ، قصر نفسه ، وأعيته حيلته ، رغم تعمله وتصنعه ، وتبديله وتنقيحه .

وسبب هذا الخطأ ، أو العجز هو أن أحدا من الناس لم يحط علما باللغة ومدلولاتها ، وبالألفاظ واستعمالاتها ، فضلا عما جبل عليه الناس من النسيان والذهول .

أما الكلمات القرآنية ، فالأمر فيها مختلف تماما ...

فالناظر فيها يراها قد استعملت أفضل ما يكون الاستعمال ، بحيث كان كل لفظ أمس رحما بالمعنى ، وأبلغ تصويرا ، وأصفى رونقا وأجمل نسقا.

يلحظ كل ذلك ، من أول القرآن إلى آخره دون استثناء لفظ واحد . وإن تعجب فمن حقك ، وإن سألت عن الفرق بين الكلامين ، قلنا لك هو كالفرق بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق ، قدرة الخالق الذى أحاط بكل شىء علما ، وأتقن كل شىء ، قدرة الخالق الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، كيف تساويها قدرة المخلوق الجاهل العاجز ؟

يقول ابن عطية رحمه الله عن إعجاز القرآن ونظمه :

---

(١٤) البيان والتبيين : ١ / ٢٠ ط الخانجى بمصر .

« ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم - بإحاطته - أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى ، من الفصاحة »(١٥)

وعن دقة هذه الخاصة التى تميز النظم القرآنى ، **وأهميتها يقول الباقلانى رحمه الله :**

« واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه ، وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر .

وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع (الصبح) فى موضع (الفجر) يحسن فى كل كلام إلا أن يكون شعرا أو سجعا ؟ وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها ، وتجد الأخرى - لو وضعت موضعها - فى محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار . »(١٦)

ومن أراد التأكد من هذه الخاصة للنظم القرآنى ، وتميزه بها عن غيره فليعمد إلى أى نص قرآنى وليعد ألفاظه لفظا لفظا ، وحرفا حرفا ، ثم ليضع يده على أى نص من كلام آخر ، مساو له فى عدد هذه الحروف ، ثم لينظر هل فى مكنتة أن يتصرف فى النص القرآنى بالزيادة ، أو النقصان ، أو بالتبديل ، دون أن يخل بالمعنى الذى أراده الله بهذا النص ؟ ثم لينظر فى المقابل كم وسع عليه الأمر فى الكلام الآخر ، بالزيادة والنقصان والتبديل ، دون أن يخل بمعنى الكلام ، بل سيجد نفسه أنه بهذا التغيير ربما جعل للكلام الآخر بلاغة لم تكن فيه .

---

(١٥) المحرر الوجيز ٢ / ٧١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(١٦) إعجاز القرآن للباقلانى : ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

وفى أخبار الأدب العربى كثير من المناقضات ، حوت كثيرا من مؤاخذات ، أخذوها على بعضهم ، ولنضرب لذلك مثلا واحدا ، أخذت الخنساء على حسان بن ثابت [١٧] فى عكاظ حين أنشدها:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

أخذت مآخذ ثمانية ، كالآتى ، حيث قالت : ضعفت افتخارك ، وأنزرته فى ثمانية مواضع ، قال : وكيف؟

قالت : قلت « لنا الجفنات » ، والجفنات ما دون العشر فقلت العدد ، ولو قلت « الجفان » لكان أكثر ، وقلت « الغر » ، والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت « البيض » لكان أكثر اتساعا ، وقلت : « يلمعن » ، واللمع شىء يأتى بعد الشىء ، ولو قلت « يشرقن » لكان أكثر ، وقلت « بالضحى » ولو قلت « بالعشية » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت « أسيافنا » ، والأسياف دون العشر ، ولو قلت « سيوفنا » كان أكثر ، وقلت : « يقطرن » ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : « يجرين » لكان أكثر ، لانضباب الدم ، وقلت : « دما » و «الدماء » أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفتخر بمن ولدك .» ا . هـ

إن الكلمة القرآنية قد روعى فى انتقائها ، غاية اتساقها مع سابقتها ولاحقتها وتمام تناسبها مع المقام من رقة وفخامة وجزالة ، إضافة إلى انضباط لفظها على المعنى الذى سيقت له ، دون أن يكون هناك حرف زائد ، لا حاجة إليه .

وحينما يقول العلماء عن حرف فى القرآن إنه زائد ، فإنما يقصدون الزيادة فى الاعراب ، لا الزيادة التى لو حذف معها هذا الحرف لم يتغير المعنى.

إنهم يقصدون أنها جاءت لتدل على معنى مراد ، بحيث لو لم تأت لما دل اللفظ على هذا المعنى الذى جاء هذا الحرف ليدل عليه .

ولنضرب لذلك مثالا بقوله تعالى: (ليس كمثله شىء) [١٨] فللعلماء فى

---

(١٧) كما ذكر الرافعى فى إعجاز القرآن : ٢٩٧ .
(١٨) الشورى : ١١ .

الكاف هنا أقوال ، وأرى أن أدق كلام فيها وأجمله ما قاله الدكتور دراز عليه رحمة الله .

يقول رحمه الله : « أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف ، بل على وجوب زيادتها فى هذه الجملة ، فرارا من المحال العقلى ، الذى يفضى إليه بقاؤها على المعنى الأصلى من التشبيه ، إذرأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله ، فتكون تسليما بثبوت المثل له سبحانه ، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه ، لأن السالبة – كما يقول علماء المنطق – تصدق بعدم الموضوع ، أو لأن النفى – كما يقول علماء النحو – قد يوجه إلى المقيد وقيده جميعا ، تقول : « ليس لفلان ولد يعاونه » إذا لم يكن له ولد قط ، أو كان له ولد لا يعاونه ، وتقول : « ليس محمد أخا لعلى» إذا كان أخا لغير على ، أو لم يكن أخا لأحد .

وقليل منهم من ذهب إلى أنه لابأس ببقائها على أصلها ، إذ رأى أنها لا تؤدى إلى ذلك المحال ، لانصا ولا احتمالا ، لأن نفى مثل المثل يتبعه فى العقل نفى المثل أيضا.

وذلك أنه لو كان هناك مثل لله لكان لهذا المثل مثل قطعا ، وهو الإله الحق نفسه ، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلا لصاحبه ، وإذًا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل ، وهو المطلوب .

وقصارى هذا التوجيه – لو تأملته – أنه مصحح لا مرجح ، أى أنه ينفى الضرر عن هذا الحرف ، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة إليه .

ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء ؟ وأنه إن كان قد ازداد به شيئا فإنما ازداد شيئا من التكلف والدوران ، وضربا من التعمية والتعقيد ، وهل سبيله إلا سبيل الذى أراد أن يقول : « هذا فلان » فقال : « هذا ابن أخت خالة فلان » ، فمآله إذًا إلى القول بالزيادة التى يسترونها باسم التاكيد ، ذلك الاسم الذى لا نعرف له مسمى ههنا ، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصودا البتة ، وتأكيد النفى بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف فى موقعه محتفظا بقو
دلالته قائما بقسط جليل من المعنى المقصود فى جملته وأنه لو سقط منـ
لسقطت معه دعامة المعنى ، أو لتهدم ركن من أركانه ، ونحن نبين لك هذا مـ
طريقين ، أحدهما أدق مسلكا من الآخر .

الطريق الأول : وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور ، أنه لو قيل « ليسـ
مثله شىء » لكان ذلك نفيا للمثل المكافىء ، وهو المثل التام المماثـ
فحسب ، إذ أن هذا المعنى هو الذى ينساق إليه الفهم من لفظ المثـ
عند إطلاقه ، وإذًا لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام أن لعـ
هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ، ولكنها تليها ، وأن عسى أ
تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ،
للجن والأوثان والكهان ، فيكون لهم بالإله الحق شبه مافى قدرته
عمله ، وشرك ما فى خلقه أو أمره ، فكان وضع هذا الحرف فـ
الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة ، وعما يشبه المماثلة ، وما يد
منها ، كأنه قيل : ليس هناك شىء يشبه أن يكون مثلا لله ، فضـ
عن أن يكون مثلا له على الحقيقة .

وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، على حد قوله تعالى
﴿ **ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما** ﴾(١٩) ، نهيا عن يسير الأذ
صريحا ، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى .

الطريق الثانى : وهو أدقهما مسلكا ، أن المقصود الأول من هذه الجمـ
وهو نفى التشبيه وإن كان يكفى لأدائه أن يقال : « ليس كالـ
شىء » أو « ليس مثله شىء » لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمـ
إليه الآية الكريمة ، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد فـ
الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته ، وطريق برهانه العقلى.
ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفى عن امرىء نقيصة فى خلقه ، فقلـ
« فلان لا يكذب ولا يبخل » أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى

---

(١٩) الإسراء : ٢٣ .

المجردة عن دليلها ، فإذا زدت فيه كلمة فقلت : « مثل فلان لا يكذب ولا يبخل » لم تكن بذلك مشيرا إلى شخص آخر يماثله ، مبرءا من تلك النقائص بل كان هذا تبرئة له هو ، ببرهان كلى ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك ، لوجود التنافى بين طبيعة هذه الصفات ، وبين ذلك النقص الموهوم .

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمة قائلة : « مثله تعالى لا يكون له مثل » ، تعنى أن من كانت له تلك الصفات الحسنى ، وذلك المثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه ، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه ، فلا جرم جىء فيها بلفظين ، كل واحد منهما يؤدى معنى المماثلة ، ليقوم أحدهما ركنا فى الدعوى ، والآخر دعامة لها وبرهانا .

فالتشبيه المدلول عليه بـ « الكاف » لما تصوب إليه النفى تأدى به أصل التوحيد المطلوب ، ولفظ « المثل » المصرح به فى مقام لفظ الجلالة ، أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب »(٢٠)

الفاصلة

وإذا كنا نتحدث عن تمام الدقة فى اختيار الكلمة القرآنية ، فإن هناك كلمة من بين هذه الكلمات تسترعى انتباه القارىء والسامع على حد سواء ، هذه الكلمة هى التى تختم بها كل آية ، وقد اصطلح عليها باسم الفاصلة ...

وقد عرفها أبو الحسن الرمانى بقوله : « الفواصل : حروف متشاكلة فى المقاطع ، توجب حسن إفهام المعانى »(٢١)

وتبعه فيما بعد على هذا التعريف أبو بكر الباقلانى ، حيث قال : « وأما الفواصل فهى حروف متشاكلة فى المقاطع ، يقع بها إفهام المعانى»(٢٢)

وعرفها الزركشى فى البرهان بقوله : « الفاصلة : كلمة آخر الآية ، كقافية

(٢٠) النبأ العظيم : ١٢٦ - ١٢٩ .

(٢١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآنى : ٨٩ .

(٢٢) إعجاز القرآن للباقلانى : ٤٠٩ .

الشعر ، وقرينة السجع »[٢٣]

وللفاصلة القرآنية زوايا متعددة ، وجوانب شتى ، أفردها العلماء بالتص
واعتنوا بها بالبحث والدراسة ، ولن نطيل هنا فى الحديث عنها ، وإنما
القول فى نقطتين اثنتين ، وبمنتهى الاختصار.

١ - **النقطة الأولى** : هى أن هذه الفواصل - وإن كانت فى
المواضع على هيئة السجع - ليست سجعا ، لأن السجع يراعى ف
يكون المعنى تابعا للسجع ، فالسجع أصل ، والمعنى هو التابع
بخلاف الفاصلة : فالمعنى هو الأصل وألفاظ الفاصلة تابعة
المعانى . ولذلك اعتبر المدققون السجع عيبا ، إذا كان هدفا للمتك
بخلاف ما إذا جاء عفوا فى كلامه ، أو كان تابعا للمعنى و
أصلا . يقول الرمانى : « والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، و
أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها » وي
الرمانى لماذا كان السجع عيبا فيقول : لأنه : « قلب ما توجبه الح
فى الدلالة ، إذا كان الغرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن الم
التى الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلا
وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ، لأنه تَ
من غير الوجه الذى توجبه الحكمة

ومثله مثل من رصع تاجا ثم ألبسه زنجيا ساقطا ، أو نظم قلادة د
ألبسها كلبا ، وقبح ذلك وعيبه بَيِّنٌ لمن له أدنى فهم »[٢٤]

النقطة الثانية : هى صلة الفاصلة بمعنى الآية

فالفاصلة لم تذكر حلية للآية ، أو شيئا يمكن الاستغناء عنه ، و
ذلك من خلال النظر إلى أقسامها[٢٥] فهى من ناحية صلتها ب
الآية تنقسم إلى أربعة أقسام : التمكين ، والتصدير ، والتوش
والإيغال .

---

(٢٣) البرهان فى علوم القرآن : ١ / ١٤٩ .
(٢٤) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : ٨٩ ، ٩٠ .
(٢٥) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ١ / ١٦٩ .

١ – **الأول التمكين** : وهو أن يمهد لهذه الفاصلة بتمهيد ، بحيث تأتى الفاصلة وهى فى غاية الاستقرار ، دون أدنى قلق أو اضطراب ، ويكون معناها متعلقا تمام التعلق بمعنى الكلام كله ، بحيث لو لم تذكر الفاصلة لاختل المعنى .

مثاله : قوله تعالى : ﴿ **أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾ [٢٦]

فالموعظة فى الآية الأولى سمعية ، ولذلك كانت الفاصلة (أفلا يسمعون) والموعظة فى الآية الثانية مرئية ، صدرت بقوله (أو لم يروا) ، فناسبها مجىء الفاصلة (أفلا يبصرون) .

٢ – **التصدير** : وهو تقدم حروف الفاصلة على الفاصلة ، مثاله قوله تعالى : ﴿ **لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى** ﴾ [٢٧]

وقوله تعالى: ﴿ **رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ [٢٨]

٣ – **التوشيح** : وهو أن تتضمن الآية معنى يشير بوضوح تام إلى الفاصلة ، حتى ليكاد ينطق بها من يستمع إلى الآية بخشوع تام ، وقلب مفتوح .

كقوله تعالى: ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [٢٩]

فقد حدث من عبد الله بن أبى السرح أنه كان يكتب هذه الآية لرسول الله ﷺ وقبل أن ينطق الرسول ﷺ بالفاصلة نطق بها ،

---

(٢٦) السجدة : ٢٦ ، ٢٧ .

~~(٢٧) طه : ٦١~~

(٢٨) التوبة : ١٠٨ .

(٢٩) المؤمنون : ١٤ .

وكانت سببا فى تشككه ثم ردته ، ولكنه رجع إلى الإسلام مرة أخرى .

ومنه قوله تعالى: ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون**﴾(٣٠) ، فإن من ينصت إلى الآية بكل خشوع يحس بفاصلتها قبل أن يسمعها .

والفرق بين التصدير والتوشيح : أن دلالة التصدير على الفاصلة لفظية ، بينما دلالة التوشيح عليها معنوية .

ويعلل الزركشى هذه التسمية للتوشيح بقوله : « سمى به لكون نفس الكلام يدل على آخره ، نزل المعنى منزلة الوشاح ، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح ، اللذين يجول عليهما الوشاح »(٣١)

الرابع: الإيغال: وهو ورود الفاصلة بمعنى زائد عن معنى الآية من قولهم أو غل فى الكلام إذا انتهى إلى غاية ، ثم زاد عليها.

مثاله: قوله تعالى: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾(٣٢) ، فالكلام قد تم معناه عند قوله (يبغون) فلما أريد فاصلة مناسبة أتى بقوله ﴿**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾ .

وهكذا تبدو الدقة فى اختيار الكلمة القرآنية من أول كلمة فى الآية إلى آخرها ، من ناحية المعنى ومن ناحية اللفظ ، لتصل إلى ما فوق البلاغة .

---

(٣٠) يس : ٣٧ .

(٣١) البرهان : ١/ ١٨٤ و والكشح ما بين السرة إلى الضلع الخلف ، والوشاح : الثوب يلبس معطوفا أحد طرفيه على الآخر ، بحيث يخرج طرفه الذى ألقاه على عاتقه الأيسر ، من تحت يده اليمنى ، ثم يعقد طرفيهما على صدره .

(٣٢) المائدة : ٥٠ .

مزايا نظم الكلمات القرآنية

لنظم الكلمات القرآنية مزايا كثيرة، نقتصر منها فى هذه العجالة على ما يأتى:

أولا: مراعاة الخفة فى انتقاء الألفاظ، ولذلك صور، منها:

(أ) استعمال بعض الألفاظ مفردة فقط، حيث رأينا تلك الألفاظ لم تأت فى القرآن إلا مفردة، مثل «الأرض»، فلما احتيج إلى جمعها، جىء بها على صورة تربعت على عرش الفصاحة، بحيث بلغت من الروعة ما يسجد لفصاحتها كل بلاغة سجدة طويلة طويلة، تسبح فيها بعظمة من نطق بها.

إقرأ قوله تعالى: ﴿الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾[٣٣]، وقل لى بربك أى عذوبة ورقة وسلاسة تدنو من هذا التعبير، حيث قال (ومن الأرض مثلهن) ولم يقل وسبع أرضين، كما قال سبع سموات، تفاديا للثقل، وتناسبا للنظم.

(ب) ومن صور مراعاة الخفة فى انتقاء الألفاظ أيضا: استعمال بعض الألفاظ مجموعة فقط، على العكس من الصورة السابقة.

كلفظ «الألباب» فلم ترد فى القرآن إلا مجموعة، فلما أريد التعبير بالمفرد «اللب» لم يعبر به، وإنما عبر بالقلب، لما فى الباء واللام من الشّدة، دون فصل بينهما.

فى حين أن لفظة «الجب» ورد التعبير بها - فى سورة يوسف - رغم أنها على وزن كلمة «اللب» والسبب فى ذلك عدم وجود الشدة فى الجيم، مما ترتب على ذلك خفة هذا اللفظ وسلاسته.

ثانيا: ومن مزايا النظم القرآنى أيضا: مراعاة الخفة والثقل فى ترتيب الألفاظ.

فقد تحتوى العبارة على أكثر من كلمة، ويظن البعض أن الترتيب

---

(٣٣) الطلاق: ١٢.

بينها بأى وضع لا يخل بسلاسة النظم ، بينما الأمر على خلاف ذل
فمثلا قوله تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقم**
والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾ (٣٤)
احتوى على خمسة أسماء ، ثلاثة خفيفة (الطوفان ، والجراد ، والد
واثنان ثقيلان ، فقدم خفيفان (الطوفان والجراد) ليأنس اللسان به
الخفة ، حيث جاء فى الأول مدان ، وفى الثانى مد ، ثم جي
بالاسمين الثقيلين (القمل والضفادع) وابتدئ بأخفهما على اللس
(القمل) ، لوجود الغنة فيه ، ثم ختم بأخف الأسماء الخمس
(الدم) ، وهى أقلها حروفا ، ليسرع اللسان بنطقها ، ويستقيم بها ول
ذوق النظم القرآنى ، ومهما قدمنا أو أخرنا فى هذه الأسماء الخمس
فلن نستطيع إيجاد وضع أفضل نظما ، وأجمل ذوقا ، وأخف وزنا م
ذلك النظم القرآنى.

ثالثا : مراعاة التحقير والتعظيم على أفضل ما يكون فقد رأينا استعما
لفظة فى موضع ، فلما أريد إعادتها فى نفس الموضوع عبر بغيره
كما وقع فى لفظ (قرية) فى قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا أتيا أهل قر**
استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ﴾ (٣٥) ، فلما علل الخضر أفع
التى أنكرها موسى عليه قال ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين ف**
المدينة ﴾ (٣٦) ، فاستعمل المدينة بدلا من القرية .
لأن الموقف الأول كان الحديث فيه عن قوم لئام بخلاء ، فناس
التعبير عنهم بلفظ القرية ، أما الموقف الثانى : فكان الحديث فيه ع
غلامى الرجل الصالح ، فناسب الحديث بلفظ المدينة .
قال صاحب الفتوحات الإلهية : « عبر عنها فيما تقدم بالقرية تحق
لها ، لخسة أهلها ، وعبر عنها هنا بالمدينة تعظيما لها ، من حي

---

(٣٤) الأعراف : ١٣٣ .
(٣٥) الكهف : ٧٧.
(٣٦) الكهف : ٨٢ .

اشتمالها على هذين الغلامين وعلى أبيهما . »[٣٧]

رابعا : تعدد مقاطع الكلمة الطويلة وتنوع مخارجها وتباعدها . فقد سبق أن ذكرنا أن من شروط فصاحة الكلمة ألا يكثر عدد حروفها ، ولكن النظم القرآنى بطريقة إلهية قد يخالف هذه القاعدة ، بما لا يتنافى مع فصاحة الكلمة وجزالتها.

كقوله تعالى : ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ [٣٨] وكقوله ﴿ **ليستخلفنهم** ﴾[٣٩] فقد جاءت تلك الكلمتان فى غاية العذوبة ، لتعدد مقاطعها ، وتنوع مخارج حروفها وتباعدها ، ومجىء حركاتها وسكناتها على أحسن وجه .

خامسا : مراعاة شعور الناس وحيائهم ... حيث يؤثر النظم القرآنى لفظة على أخرى ، يراعى فيها الدقة بحيث لا تجرح أدب الناس ، ولا تخدش حياءهم .

كالتعبير بالمباشرة ، والقرب ، والسر ، بدلا من الجماع . فى مثل قوله تعالى: ﴿ **فالآن باشروهن** ﴾ [٤٠] وقوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوهن حتى يطهرن** ﴾[٤١] ، وقوله : ﴿ **ولكن لا تواعدوهن سرا** ﴾[٤٢]

سادسا : التشنيع بما يناسب المقام .

كقوله تعالى : ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ [٤٣] فلو قيل : فأجاعها الله وأخافها ، ما فهم منه عظم تلك الشناعة ، ومدى هذا العقاب ، حيث جعل لهم من الجوع والخوف سربا لا يتسربلون به ، إضافة إلى التعبير بالذوق ، الذى يفيد قسوة المرارة ، ومرارة القسوة

سابعا : تناسب غرابة اللفظ مع غرابة المعنى .

فقد يؤثر القرآن لفظة غريبة على غيرها ، لتتناسب مع غرابة مضمون الجملة .

---

(٣٧) الفتوحات الإلهية ، لسليمان الجمل : ٣ /٤٠

(٣٨) هود : ٢٨ .

(٣٩) النور : ٥٥.

(٤٠) ، (٤١) ، (٤٢) : البقرة : الآيات : ١٨٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥

(٤٣) النحل : ١١٢ .

كلفظة (ضيزى) فى قوله تعالى: ﴿**تلك إذًا قسمة ضيزى**﴾[٤٤] فإن القسمة التى صنعها العرب ، من جعلهم الذكر لهم ، والأنثى لله ، قسمة غريبة منكرة ، فناسبها هذه اللفظة الغريبة التى لو أدير لسان العرب على أن يؤتى بمثلها فى هذا المقام ما استطاعوا ، أضف إلى ذلك كونها فاصلة متناسقة مع باقى الفواصل، متناسبة مع التوقيع الصوتى لألفاظ الآية .

ثامنا : استعمال اللفظ الواحد على أكثر من صورة ليناسب المقام .

مثال ذلك : لفظ (الحياة) ، فمرة يجىء منكرا (حياة) ومرة يجىء مضافا إلى ياء المتكلم ، (حياتى) وثالثة بصيغة المبالغة (الحيوان) ، كل ذلك بحسب ما اقتضاه المقام.

فقد جىء به منكرا فى قوله تعالى : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** ﴾[٤٥]، ليفيد مدى حرص اليهود على أى صورة للحياة ، مهما بلغت دناءتها وحقارتها. وفى موضع آخر عبر بهذا اللفظ أيضا ولكن مضافا إلى ياء المتكلم كما فى قوله تعالى : حكاية عن الكافر يوم القيامة : ﴿ **يقول ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾[٤٦]، فإن حياته فى هذه الدنيا، والتى تمتع فيها بما تمتع ، إن قورنت بحياته الأخروية ، كانت سرابا خادعا ، لا طائل تحته ، أو حلما مؤقتا سرعان ما أفاق منه ، ليواجه الحقيقة المخزية ، حيث العذاب السرمدى الذى لا ينقطع ، والهوان الأبدى ، الذى يزداد كلما استقبل من وقت .. ، فهذه هى حياته الحقيقية ، ولذلك اعتبر حياته . الأولى طيفا عابرا ، وخيالا زائلا . ويبلغ التعبير بلفظ (الحياة) مداه ، حينما يعبر عنها بصيغة المبالغة ، فى قوله تعالى : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان** ﴾[٤٧]

---

(٤٤) النجم : ٢٢ .
(٤٥) البقرة : ٩٦ .
(٤٦) الفجر : ٢٤ .
(٤٧) العنكبوت : ٦٤ .

لقد حصرت الآية تلك الحياة الدنيا وما يقع فيها فى أنه لهو ولعب ، لهو كلهو الصبيان ، يسلون به أنفسهم ، ولعب كلعبهم يجتمعون عليه، ويبتهجون به ساعة ، ثم يتفرقون عنه ، أما الآخرة فهى دار الحياة الحقيقية ، التى تستحق وصف الحياة ، الذى لا يوصف به إلا الكائن الحى ، لامتناع فنائها وطريان الموت على أهلها ، أما الحياة الدنيا ، فكأنها جثة ها مدة خرجت منها الروح ، وفارقتها الأنفاس ، وأصبحت فى عداد عالم الجماد .

قال أبو السعود : « الحيوان أصله حييان ، فقلبت الياء الثانية واوًا لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ، ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة »(٤٨)

تاسعا : تجسيم المعنى ... فالكلمة القرآنية تكاد تجسم المعنى ، ونكتفى هنا بضرب مثالين :

(أ) قوله تعالى : ﴿ الحاقة ، ما الحاقة ﴾(٤٩)فالحاقة اسم من أسماء يوم القيامة ، ولكن هذا اللفظ يجسد لنا حقيقة ما يحدث فى هذا اليوم .

يقول سيد قطب رحمه الله : « والسورة بجملتها تلقى فى الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا ، بمعنى واحد ، أن هذا الأمر أمر الدين والعقيدة ، جد خالص ، حازم جازم جد كله ، لا هزل فيه ، ولا مجال فيه للهزل » إلى أن يقول : « يبرز هذا المعنى فى اسم القيامة ، المختار فى هذه السورة ، والذى سميت به السورة « الحاقة » وهى بلفظها وجرسها ومعناها تلقى فى الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار ، وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شىء برفع الثقل طويلا ، ثم استقراره استقرارا مكينا، رفعه فى مدة الحاء بالألف ، وجده فى تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاء ساكنة . »(٥٠)

---

(٤٨) إرشاد العقل السليم لأبى السعود : ٧ / ٤٧
(٤٩) الحاقة : ١ ، ٢ .
(٥٠) فى ظلال القرآن : ٦ / ٣٤٧٤ .

(ب) المثال الثانى : قوله تعالى ﴿ والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس ﴾ [٥١] يقول سيد قطب أيضا : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ أى إذا أظلم ، ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك ، فلفظ « عسعس » مؤلف من مقطعين، عس عس ، وهو يوحى بجرسه بحياة فى هذا الليل ، وهو يعس فى الظلام بيده ، أو برجله لا يرى ، وهو إيحاء عجيب ، واختيار للتعبير رائع ، ومثله ﴿والصبح إذا تنفس﴾ بل هو أظهر حيوية وأشد إيحاء ، والصبح حى يتنفس ، أنفاسه النور ، والحياة والحركة التى تدب فى كل حى ، وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية ، لا تحتوى نظيرا لهذا التعبير عن الصبح ، ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجىء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التى يشعر بها القلب المتفتح . »[٥٢]

طعن فى اختيار الكلمة القرآنية يكشف عن جهل أصحابه ، ويؤكد بلاغة القرآن

علمنا من فصل معارضة القرآن وعجز العرب عنها ، وشهادتهم للقرآن وبلاغته ، مدى ما وصلت إليه البلاغة القرآنية ، ومع ذلك فقد وجدنا نفرا يلمزون هذه البلاغة القرآنية ، مريدين منها فى واقع الأمر هدم هذا الدين ولكن الله غالب على أمره .

وهم حينما يطعنون فإنما يكشفون عن جهلهم ، ويؤيدون رقى القرآن إلى المرتبة العليا من البلاغة .

ولهم فى ذلك بعض الآيات التى ضربوها مثلا للحط من بلاغة القرآن ، نكتفى منها هنا بذكر ثلاثة أمثلة ، ونحيل على الكتب التى أفردت للرد على هذه الطعون .

---

(٥١) التكوير : ١٧ ، ١٨ .
(٥٢) الظلال : ٦ / ٣٨٤١ ، ٣٨٤٢ .

١ - قوله تعالى : ﴿ **فأكله الذئب** ﴾ [٥٣] قالوا : إن الأكل عام : لا يختص به نوع دون نوع من الحيوان ، فلماذا لم يقل فافترسه .

٢ - وقوله تعالى : ﴿ **هلك عنى سلطانية** ﴾[٥٤] ، قالوا الصحيح أن يقال ذهب ، لأن لفظ الهلاك يستعمل فى الأعيان والأشخاص ، مثل هلك مال زيد ، وهلك عمرو .

٣ - وقوله تعالى : ﴿ **قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون** ﴾[٥٥] ، قالوا الصحيح أن لا يعبر باللام ، يقال ردفه من غير إدخال اللام.

ويرد على الأول بأن (أكله) أبلغ من افترسه ، لأن الافتراس يعنى القتل فَالْفَرْس لغة : دق العنق ، فلو قالوا فافترسه الذئب لطالبهم أبوهم بجثته ، فأرادوا أن لا يطالبوا بذلك ، فعبروا بالأكل ، الذى يأتى على جميع أجزائه ، دون أن يترك منه ولو يسيرا .

أما قوله ﴿ **هلك عنى سلطانية** ﴾ فهو من قبيل الاستعارة ، التى هى أبلغ من استعمال اللفظ الحقيقى ، وذلك لأن الذهاب قد يعقبة عود ، أما الهلاك فلا رجاء فى العود ولا أمل .

وأما قوله ﴿ **ردف لكم** ﴾ باللام ، فهى وبدونها لغتان فصحيان ، يقال ردفته وردفت له ، كما يقال نصحته ونصحت له ، وشكرته وشكرت له .

وقد قام العلماء بالرد على هؤلاء الطعانين ، بإفراد مصنات خاصة ، كما فعل القاضى عبد الجبار فى كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن ، وابن قتيبة فى كتابه تأويل مشكل القرآن ، وغيرهما ، إضافة إلى كتب التفاسير التى تعرضت لمطاعنهم أثناء تناولها الآيات التى طعنوا فيها .

إن هؤلاء الطاعنين - حقيقة - قاموا بعمل عظيم لإظهار بلاغة القرآن حينما قاموا بطعونهم هذه ، فكثير من الناس لم يفطن إلى بلاغة القرآن إلا بعد انصعن

---

(٥٣) يوسف : ١٧ .

(٥٤) الحاقة .

(٥٥) النمل : ٧٢ .

فيه ورد العلماء ، ولولا هذا الطعن لما وقف الناس على تلك البلاغة القرآنية .
وصدق من قال :

إذا أراد الله نشر فضيلة طويت ... أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

لقد نزلت الكلمات القرآنية منازلها ، على أسمى ما تكون البلاغة ، نزلت تنزلا مماثلا لما عليه مكونات المجموعة الشمسية ، والكواكب السماوية ، كل قد أخذ مكانه ، ليؤدى دوره ، وإلا لما قدر على أداء هذا الدور .

إن الذى صدر عنه هذا الكون العظيم بهذا النظام البديع ، هو الذى صدر عنه أيضا هذا القرآن العظيم . بهذا النظم البديع ، فلم تعجزه أن تكون الكلمة دائما فى مستوى المعنى المراد ، على أدق وجه ، وأجمل صورة ، ذلك تقدير العزيز العليم .

يقول دراز عليه رحمة الله : « فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول أن يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ويضع كل ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها ، وهى أحق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظه إلا مرآتة الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين ، لا يوما أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجىء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ، ولا الساكن يبغى عن منزله حولا . »(٥٦)

---

(٥٦) النبأ العظيم : ٨٤ .

المبحث الثالث

الأسلوب القرآنى

الأسلوب القرآنى

ومن أوجه إعجاز القرآن البيانى أسلوبه البديع

ولكن ماذا يقصد بالأسلوب ؟

للأسلوب فى اللغة عدة إطلاقات ، نستطيع الوقوف عليها من المعاجم:

فقد جاء فى تاج العروس للزبيدى :

« الأسلوب : السطر من النخيل ، والطريق يأخذ فيه ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والأسلوب : الوجه والمذهب ، يقال هم فى أسلوب سوء ، ويجمع على أساليب ، وقد سلك أسلوبه : طريقته وكلامه على أساليب حسنة ، والأسلوب : الفن ، يقال : أخذ فلان فى أساليب من القول ، أى أفانين منه .»(١)

ويقول الفيروزا بادى : « والأسلوب : الطريق »(٢)

وجاء فى المعجم الوسيط : « الأسلوب : الطريق ، ويقال سلكت أسلوب فلان فى كذا ، طريقته ومذهبه ، وطريقة الكاتب فى كتابته ، والفن ، يقال : أخذنا فى أساليب من القول : فنون متنوعة ، والصف من النخيل ونحوه »(٣)

مما سبق يتبين لنا أن الأسلوب فى أصل اللغة يطلق على عدة أشياء ، منها ما هو حسى : كسطر النخيل ، والطريق الممتد ، ومنها ما هو معنوى ، كالفن من القول ، أو الوجه والمذهب .

الأسلوب اصطلاحا

وعلى هذا فنستطيع أن نقول : إن المراد من الأسلوب فى الكلام هو :

« الطريقة التى يتبعها الإنسان ، فى كلامه ، من اختيار الألفاظ ، وبناء التراكيب ، لتوضيح مراده وللتأثير على غيره »

هذا المعنى للأسلوب الكلامى هو المشهور منذ القدم إلى يومنا هذا .

---

(١) تاج العروس للزبيدى : ١ /٣٠٢ (سلب) ط مكتبة الحياة بيروت .

(٢) القاموس المحيط للفيروز ابادى : ١ /٨٣ ط السعادة بمصر

(٣) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية : ١ / ٤٤١ .

يقول الأستاذ أحمد الشايب : « إن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ فى معناه ناحية شكلية خاصة ، هى طريقة الأداء ، أو طريقة التعبير التى يسلكها الأديب لتصوير ما فى نفسه ، أو لنقله إلى ماسواه ، بهذه العبارات اللغوية ، ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب إلى اليوم .

ثم يقول : « فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الالفاظ ، وتأليفها ، للتعبير بها عن المعانى ، قصد الإيضاح والتأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه ، هذا تعريف الأسلوب الأدبى بمعناه العام » (٤)

معنى : أسلوب القرآن

وإذا كان هذا معنى الاسلوب الأدبى بصورة عامة ، فإن تعريف الأسلوب القرآنى لا يخرج عن هذا التعريف .

ولذلك فإن لنا أن نعرفه بقولنا :

« هو تلك الطريقة التى امتاز بها عن غيره ، فى اختيار الألفاظ وبناء التراكيب ، وتأديتها على صورة بديعة ، للتعبير بها عن معان خاصة ، قصد الإيضاح والتأثير »(*)

هل الأسلوب يعنى التراكيب ؟

وواضح من هذا التعريفأن الأسلوب لا يعنى التراكيب ، فما التراكيب وما مفرداتها إلا مواد يستخدمها صانع الكلام فى إخراج صنعته ، وما صانع الكلام إلا كبناء بيوت ، أو كنساج قماش ، فكما أن البناء له قالب ، والنساج له منوال ، فكذلك المتكلم ، له قالبه الخاص ، الذى يصب فيه كلامه ، فيخرج بتلك الصورة التى رتبها فى ذهنه .

يقول ابن خلدون عن الأسلوب : « فاعلم أنه عبارة عندهم عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه .

---

(٤) الأسلوب ، للأستاذ أحمد الشايب الأستاذ بجامعة القاهرة : ٤٥ ط النهضة المصرية .

(*) وبهذا يتضح أن الاسلوب أوسع دائرة من النظم ، لأن النظم يمكن تحقيقة فى الكلمة الواحدة ، كما سبق بيانه فى نظم الحروف ، بينما لا يمكن ذلك فى الأسلوب ، إذ أنه قائم على اختيار الألفاظ وبناء التراكيب وطريقة تأديتها.

وهو يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية ، باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال ، كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب ، باعتبار الإعراب والبيان ، فيرصها فيه رصا ، كما يفعله البناء فى القالب ، أو النساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة ، باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ، وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل .

إلى أن يقول : « إن مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج ، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذى يبنى فيه ، أو المنوال الذى ينسج عليه ، فإن خرج عن القالب فى بنائه ، أو على المنوال فى نسجه كان فاسدا »(٥)

إن من أهم ما نستنبطه من كلام ابن خلدون هو أن الصورة الذهنية ، التى هى الأصل الأول للأسلوب ، لا تعنى معانى المفردات ، ولا الجمل المستقلة ، بل تعنى طريقة التعبير التى يسلكها المتكلم لإيصال مراده إلى الآخرين .

هل خرج القرآن عن مفردات العرب وقواعد تراكيبهم ؟

ما الذى اعتقل العرب عن معارضة القرآن ؟ وما الذى صور لهم العجز مؤبدا ، لا تنال منه قدرتهم ، ومثل لهم اليأس قائما ، لا يتصل به طمعهم ، حتى جعل طباعهم كأنها ليست طباعهم ، ولغتهم كأنها غير لغتهم ، وهم الذين يتباهون بها ، ويتناقضون فى أغراض شعرها ، ومعانى نثرها ؟

ألأن القرآن استعمل حروفا ليست من لغتهم ، ومفردات غير مفرداتهم وتراكيب غير تراكيبهم ؟

كلا ، ثم كلا ... فالحروف هى الحروف ، والمفردات عين المفردات وقواعد التراكيب هى ذاتها ، وضوابط صوغ المفردات ، وبناء الجمل واحدة

(٥) مقدمة ابن خلدون : ٥٠٠ ، ٥٠١ .

تختلف .

لم يكن القرآن غريبا فى كل ذلك ، فهم عرب ، والقرآن نزل بلسانهم ليخاطبهم أول من يخاطب ، حتى يفهموه ويعملوا به ، قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾ (٦)

وهذا هو الذى حير العرب وبلغاءهم ، ودوخ صناديدهم وأدباءهم ، فلو استعمل حروفا أو مفردات ، أو تراكيب غير التى يستعملونها ، لاعترضوا عليه ، وقالوا تحدينا بما لا علم لنا به ، ولكنهم وجدوا الألفاظ بأعيانها ، كما ألفوها من ألوان المنطق ، وطرق الخطاب ، وليس فيها إكراه للفظ على معنى غير مناسب ، أو إلباس معنى ثوبا غير ثوبه .

إن الذى اعتقلهم عن المعارضة ، ويأسهم من الوصول إلى قمة بلاغة القرآن ، أسلوبه البديع ، الذى لم يروا قبله ، ولن يروا بعده معشار معشاره .

لقد وجدوا أنفسهم أمام أسلوب ذى نسق خاص ، فى اختيار تلك الحروف التى ألفوها ، وفى انتقاء كل كلمة من الكلمات التى عهدوها ، وفى اصطفاء كل تركيب على نفس القواعد التى فاخروا بها ، وجدوا أنفسهم أمام هذا الأسلوب ، الذى أذهلهم عن أنفسهم ، بما رأوا فيه من طرق لم يعهدوها ، وخصائص لم يألفوها ، مما جعلهم يخرون لبلاغته ساجدين ، وبعظمتها مسبحين.

ولكن ما هى تلك الخصائص ، التى امتاز بها أسلوب القرآن على جميع الأساليب الأخرى ، وحققت له تلك المنزلة المعجزة ؟

ذلك مانتناوله الآن ، بإذن الله تعالى.

خصائص الأسلوب القرآنى

للعلماء فى الحديث عن خصائص الأسلوب القرآنى كلام طويل ، وهم بين مقلين ومكثرين ، وهؤلاء وأولئك لم يحيطوا علما بكل تلك الخصائص ، ولم يفعلوا إلا ما به عرف البعض من الكل ، وقرب ما كان بعيدا ، أما الإحاطة

---

(٦) يوسف : ٢.

بكل تلك الخصائص ، فلا يدركها إلا من تكلم به ، وأحاط بكل شيء علما .

ونحن فى هذا المقام لا يعدو دوررنا إلا أن نقف بالقارىء على بعض من خصائص هذا الأسلوب الذى أعجز الخلق كافة ، فمن هذه الخصائص: .

١ - مجيئه على هيئة لم يألفها العرب

فقد كان للعرب ومازال أسلوب خاص فى التعبير عما يريدون ، حيث لم يخرج كلامهم عن كونه نثرا أو نظما ، وللنثر نظام خاص من السجع ، أو الإرسال ، أو غير ذلك ، وللشعر أيضا نظام خاص من أعاريض وأوزان.

أما القرآن فقد جاء على غير ذلك ، إذ لم يسر على طريقتهم فى نثرهم من السجع أو الإرسال ، كما لم يتبع منهجهم فى قصائدهم وأرجازهم ، ومع ذلك فإن من يسمعه يشعر بأنه أمام كلام موزون بميزان خاص ، نظرا لتأليف حروفه وكلماته على نظام بديع ، من الحركات والسكنات ، والغنات والمدات، والاتصالات والسكتات ، بما يعلو فوق كل لحن موسيقى ممتع ، إذ هو تعبير مَنْ خلق النفس ومُتْعتها ، والقلوب ونشوتها ، يشعر بهذا التميز لهذا الأسلوب بتلك الخاصة من أنصت لقارىء حسن الصوت ، يؤدى القراءة بأحكام التجويد ، كما ينبغى.

ولهذا أمر النبى ﷺ بتحسين الصوت ، والتغنى بهذا القرآن حيث قال : « **زينوا القرآن بأصواتكم** » (٧)

وقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »(٨) أنغام وأوزان وألحان ، يشعر بها السامع من غير أن يسمع شعرا.... نعم قد يعثر على ألفاظ على هيئة السجع ، ولكن مثل هذا لا يطلق عليه شعرا ، ولا سجعا ، فأقل الشعر بيتان ، والسجع له نظام خاص وهو قائم على اللفظ لا على المعنى، بعكس القرآن القائم على المعنى أولا ، ثم اختيار اللفظ المناسب لهذا المعنى.

إننا كما نعثر فى القرآن على مثل هذا ، نعثر فى غيره على مثله ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نعتبره شعرا أو سجعا...

---

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب رقم (٥٢) .

(٨) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب رقم (٤٤) .

لقد وقف العرب أمام تلك الخاصة لأسلوب القرآن متحيرين ، وهم الذين يعرفون الشعر من غيره ، فمن هداه الله للحق علم أنه كلام رب العالمين ، وآمن بما جاء به ، ومن طبع على قلبه لم يجد إلا أن يقول : « إن هذا إلا سحر يؤثر » لما رأى فيه من خصائص لم يعهدها فى أسلوب آخر .

الخاصة الثانية:

إيجازه فى اللفظ مع وفائه بحق المعنى

تلك سمة واحدة للأسلوب القرآنى كله ، من أوله إلى آخره ، بينما هى سمتان منفصلتان فى غيره من أساليب البشر .

فالمعهود عن البلغاء أن الواحد منهم بقدر ما يقرب من إحداهما بقدر ما يبعد عن الأخرى ، كالواقف بين بلدتين ، أو كالزوج بين ضرتين .

فالأديب من هؤلاء بين حالين :

١ - إما أن يلبس المعنى لفظا فضفاضا أوسع منه ، بحيث يجعله يتعثر فى أذياله ، لأنه ظن أن قليل اللفظ لم يشف صدره ، فأعطى نفسه حظها من الاسترسال ، معتقدا أنه قد أدى المعنى وحدده ، وربما أنه - بذلك - قد بدده .

٢ - وإما أن يقتصد فى الألفاظ ، حتى يصل إلى حد الإلغاز ، معللا صنيعه بأن البلاغة هى الإيجاز ، بينما لا يمت صنيعه إليها بصلة

وأمامنا خزانة الأدب العربى ، لم نر فيها قصيدة ، أو خطبة ، أو رسالة ، جاءت كلها ، أو على الأقل جلها ، كل عبارة منها، كانت لفظا جامعا ، أو معنى ناصعا .

بل إن أبرع الشعراء ، الذين كانوا يمكثون الليالى والأيام فى القصيدة ، يقرضونها ، ويهذبونها ، ويتفننون بكل الوسائل فى إجادتها ، لم نر فى قصائدهم تلك ، من البراعة والإجادة إلا مواضع خاصة ، من قصائد معدودة ، وفى أبيات محدودة ، وما عداها فمتوسط وغث ، وكثير منها انحط إلى حد الرداءة .

هذا عن أشعارهم التى كانوا يفنون أوقاتهم فى إجادتها، فإذا ما جئت إلى

خطبهم ورسائلهم ، لم تحتج إلى دليل على فقدانها تلك الخاصة التى نتحدث عنها أكثر من قراءتها ، وسترى أن أمرها أظهر فى ذلك من الشعر ، وأبين .

لا يبلغ الإنسان بعمله غاية أمله

هذه حكمة عامة فى كل عمل ، ونظنها صادقة فى معظم الأحوال ، وعلى كل الناس ، ومنهم البلغاء .

فلم نر بليغا ادعى لنفسه استثناء منها ، أو أنه فوق مستواها .

إن أى بليغ يتعقب كلامه ، يجد نفسه مضطرا إلى تغيير فيه ، بزيادة أو نقصان ، أو تصحيح ، أو تهذيب .

وكلما عقبه مرة أخرى غير فيه ، بقدر ما عنده ، من دقة فى الحس، ونفاذ فى البصر ، لأنه يعلم أنه أثناء الكلام لا يتكلم إلا بقدر ما يحيط به علمه ، وما يقذف إلى ذهنه من إلهام ، فهو إنسان يعتريه الجهل والذهول والنسيان ، بالإضافة إلى أنه أثناء هذا الكلام لم يخرج من سجن البشرية الذى يحيط به .

فإما أن يركز على الإيجاز فى اللفظ ، وإما أن يركز على إعطاء المعنى حقه .

فإن ركز على الإيجاز أخل غالبا بالمعنى ، وإن ركز على توفية المعنى ، أصاب اللفظ بالتخمة ، أما أن يركز على الأمرين معا ، من أول الكلام إلى آخره ، فذلك فوق طاقته ، ولن يتفق له بحال ، وإن اتفق له فى جملة أو جملتين ، فسرعان ما يصيبه الكلل والإعياء ، ويعود إلى سيرته الأولى ، من الإفراط أو التفريط فى اللفظ ، أو المعنى ...

وهذا حكم كل بليغ على نفسه ، فضلا عن حكم الآخرين ، من المنافسين والناقدين.

هذا كله فى أسلوب الخلق ، أما أسلوب الخالق فالأمر على غير هذا تماما .

فقد جاءت كل لفظة منه فى موقعها ، بل نزل كل حرف منزله ، فتعانق اللفظ مع المعنى ، حيث وجده القالب الخاص به ، لم يشذ عن ذلك جملة ، ولا شبهها ، ولا حرف ، بحيث يمكن الاستغناء عنه ، فلا إسراف ولا تقتير ، بل هو كما قال قائله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم**

خبير ﴾[٩]

وقد أشرنا إلى نحو هذا أثناء الحديث عن نظم الحروف والكلمات القرآنية ، وطلبنا ممن يريد التأكيد من هذا أن يعمد إلى نص من القرآن ، وليعد حروفه حرفا حرفا ، وإلى نص آخر من غيره يعدد تلك الحروف ، ثم لينظر هل في وسعه إحداث أى تغيير بأى صورة من الصور ، دون إخلال بالمعنى القرآني ، ثم لينظر كم وسع عليه الأمر في النص الآخر بالزيادة أو النقصان أو التعديل ، دون أن يخل بالمعنى ، بل ربما أوجد بهذا التغيير فيه بلاغة لم تكن موجودة فيه .

وما أصدق عالم الأندلس ابن عطية رحمه الله حينما قال عن القرآن :

«لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد»[١٠]

الخاصة الثالثة

استمرار بلاغته من أول القرآن إلى نهايته

المعهود عن البلاغة البشرية ، أنها تأخذ في العلو والانحطاط تبعا لعدة عوامل ، نقتصر منها هنا على عاملين :

١ - عامل يرجع إلى المجال الذي يتحدث فيه المتكلم

٢ - وعامل يرجع إلى صدق هذا المتكلم مع نفسه

١ - فأما العامل الأول ، وهو المجال الذي يتحدث فيه المتكلم ، فمنه الواسع ومنه الضيق ، فمن الواسع مجالات المدح والهجاء ، والحماسة والفخر ، والغزل ، ولذا رأينا فيها البلغاء يتسابقون ويكثرون ، ومن الضيق مجال العلوم والفلسفة والتشريع ، ففرصة الإجادة والبراعة فيها تكاد تكون غير موجودة ، بل ربما غير مطلوبة ، لأن الغرض فيها هو الوقوف على القوانين والأحكام ، دون الوقوف على بلاغة الكلام ، وهذا هو السر في أن الشعر لا يكاد يطرق تلك المجالات ، إلا في

---

(٩) هود : ١ .

(١٠) المحرر الوجيز : ١ / ٧٢ .

النادر .

وعليه فإن البلاغة تظهر فى مجالات دون أخرى ، بل إن تلك المجالات التى اقتحمتها البلاغة ، لا نرى للمتكلم استمرارا فى الإجادة والبراعة فيها ، بل هى جمل معدودة ، وتراكيب محدودة ، رغم تحدثه فى ميدان نبوغه .

فإذا ما جئنا إلى القرآن الكريم ، وجدنا حديثه لم يقتصر على مجال دون آخر ، وإنما امتد ليشمل كل مجال ، كمجالات العقيدة ، والتشريع ، والقصص ، والمواعظ ، والوعد والوعيد ، والحجاج ، والمعاملات والأخلاق ، والسلم والحرب ، وغيرها

بل إننا نرى الموضع الواحد ، قد تداخلت فيه المجالات ، وبصورة بديعة رائعة ، لا توجد ولا تحسن إلا فى القرآن ، ومع هذا التعدد لمجالات القرآن ، ومع هذا التداخل لتلك المجالات ، فإننا نرى البلاغة القرآنية على أسمى ما تكون فى كل جملة من جمله ، من أول القرآن إلى نهايته ، بحيث تتباهى كل جملة بجمال لفظها ، ورقة صياغتها وروعة تعبيرها ، حتى وجدنا الأسلوب كله يكسوه ويعلوه ويشع منه إشراق دونه كل إشراق ، ويغمره رقة وجزالة دونها كل رقة وجزالة ، لا نرى فى ذلك تفاوتا بين مجال وآخر .

وهذا بعكس أساليب البشر ، الذى نرى الواحد من بلغائهم يعلو كلامه فى مجال دون مجالات ، كما عرف عن النابغة في الترهيب ، وزهير في الترغيب ، وامرىء القيس فى ركوب الفرس .

يقول الباقلانى عن القرآن : « إن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه ، التى يتصرف فيها : من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد وعيد ، وسير وتخويف وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور .

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ ، رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها ، فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى ، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره .

ثم نجد من الشعراء من يجود فى الرجز ، ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ، ولكن يقصر تقصيرا عجيبا ، ويقع ذلك من رجزه موقعا بعيدا ، ومنهم من يبلغ فى القصيد الرتبة العالية ، ولا ينظم الرجز ، أو يقصر فيه مهما تكلفه ، أو تعمله .

ومن الناس من يجود فى الكلام المرسل ، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا بينا ، ومنهم من يوجد بضد ذلك .

وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد ، فى حسن النظم وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف إلى الرتبة الدنيا .

وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب ، من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد ، لا يختلف ، من نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير »(١١)

٢ - هذا عن العامل الذى يرجع إلى المجال الذى يتعرض له المتكلم . فإذا جئنا إلى العامل الثانى وهو صدق المتكلم مع نفسه ، أو كذبه عليها ، وجدنا كلامه يتأثر علوا وانحطاطا تبعا لذلك

لأن الكلام يدل على منزلة متكلمه ، وينبه على سمو محله ، أو انحطاطه ، فشعر الغزل مثلا إن صدر عن محب بدت رقته ، وظهر جماله ، وبرق حسنه ، وبان صدق عاطفته ، أما إن صدر من متصنع فسيبدو عليه الجفاف ، ويذهب عنه ماء الحياة ، وكان كالعود

(١١) إعجاز القرآن للباقلانى : ٥٤ - ٥٦ باختصار .

الأخضر الذى جف ، وصار هشيما تذروه الرياح .

وكذلك شعر الحماسة ، إن صدر عن نفس شجاعة ، غير هيابة من الموت ، ولا جبان ، أو قد فى قلب من يسمعه غليانا ، وأجج فى عاطفته فورانا ، أما إن صدر من متصنع ، أو من جبان فإنه يبرز لنا مساويه ، ما يظن أنه يخفيه .

وفى الأدب العربى الكثير مما يشهد بذلك .

قارن مثلا بين شعر المتنبى والبحترى فى الشجاعة ، لا بد وأن تحكم للمتنبى ، لإحساسك بصدق عاطفته من ناحية ، ولما عرف عنه أنه من أهل الشجاعة أكثر من البحترى .

ولتأخذ مثلا قول المتنبى (١٢)

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقول البحترى : (١٣)

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفى ... بِعَقَرْقُسٍ والْمَشْرَفِيَّةُ شُهَّدِى

فالفرق بينهما واضح .

وكذلك تجد لابن المعتز فى الفخر مالا تجده لغيره ، والسبب فى ذلك صدق العاطفة أو كذبها ، وخروج الشىء من محله ، أو من غير محله .

يقول الباقلانى : « الشىء إذا صدر من أهله ، وبدا من أصله ، وانتسب إلى ذويه ، سلم فى نفسه ، وبانت فخامته ، وشوهد أثر الاستحقاق فيه ، وإذا صدر من متكلف ، وبدا من متصنع بان أثر الغربة عليه ، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه ، وعرف شمائل التحير منه »(١٤)

إذا علمنا تلك الحقيقة التى لا مراء فيها ، وعلمنا أن الله قد أحاط بكل شىء علما، وأحاط بالناس ونفوسها ، وباللغة وألفاظها ،وبالمعانى وضروبها ، أدركناأنه من الطبيعى أن نجد القرآن الذى تحدى الله به خلقه ، كل جملة منه ،

---

(١٢) ديوان المتنبى : ٤ /٨٥ ط دار الكتاب العربى تحقيق عبد الرحمن البرقوقى.

(١٣) ديوان البحترى : ١/ ٥٤٩ ط دار المعارف تحقيق حسن كامل الصيرفى .

(١٤) إعجاز القرآن للباقلانى : ٤٢٣ .

فى أى موضع ، وفى أى مجال ، قد تربعت على ذروة الفصاحة ، وامتلكت تاج البلاغة .

لذا وجدنا البلغاء يستعينون بجمل القرآن ، لوقوعها بين كلامهم موقع القمر بين النجوم ليلة البدر ، بل موقع الشمس بين هذه النجوم فى رائعة النهار ، فلا يرى الناس إلا إياها ، ولا يتأثرون إلا بها .

الخاصة الرابعة

إحكام سبك آيات وموضوعات القرآن

القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع ، للخلق كافة ، وللعصور عامة ، لذلك نراه قد تطرق إلى كل الموضوعات التى يتوقف عليها عزهم وسعادتهم فى الدنيا ، ونجاتهم وفوزهم فى الآخرة .

فاقتحم مجالات العقيدة والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والوعظ والقصص ، والوعد والوعيد ، والاحتجاج ، وغير ذلك ، وقد رأيناه فى الميدان الواحد يتحدث بضروب كثيرة ، من أفانين الكلام ، كما رأينا كثيرا من هذه المجالات تتداخل فى بعضها ، بما يقتضى - فى كلام الغير - تمام التفكك والانحلال.

ولكن القرآن رغم هذا كله نراه غاية فى التماسك والائتلاف ، بعيدا عن أدنى تفكك واختلاف ، تماسكا وائتلافا أشد وأعظم من تماسك وائتلاف مكونات الجسد الواحد ، من عظم ولحم وعصب وغيرها .

فمكونات الجملة الواحدة متناسقة غاية التناسق وأجزاء الآية متآلفة تمام التآلف ، وآيات السورة كلها مترابطة أفضل ما يكون الترابط ، وموضوعات كل سورة متناسبة أحكم ما يكون التناسب ، وكل سورة منه ماسكة بيد أختها بأقوى ما يكون التماسك، حتى ليبدو القرآن كله أعظم من سلسلة عظيمة من الذهب ، متعددة الحلقات ، كل حلقة منها نزلت منزلها اللائق بها ، فأوائلها وأواسطها وأواخرها كل قد علم مكانه ، وكل قد لبس هندامه ، فلا ترى حلقة قلقة فى مكانها ، أو غير منسجمة مع جيرانها ، وإنما ترى الانسجام فى غاية التمام ، والالتئام فى قمة الإحكام ، ولا غرو فهو كلام الله الذى أتقن كل

شىء .

إن البلغاء وحدهم هم الذين يقفون على تلك الخاصة القرآنية ، لما علموا من عجزهم عن تحقيقها فى كتاباتهم ، ولذلك تراهم يلجأون إلى وسائل خاصة للتغلب على هذا العجز ، من تقسيم المؤلف الواحد إلى عدة أبواب ، والباب إلى عدة فصول ، والفصل إلى عدة مباحث ، والمبحث إلى عدة مطالب ، والمطلب إلى عدة نقاط ، والنقطة إلى عدة أجزاء ، إلى غير ذلك من الأساليب المعروفة ، مثل : أما بعد ، و : إن قيل كذا قلنا كذا ، وإن اعترض بكذا أجيب بكذا وهكذا .

وللعلماء فى إبراز هذا التناسب بين آيات القرآن وسوره مؤلفات خاصة .

وعلى رأس من اهتموا بذلك الفخر الرازى ، وجلال الدين السيوطى ، والآلوسى ، والبقاعى .

ومن اطلع على تلك المؤلفات ، ووقف على وجوه المناسبات لم يستطع إلا أن يردد سبحان الذى أنزل على عبده هذا القرآن ولم يجعل له عوجا.

الخاصة الخامسة

القدرة الفائقة فى إيراد المراد بطرق شتى

فهو يصرف القول بأكثر من طريقة ، بما يمتلكه من خزائن المفردات والتراكيب ، ومن براعة فائقة ، وقدرة لا تجارى .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثالا بأربع مجالات :

١ - مجال القصة ٢- مجال طلب الفعل

٣ - مجال طلب ترك الفعل ٤ - مجال إباحة الفعل.

أولا : مجال القصة

فقد وجدنا ظاهرة التكرار واضحة فى كثير من قصصه ، ووجدنا القول فيها مصرفا بصور متعددة ، كقصة آدم ، ونوح ، وعاد ، وثمود وبنى إسرائيل فكم تفنن فيها القرآن وأبدع ، وصرف فيها ونوع ، وكلما قرأ المتدبر القصة فى موضع ، ثم قرأها بصورة أخرى فى موضع آخر شعر كأنه يقرؤها لأول مرة ،

ورغب فى قراءتها بكل صورها ، لما يلمس فى كل مرة ، من التركيز على معان معينة دعا إليها السياق ، الذى وردت فيه .

ونستطيع أن نرجع هذا التكرار إلى عدة أسباب من أهمها ما يأتى:

١ - المبالغة فى إثبات أن هذا القرآن من عند الله ، وتعجيز الخلق عن الإتيان بمثله .

ذلك لأنهم إن عجزوا عن الإتيان بماله وجه واحد ، فمن باب أولى سيعجزون عن الإتيان بمثل ماله عدة أوجه .

يقول الرافعى رحمه الله فى تعليله لظاهرة التكرار : « لأن المعنى الواحد يتردد فى أسلوبه بصورتين ، أو صور ، كل منها غير الأخرى ، وجها أو عبارة ، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ، ومستمرون على العجز ، لا يطيقون ولا ينطقون .

فهذا لعمرك أبلغ فى الإعجاز ، وأشد عليهم فى التحدى ، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسى ، الذى قد تمكن معه الاستطاعة ، أو تتهيأ المعاريض ، حينا بعد حين ، إلى العجز الفطرى ، الذى لا يتأول فيه المتأول ، ولا يعتذر منه المعتذرون ، ولا يجرى الأمر فيه على المسامحة . »(١٥)

٢ - ومن أسباب التكرار أيضا : إتيان الناس من طرق متعددة ، وبصور متنوعة ، لقطع أعذارهم .

لأن بعضهم قد يذعن من طريقة دون أخرى ، أو يفهم بصورة أفضل من غيرها ، فإذا صرف الله إليهم القول لم تبق لهم حجة يحتجون بها على من أنزل القرآن .

وتلك طريقة تربوية ، غاية فى الجودة ، تنبه لها خبراء التربية المحدثون ، ونبهوا إليها ، فالبعض قد يفلح فيه أسلوب الوعد ، والبعض لا يؤثر فيه إلا أسلوب التهديد ، والبعض يكتفى معه بمجرد الوعظ ، وهكذا .

وإلى هذه الحكمة يشير قوله تعالى: ﴿ **وصرفنا فيه من الوعيد**

---

(١٥) إعجاز القرآن للرافعى : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾(16)

ثانيا : مجال طلب الفعل

وفى هذا المجال أيضا وجدنا لأسلوب القرآن صورا كثيرة من التصريف فى القول ، وهو يطلب من المخاطبين طلب فعل من الأفعال ، ومن هذه الصور:

١ - التصريح بمادة الأمر كقوله تعالى : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾**(17)

٢ - التصريح بأن الفعل مكتوب على المخاطبين ، كقوله تعالى **﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾**(18)

٣ - الإخبار بكون الفعل على العباد ، كقوله تعالى : **﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾**(19) ، فتقدير الكلام : فمن كان منكم مريضا أو على سفر فأفطر فعليه عدة .

٤ - استعمال صيغة الأمر ، كقوله تعالى: **﴿ وآتو النساء صدقاتهن نحلة ﴾**(20)

٥ - استعمال صيغة الفرضية ، كقوله فى الصداق أيضا **﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم ﴾**(21)

٦ - ترتيب الفعل على شرط ، كقوله تعالى: **﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴾**(22)

٧ - ربط الجزاء الحسن بتنفيذ الفعل ، كقوله تعالى: **﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾**(23)

---

(١٦) طه : ١١٣ .

(١٧) النحل : ٩٠ .

(١٨) البقرة : ٢١٦ .

(١٩) البقرة : ١٨٤ .

(٢٠) النساء : ٤ .

(٢١) الأحزاب : ٥٠ .

(٢٢) النساء : ٩٢ .

(٢٣) النحل : ٩٧ .

٨ - ترتيب حكم شرعى شنيع على ترك الفعل بقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ (٢٤)

٩ - ترتيب الفتنة والفساد فى الأرض على ترك الفعل ، كقوله تعالى بعد أن أخبر عن ولاية الكافرين بعضهم لبعض : ﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** ﴾ (٢٥) ، فالمعنى إن تركتم موالاة المؤمنين وقعت الفتنة العظيمة فى الأرض ، وعمها الفساد الكبير . إلى غير ذلك من طرق طلب الفعل ، وهى كثيرة فى القرآن .

ثالثا : مجال طلب ترك الفعل.

وفى مجال النهى عن الفعل نرى صورا شتى كذلك ، منها :

١ - التعبير بلفظ النهى ، كقوله تعالى : ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم** ﴾(٢٦).

٢ - التعبير بلفظ التحريم ، كقوله تعالى: ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾(٢٧)

٣ - استعمال «لا» الناهية ، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تشركوا به شيئا** ﴾(٢٨)

٤ - ترتيب العقاب على الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ (٢٩)

٥ - ذكر الفعل مقترنا بالوعيد ، كقوله تعالى : ﴿ **والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا** ﴾(٣٠)

---

(٢٤) المائدة : ٤٤ .
(٢٥) الأنفال : ٧٣ .
(٢٦) الممتحنة : ٩ .
(٢٧) الأنعام : ١٥١ .
(٢٨) النساء : ٣٦ .
(٢٩) الزمر : ٦٥ .
(٣٠) الزمر : ٥١ .

٦ - وصف الفعل بالشرية ، كقوله تعالى: ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم** ﴾[٣١]

٧ - نفى الحل عن الفعل ، كقوله تعالى: ﴿ **لا يحل لك النساء** ﴾[٣٢] ، وكقوله : ﴿ **لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها** ﴾[٣٣]

٨ - نفى البر عن الفعل ، كقوله تعالى ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾[٣٤]

٩ - تأثيم الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ **فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه** ﴾[٣٥] إلى غير ذلك من صور طلب ترك الفعل .

رابعا : مجال إباحة الفعل

وفى هذا المجال أيضا تتعدد صور الأسلوب القرآنى ، فى الدلالة على إباحة فعل من الأفعال ، ومن هذه الصور ما يأتى :

١ - التصريح بلفظ الحل ، كقوله تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾[٣٦]

٢ - إنكار تحريمه بأسلوب استفهامى إنكارى ، كقوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾[٣٧]

٣ - الأمر بالفعل مع قرينة تصرفه عن الوجوب ، كقوله تعالى ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض** ﴾[٣٨]

٤ - وصف الشىء بالحسن ، كقوله تعالى : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا** ﴾[٣٩]

---

(٣١) آل عمران : ١٨٠ .
(٣٢) الأحزاب : ٥٢ .
(٣٣) النساء : ١٩ .
(٣٤) ، (٣٥) ، (٣٦) البقرة الآيات : ١٨٩ ، ١٨١ ، ١٨٧ .
(٣٧) الأعراف : ٣٢ .
(٣٨) الجمعة : ١٠ .
(٣٩) النحل : ٦٧ .

٥ - نفى الإثم عن الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ﴾[٤٠]

٦ - نفى الحرج ، كقوله تعالى: ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾[٤١] ، فقد وردت فى موضعين ، الأول فى سورة النور ، فى خلال الإذن بالأكل من بيوت من خرجوا للجهاد وتركوا مفاتيح بيوتهم عندهم ، آذنين لهم بالأكل ، ولكنهم كانوا يتحرجون ، أما الموضع الثانى فقد ورد فى سورة الفتح ، عقب وعيد من تخلف عن القتال.

إلى غير ذلك من الصور المتعددة للدلالة على إباحة الفعل .

وهكذا نرى الأسلوب القرآنى قد جاوز حد الروعة إلى حد الإعجاز فى التفنن فى إيراد المعنى الواحد ، بضروب مختلفة من الصور ، وبألفاظ شتى ، ليجعل القارى كالجالس على مائدة ، عليها أنواع شتى من الأطعمة ، يتحير فى التخير ، كلما ذاق شيئا انتشى منه ، فإذا انتقل إلى آخر زادت نشوته ، وهكذا لا يمل من طعام ، مادام عنده القدرة .

وإذا كان ذلك تقدير العزيز العليم ، فإنما فعله ليهدى به كثيرا ويقطع الأعذار عن كثير ، حتى لا يقولوا لولا فصلت آياته ، فقد فصلها الله ، وقد ضرب الأمثال ، وصرف الأقوال ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

---

(٤٠) البقرة : ١٧٣ .

(٤١) النور : ٦١ ، والفتح : ١٧ .

الخاصة السادسة

جمع الأسلوب القرآنى بين الإجمال والبيان

وتلك سمة خاصة بالأسلوب القرآنى دون غيره من أساليب البشر، لأن كلامهم لا يخلو من أحد أمرين، إما أن يحددوا فيه مقصودهم وإما أن لا يحددوا، والأول لايتسع فيه المجال للتأويل، والثانى يعتبر ضربا من التلبيس، أما أن يجتمع لأحدهم السمتان معافى وقت واحد، وفى كل كلام، فذاك ما هو فوق طاقة البشر، أما القرآن الكريم فتجد فيه تلك السمتين المتناقضتين قد اتحدتا وكونتا سمة واحدة من سماته الرائعة.

وهذا هو السبب فى تعدد أقوال المفسرين فى العبارة الواحدة، حتى رأينا القرآن بحرا بل محيطا لا ساحل له، يمتد إلى ما بعد نهاية الدنيا، كل يأخذ منه بقدر ماهيىء للأخذ.

إذ نرى فى الجملة الواحده فى كثير من الأمور وجوها متعددة، وكلها صحيحة أو محتمله للصحة.

ولقد كانت هذه السمة القرآنية فرصة للفرق الإسلامية التى ظهرت على الساحة، بعد مقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه، من خوارج وشيعة ومعتزلة، ومرجئة. وغيرها، حتى تلك الفرق الحديثة، كالبابية والبهائية، لترويج مبادئهم ففسروا القرآن بما يخدم هذه المبادىء، أو على الأقل بما لا يتعارض معها، وليس معنى هذا أن كل ما يقال فى الجملة الواحدة من أى عالم، أو من أى فرقة يعتبر صحيحا، كلا، ولكن المراد أن العبارة فيها من المعانى ما هو أكثر مما يرى فيها من أول وهلة، وكتب التفاسير مكتظة بالأمثلة التى لا تعد ولا تحصى، والتى ربما لا تخلو آية قرآنية واحدة من هذه السمة.

ولنضرب لذلك مثلا، بتذييل آية فقط، وهى قوله تعالى ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٤٢)

---

(٤٢) البقرة : ٢١٢.

فعنها يقول الشيخ دراز رحمه الله :

« انظر هل ترى كلاما أبين من هذا فى عقول الناس ، ثم انظركم فى هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لوقلت فى معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ، ولا سائل يسأله ، لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء أصبت ، ولو قلت إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الانفاق خوف النفاد أصبت ، ولو قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لاينتظر ولا يحتسب أصبت ، ولو قلت إنه يرزقه بغير معاتبة ، ومناقشة له على عمله أصبت ، ولو قلت يرزقه رزقا كثيرا لا يدخل تحت حصر وحساب ، أصبت .

فعلى الأول : يكون الكلام تقريرا لقاعدة الأرزاق فى الدنيا ، وأن نظامها لا يجرى على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقا لمشيئته وحكمته سبحانه فى الابتلاء ، وفى ذلك ما فيه من التسلية ، لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين ، من المترفين .

وعلى الثانى يكون تنبيها على سعة خزائنه ، وبسطة يده جل شأنه

وعلى الثالث يكون تلويحا للمؤمنين ، بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر ، حتى يبدل عسرهم غنى ، من حيث لا يظنون .

وعلى الرابع والخامس يكون وعدا للصالحين . إما بدخولهم الجنة بغير حساب وإما بمضاعفة أجورهم ، أضعافا كثيرة لا يحصيرها العد »(٤٣)

وما أروع تشبيه دراز رحمه الله للجملة القرآنية الواحدة ، أو الكلمة الواحدة التى تحمل وجوها متعددة ، حينما قال:

« كأنما هى فص من الماس ، يعطيك كل ضلع منه شعاعا ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك ، رأى أكثر مما رأيت »(٤٤)

---

(٤٣) النبأ العظيم : ١١١ .

(٤٤) النبأ العظيم : ١١١ .

الخاصة السابعة

خطاب الكافة فى كل العصور

المخاطب إما عالم وإما جاهل ، وإما ذكى وإما غبى ، وعلى حسب حاله يكون خطابه ، فإن كان عالما أو ذكيا اكتفى بما قد يصل إلى حد الإشارة ، وإن كان جاهلا أو غبيا ، تنزل معه بالخطاب بما قد يصل إلى مستوى الأطفال ، فلكل عقل مقياس ، وعلى قالبه يكون المقال .

فالبليغ إذًا يفرد للعالم خطابا ، كما يفرد للجاهل خطابا ، ويسلك مع الأول سلوكا غير سلوكه مع الثانى ، وإلا لما أرضى الأول ولما أفاد الثانى.

ولكن الأسلوب القرآنى كان غير هذا تماما ، إذ أنه بالعبارة الواحدة يخاطب الجاهل والعالم معا، ويرضى بها الذكى ويفيد بها الغبى فى وقت واحد ، كل منهما يأخذ منها على قدر علمه وذكائه ، وعلى حسب تَهَيُّئِه وصفائه ، ولن يخرج منها صفر اليدين .

ولنضرب لذلك مثلا ، فكما قالوا : بالمثال يتضح المقال.

قال تعالى : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾(٤٥)

فهذه الآية (٤٦) تصف كلا من الشمس والقمر بمعنيين ، لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم ، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء ، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون .

والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاثة للمعنى ، فتعطى كلا حسب طاقته وفهمه .

فالعامى من العرب يفهم منها : أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض ، وإنما غاير فى التعبير بالنسبة لكل منهما ، تنويعا للفظ ، وهو معنى

---

(٤٥) الفرقان : ٦١ .

(٤٦) اقتبسنا الفهم العلمى الحديث لهذه الآية بما جاء فى إعجاز القرآن للرافعى ٢٧٤ وبما جاء فى روائع القرآن للدكتور / محمد سعيد رمضان البوطى : ١٣٧ .

صحيح تدل عليه الآية.

والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة ، فلذلك سماها سراجا، والقمر يبعث بضياء لا حرارة ، وهو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة .

أما الباحث المتخصص فى شئون الفلك ، فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم ، وإنما يضىء بما ينعكس عليه ، من ضياء الشمس ، التى شبهها بالسراج ، بالنسبة له ، وهو أيضا معنى صحيح تدل الآية عليه ، بلغتها وصياغتها ، فأنت تقول غرفة منيرة ، إذا انعكس عليها الضوء من سراج فى وسطها ، فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة ، ولكنها بأسلوبها العجيب لا تخاطب الناس إلا بما يدركونها منها ، كُلٌّ حسب استعداده وطاقته الفكرية ، وبذلك تكون الآية خطابا مفيدا لأضراب الناس كلهم .

إن بين الآية وبين كلام البشر فرقا كالفرق بين رسول يبلغ عن ربه وبين مدرس جغرافيا فى مرحلة الابتدائية .

ويدخل تحت هذه الخاصة أيضا ، تلك الآيات التى تتحدث عن معان لها علاقة بتطور الحياة ، وامتداد الزمن .

كقوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ (٤٧)

فإن صدر الأمة الإسلامية كان يفهم منها أن الله يمتن على عباده بما تحت أبصارهم ، من وسائل مواصلات ، سخرها لهم ، من الخيل والبغال والحمير ، فإذا ما قرأوا قوله تعالى : ﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ اختلفت عقولهم فى تحديد المراد منها ، وإن كان ماقالوه صوابا ، أو محتملا للصواب .

ولكن إنسان القرن العشرين وما بعده ، حينما يرى وسائل المواصلات الحديثة ، برا وبحرا وجوا ، والتى لم يرها الأوائل ، بل لم تخطر على قلب بشر منهم ، ويقرأ هذه الآية ، استطاع فهمها بكل يسر .

---

(٤٧) النحل : ٨ .

يخاطب هذا الأسلوب القرآنى بخطابه جميع المستويات الفكرية بنص واحد ، وكل منهم يأخذ بقدر طاقته . وإلى هذه الخاصة يشير قوله تعالى :
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ (٤٨)

الخاصية الثامنة

كونه أسلوبا علميا أدبيا فى آن واحد

تعارف العلماء والأدباء على أن الأساليب تنقسم إلى نوعين لا ثالث لهما ، أسلوب علمى ، وأسلوب أدبى ؛ لأن الكلام إما أن يكون نتيجة تفكير من العقل ، وإما أن يكون ثمرة للعاطفة ، وللأول رواده ، وللثانى طلابه ، فرواد العلم والحقائق لا يعجبهم أسلوب العاطفة ، وجمل التشبيه وأسلوب الخيال ، كذلك رواد الأدب لا يشبع نهمهم ذلك الأسلوب الجاف ، العارى مما يهز العاطفة ويحرك الوجدان .

وعلى ذلك فأسلوب الكاتب العلمى أسلوب جاف ، لأن هدفه إقناع العقل فقط ، أما الكاتب الأديب فأسلوبه وجدانى عاطفى ، لأن غايته إمتاع العاطفة ، ولو على حساب الحقائق أو قلب الأمور . ولو حاول أحد الكاتبين الجمع بين الأسلوبين جاء كلامه كالثوب المرقع ، الذى يشين لابسه ، ويؤذى عين الناظر .

فالأسلم لكل منهما الاقتصار على أحد الأسلوبين ، وهو باقتصاره هذا بقدر ما يقترب من أحدهما بقدر ما يبعد عن الآخر ، كالواقف بين بلدين ، أو كالزوج بين الضرتين .

والسبب فى ذلك : أن فى الإنسان قوتين : قوة تفكير ، وقوة عاطفة ، وتلك القوتان لا يعمل بهما الإنسان فى وقت واحد بنسبة واحدة ، فإذا اشتغل فى تفكيره تناقصت قوة عاطفته ، وربما تلاشت ، وإذا وقع تحت تأثير عاطفته — سرورا أو حزنا — ضعف تفكيره ، وربما تلاشى .

وتلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله

(٤٨) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

تحويلا ، وصدق من قال ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾ (٤٩)

وها هى كتب العلم والأدب تملأ خزائن المكتبات ، ترينا أن الكاتب إذا إتجه إلى تقرير حقيقة علمية ، طرح خلف ظهره ما به يحرك العاطفة ويمتعها ، وإذا اتجه إلى ميدان الأدب نبذ وراءه ظهريا العدل فى القول ، والقسط فى الحكم ، وجار وحاف ، وكأنه يتحدث عن شىء وهمى ، لا وجود له فى دنيا الواقع ، فى كثير من الأحوال .

فأما أسلوب القرآن ، فالأمر فيه بخلاف ذلك على الإطلاق ، إذ أنه كلام الذى لا يشغله شأن عن شأن ، كلام الذى خلق الإنسان وسواه ، وعلم ما به صلاحه وهداه ، وما به فى وقت واحد يؤثر فى عاطفته وقواه .

فكما خلق الله الإنسان من جسد وروح ، وعلم كيف يغذيهما ، خلق العقل والعاطفة ، وعلم كيف يقنع الأول ، ويمتع الثانية فى آن واحد ...

ولنضرب لذلك مثلا من بين مئات الأمثلة فى القرآن الكريم .

يقول تعالى فى سورة الروم : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ (٥٠) .

إن هذه الآيات تتحدث عن وجود الله ووحدانيته ، وقدرته التى لا حدود

---

(٤٩) الأحزاب : ٤ .

(٥٠) الروم : ١٩ - ٢٠ .

لها ، وهى فى هذا الحديث تتناول عدة أدلة علمية ، مؤسسة على أحدث ما وصل إليه العلم البشرى ، بل بما لم يصل إليه ، وقد جاءت هذه الأدلة العلمية بهذا الأسلوب الأدبى المعجز الرائع ، بما يقنع عقول العلماء ، ويمتع عاطفة الأدباء ، ويسجد له كل فكر ، ويخضع له كل أدب ، وهذا مثال واحد ، والقرآن الكريم ملىء بالآيات العلمية والتشريعية وغيرها ، بما يقنع العقل ، ويمتع العاطفة فى وقت واحد .

ماالذى ميز الأسلوب القرآنى بهذه الخصائص ؟

وقد يسأل سائل عن السر الذى جعل الأسلوب القرآنى متميزا عن غيره من الأساليب ، بهذه الخصائص السابقة وغيرها ، فنقول له ، مرجع ذلك إلى عدة أسباب ، منها :

١ – أن الله عز وجل اقتضت حكمته أن تكون معجزة نبيه ﷺ الخالدة هى القرآن ، فضمنه خصائص يعجز البشر عنها ، وإلا فما كانت معجزة .

٢ – أن البشر مجبولون على الجهل والنسيان والذهول ، فما يتوصل إليه كاتب قد لا يتوصل إليه غيره ، وما يهتدى إليه متكلم قد يضل عنه آخر ، وما ينتبه له أديب قد يغفل عنه ثان ، بل إن ما يجيده الإنسان فى موضع ما قد يصل إلى حد الرداءة فيه فيما سواه ، لسبب قد اعتراه .

أما الله عز وجل فهو الذى خلق النفوس وسواها ، ويعلم من زكاها ومن دساها، وأحاط علما بالقلوب وأحوالها ، وبالنفوس وظروفها ، وباللغة وتراكيبها ، فكان هو وحده القادر على تضمين كلامه من أنواع البيان ، ما يناسب كل حال ، ويلائم كل مجال ،ويساير كل إنسان .

٣ – ثبت من الدراسات الطبية والنفسية أن تركيب الكلام تابع لمزاج الإنسان ، وحالته النفسية ، فالإنسان العصبى له تركيب كلامى خاص ، والإنسان الهادىء له تركيب كلامى مميز ، وهكذا سائر

الكتاب ، حسب أمزجتهم وأحوالهم النفسية ، وظروفهم البيئية . فلو طلبنا من عصبى أن يتبع فى كتابته أسلوبا غير أسلوبه ، فإنه لن يفلح فى ذلك ، ولو خرج له كلام بقصده هذا لجاء غاية فى التكلف والتعسف ، والاضطراب والتعثر ، ولجاء نوعا بين النوعين ، فلا أسلوبه الخاص احتفظ به ، ولا أسلوب من قلده وصل إليه ، بل إلى الرداءة وصل ، وإلى الإسفاف انتهى .

إذا علم ذلك ، من أن تركيب الكلام تابع لمزاج الإنسان وحالاته النفسية ، وعلم أن الله عز وجل منزه عما يعترى البشر من فساد الأمزجة ، وتغير النفوس ، وتقلب القلوب ، واضطراب الأحوال . وعلم أن الله أحاط علما باللغة ومدلولاتها ، والألفاظ واستعمالاتها ، والنفوس وأحوالها ، والقلوب وما يؤثر فى جنباتها ، أدركنا كيف أن الأسلوب القرآنى تضمن خصائص ، جعلته مغايرا لكل أساليب العرب ، إلى أن وصل إلى حد إعجازهم ، واعتقلهم عن معارضته ، ويأسهم فى الطمع فيها ، حتى جعل لغتهم كأنها ليست لغتهم ، وطباعهم كأنها ليست طباعهم .

وشهد أعداء القرآن بإعجازه البيانى

وإذا كان بلغاء العرب ممن آمنو بالقرآن ، أو ممّن كفروا به قد اعترفوا له بارتقائه سماء الفصاحة ، وتربعه على عرش البلاغة ، وهم أهل الصنعة وشيوخها ، فليس بغريب أن يعترف له بتلك المكانة ، الكثير من علماء العجم ، ولكن ذلك الاعتراف تأتى قيمته من صدوره من قوم يكنون - أو كانوا يكنون له - عداء شديدا بالإضافة إلى مكانتهم العلمية الفائقة .. ، والحق ما شهد به الأعداء لا سيما إن كانوا علماء .

ونحن فى هذا المقام لا يعدو دورنا إيراد نماذج من شهاداتهم ، وندع التعليق للقارىء ، وإن كانت تلك النماذج لا تحتاج إلى تعليق ...

١ - **يقول المستشرق البريطانى الكبير الشهير « توماس أرنولد »** فى كتابه الشهير « الدعوة إلى الإسلام »

« إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل « الفار » الأسبانى ، الذى عرف بتعصبه على الإسلام ، يقرر أن القرآن قد صيغ فى مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل ، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به »(١)

٢ - **ويقول الدكتور الفرنسى « بلاشير »** فى كتابه : « تاريخ الأدب العربى » :

« لا جرم فى أنه إذا كان ثمة شىء تعجز الترجمة عن أدائه ، فإنما هو الإعجاز البيانى واللفظى ، والجرس الإيقاعى فى الآيات المنزلة فى ذلك العهد .

إن خصوم محمد قد أخطأوا عندما لم يشاءوا أن يروا فى هذا إلا أغانى سحرية وتعويذية ، وبالرغم من أننا على علم - استقرائيا فقط - بتنبؤات الكهان ، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطأ هذا الحكم وتهافته ، فإن للآيات التى أعاد الرسول ذكرها فى هذه

---

(١) الكتاب المذكور : ١٦٢ ، كما جاء فى : « قالوا عن الإسلام » : ٥٠ .

السور ، اندفاعا وألقا وجلالة ، تخلف وراءها بعيدا أقوال فصحاء البشر ، كما يمكن استحضارها ، من خلال النصوص الموضوعة ، التى وصلتنا » (٢)

ويقول أيضا :

« إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط ، إنه أيضا - ويمكنه أن يكون قبل أى شيء آخر - تحفة أدبية رائعة ، تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية ، وبجلته من التحف .

إن الخليفة عمر بن الخطاب ، المعارض الفظ ، فى البداية ، للدين الجديد ، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين ، عقب سماعه لمقطع من القرآن ، وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهى بالنص القرآنى ، بعد أن رتله المؤمنون » (٣)

٣ - **ويقول المفكر والقانونى الفرنسى « مارسيل بوازار »** فى كتابه **إنسانية الإسلام** : « ما زال القرآن حتى أيامنا هذه نموذجا رفيعا للأدب العربى ، تستحيل محاكاته ، إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبى الأمثل وحسب ، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربى والإسلامى ، الذى أبدعه ، لأن الدين الذى أوحى به هو فى الأساس عدد كبير ، من المناهج الفكرية ، التى سوف يشتهر بها الكتاب . » (٤)

٤ - **ويقول « فيليب حتى » الأمريكى الجنسية ، اللبنانى الأصل** ، فى كتابه « الإسلام منهج حياة » :

« إن الأسلوب القرآنى مختلف عن غيره ، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر ، ولا يمكن أن يقلد ، وهذا فى أساسه هو إعجاز القرآن ، فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى » (٥)

ويقول أيضا : « إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهرا

---

(٢) تاريخ الأدب العربى : ٢ / ٢٢ ، كما فى « قالوا عن الإسلام » : ٥٢ .

(٣) قالوا عن الإسلام : ٥٢ .

(٤) إنسانية الإسلام : ٥٣ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٥٤ .

(٥) الإسلام منهج حياة : ٦٢ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٥٨ .

على الأدب العربى ، أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التى نقلت فى عهد الملك « جيمس » من التوراة والإنجيل ، وجدنا أن الأثر الذى تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل ، بالإضافة إلى الأثر الذى تركه القرآن على اللغة العربية ، إن القرآن هو الذى حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات » [٦]

٥ – **ويقول الدكتور « جورج حنا » اللبنانى** ، فى كتابه المعروف « قصة الإنسان » :

« إنه لا بد من الإقرار بأن القرآن ، فضلا عن كونه كتاب دين وتشريع ، فهو أيضا كتاب لغة عربية فصحى ، وللغة القرآن الفضل الكبير فى ازدهار اللغة ، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة ، فى بلاغة الكلمة وبيانها ، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين ، أم مسيحيين ، وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هى نتيجة محتومة لكون القرآن منزلا ولاتحتمل التخطئة ، فالمسيحيون أيضا بهذه الصوابية ، بقطع النظر عن كونه منزلا ، أو موضوعا ، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة ، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة »[٧]

٦ – **ويقول المستشرق الفرنسى « إميل درمنغم »** ، فى كتابه « حياة محمد » :

« كان محمد يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحى ، وكان مبلغ حرصه أن يكون أمينا مصغيا ، أو سجلا صادقا ، أو حاكيا معصوما ، لما يسمعه من كلام الظل الساطع ، والصوت الصامت ، للكلام القديم على شكل دنيوى ، لكلام الله الذى هو أم الكتاب ، للكلام الذى تحفظه ملائكة كرام فى السماء السابعة ، ولا بد لكل نبى من دليل على رسالته ، ولا بد له من معجزة يتحدى بها ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة [٨] ، فأسلوبه المعجز ، وقوة أبحاثه لا تزال إلى يومنا يثيران

---

(٦) الإسلام منهج حياة : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٥٨ .
(٧) قصة الإنسان : ٧٩ ، ٨٠ كما فى قالوا عن الإسلام : ٥٨ ، ٥٩ .
(٨) أى الباقية أمام الناس ، فمعجزاته الحسية كانت مرتبطة بوجوده .

ساكن من يتلونه ، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين ، وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدى أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته .

ولا ريب أن فى كل آية منه - ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياة الخاصة - تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية ، ولا ريب فى أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سر نفوذه وعظيم نجاحه »(٩)

٧ - ويقول الفرنسى المعاصر : « **جاك ريسلر** » فى كتابه « الحضارة العربية » :

« كان فى القرآن فوق أنه كتابى دينى خلاصة جميع المعارف ، وظل زمنا طويلا أول كتاب يتخذ للقراءة ، إلى الوقت الذى شكل فيه وحدة كتاب المعرفة والتربية ، ولا يزال حتى اليوم النص الذى تقوم عليه أسس التعليم فى الجامعات الإسلامية ، ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية ، إذ يذبل جمال اللغة فى الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها ، ولذلك يجب أن يقرأ القرآن فى نصه الأصلى »(١٠)

٨ - ويقول النصرانى اللبنانى « **نصرى سلهب** » فى كتابه « لقاء المسيحية والإسلام» :

« تلك اللغة التى أرادها الله قمة اللغات ، كان القرآن قمتها ، فهو قمة القمم ، ذلك بأنه كلام الله »(١١)

٩ - ويقول المستشرق الفرنسى « **لويس سيديو** » ، فى كتابه « تاريخ العرب العام »

« صلح القرآن ليكون نموذجا للأسلوب وقواعد النحو ، فأوجب ذلك نشوء علم اللغة ، فظهور علم البيان الذى درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع ، وأوجه البلاغة ، وأضحى لصناعة قراءة

---

(٩) حياة محمد : ١٣١ ، ١٣٢ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٦٠ ، ٦١ .

(١٠) الحضارة العربية : ٣٠ ، ٣١ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٦٦ .

(١١) لقاء الميحية والإسلام : ٢٢ كما فى قالوا عن الإسلام : ٧٠ .

القرآن وتفسيره ، أكثر من مائة فرع ، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف فى كل منها ، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة ، بعيدة من الفساد ، بمخالطة اللغات الأخرى »(١٢)

١٠ - **ويقول المستشرق الفرنسى « هنرى سيرويا »** فى كتابه « فلسفة الفكر الإسلامى »:

« القرآن من الله بأسلوب سام رفيع ، لا يدانيه أسلوب البشر ، وهو فى الوقت عينه ثورة عقدية ، هذه الثورة العقدية لا تعترف لا بالبابا ولا أى مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة ، حيث لم يشعر الإسلام يوما بالخشية والهلع ، من قيام مبدأ التحكيم العقلى الفلسفى »(١٣)

١١ - **وتقول الايطالية المعاصرة « لورا فيشيا فاغليرى »** فى كتابها « دفاع عن الإسلام »:

« إن معجزة الإسلام العظمى هى القرآن ، الذى تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة ، من خلاله ، أنباء تتصف بيقين مطلق ، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته ، إن كلا من تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب ، ليس بالطويل أكثر مما ينبغى ، وليس بالقصير أكثر مما ينبغى .

أما أسلوبه فأصل فريد ، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب فى الأدب العربى ، تحدد إلينا من العصور التى سبقته .

والأثر الذى يحدثه فى النفس البشرية إنما من غير أيما عون عرضى أو إضافى ، من خلال سموه السليقى ، إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة ، حتى عندما تعالج موضوعات لا بد أن تؤثر فى نفسها وجرسها ، كموضوع الوصايا والنواهى وما إليها .

إنه يكرر قصص الأنبياء ، وأوصاف بدء العالم ونهايته ، وصفات الله وتفسيرها ، ولكن يكررها على نحو مثير ، إلى درجة لا تضعف من

---

(١٢) تاريخ العرب العام : ٩٨ - ١٠٠ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٧٢ ، ٧٣ .

(١٣) فلسفة الفكر الإسلامى : ٣٢ ، ٣٣ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٧٣ ، ٧٤ .

أثرها ، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع ، من غير أن يفقد قوته . إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معا ، وهما صفتان لا تجتمعان - عادة - حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقا كاملا ، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ، وهو العربى الأمى ، الذى لم ينظم طوال حياته غير بيتين ، أو ثلاثة أبيات (١٤) لا ينم أى منها عن أدنى موهبة شعرية »(١٥)

١٢ - **ويقول الدكتور « سدنى فيشر »** ، أستاذ التاريخ فى جامعة أوهايد الأمريكية ، فى كتابه : « الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى » : « إن القرآن كلام الله ، يشد فؤاد المسلم ، وتزداد روعته ، حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن ، واعتمادًا على أثره البليغ فى قلوب قرائه وسامعيه ، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع » (١٦)

١٣ - **ويقول إمام المستشرقين الإنجليز المعاصرين « سير هاملتون الكساندر روسكين جب »** فى كتابه : « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » :

« إننا نخطى خطأ فاحشا ، إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتى ، أتقن بشكل وراثى من جيل إلى جيل ، منذ ألف وثلاثمائة سنة .

إنها على العكس من ذلك ، يقين وإيمان حى يتجدد ويتأكد باستمرار فى قلوب المسلمين ، وأرواحهم وأفكارهم ، ولدى العربى بشكل خاص ، حين يدرس النص المقدس .

لقد عارض المذهب السنى المتمسك بشكل عام ، ترجمة القرآن إلى

---

(١٤) حتى هذه الأبيات المتفرقة النادرة ، لم تخرج من فمه إلا عفوا ، دون إرادة نظم الشعر ، وهذا لا يعد فى عرف العلماء شعرا ، ولا يعد صاحبه شاعرا .

(١٥) دفاع عن الإسلام : ٥٦ ، ٥٧ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٧٥ .

(١٦) الشرق الأوسط فى العصر الإسلامى ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٧٨ .

اللغات الإسلامية الأخرى ، على الرغم من أن النص العربى يظهر فى بعض الأحيان مقترنا بترجمة تركية أو فارسية أو أوردية ، وغيرها من اللغات .

إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة ، تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلانى ، مستندة فى ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلانى .

والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسى كما هو الحال بالنسبة للشعر الرفيع ، اذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله ، لأن كل عطف أو مجاز ، أو براعة لغوية ، يجب أن تدرس طويلا ، قبل أن ينبثق المعنى للقارىء .

والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ، ونظم بديع مرتب ، لا يمكن تحديده ، لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص ، الذى يصغى إلى القرآن ، لتلقى تعاليمه .

ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ، ويحول الذهب النقى إلى فخار »(١٧)

١٤ – ويقول « **روم لاندو** » **النحات والناقد الإنجليزى** ، فى كتابه « الإسلام والعرب » :

« إن بين آيات قصار السور ترابطا باهرا ، له تأثيره الوجدانى ، برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامى ، وفى الحق أن سماع السور تتلى فى الأصل العربى كثيرا ما يخلف فى نفس المرء تأثيرا بليغا ، لقد أريد بالقرآن أن يتلى فى صوت جهير ، ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلا ، لكى يحكم عليه حكما عادلا ، ويقدره حق قدره ، وبوصفه كلمة الله الحقيقية ، كان معجزا لا سبيل إلى محاكاته ، ولم يكن ثمة ، بكل بساطة ، أيما شىء من مثله »(١٨)

---

(١٧) الاتجاهات الحديثة فى الإسلام : ٣٠ ، ٣١ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٨٠ ، ٨١ .

(١٨) الإسلام والعرب : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٨٦ .

١٥ - وتقول الإنجليزية « اللادى ايفلين كوبولد » والتى اعتنقت الإسلام، وألَّفتْ فيه كتابا أسمته « البحث عن الله » ، تقول فيه:

« الواقع أن جمل القرآن ، وبديع أسلوبه ، أمْر لا يستطيع له القلم وصفا ولا تعريفا ، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته ، وما ينعم به من موسيقى لفظية ، لست تجدها فى غيره من «الكتب» ثم تقول : « ولعل ما كتبه المستشرق « جوهونسن » بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأى مثقفى الفرنجة ، وكبار مفكريهم ، قال : « إذا لم يكن شعرا ، وهو أمر مشكوك به ، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره ، فإنه فى الواقع أعظم من الشعر ، وهو إلى ذلك ليس تاريخا ولا وصفا ، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ، ولا هو يشابه كتاب البوذيين فى شىء قليل أو كثير ، ولا خطبا فلسفية ، كمحاورات أفلاطون ، ولكنه صوت النبوة ، يخرج من القلوب السامية ، وإن كان عالميا فى جملته ، بعيد المعنى فى مختلف سوره وآياته ، حتى أنه يردد فى كل الأصقاع ، ويرتل فى كل بلد تشرق عليه الشمس »(١٩)

١٦ - كما تقول « كوبولد » أيضا :

« أشار الدكتور « ماردريل » المستشرق الفرنسى ، الذى كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن ، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ، ليست توجد فى كتاب غيره وسواه ، فقال :

« أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا ، ذلك أن الأسلوب الذى ينطوى عليه كنه الكائن الذى صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيا ، والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره ، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذى جعل أجانب الميشرين يعترفون بالإجماع ، بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة

---

(١٩) البحث عن الله : ١١١ ، ١١٢ ، كمت فى قالوا عن الإسلام : ٨٢ .

محققة ، ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن .

ذلك أن هذا الأسلوب الذى يفيض جزالة فى اتساق منسق متجانس كان لفعله الأثر العميق فى نفس كل سامع يفقه اللغة العربية ، لذلك كان من الجهد الضائع الذى لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذى لم يسمع بمثله بلغة أخرى »(٢٠)

وتقول «كوبولد » أيضا :

« الواقع أن للقرآن أسلوبا عجيبا يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر ، فحسن تأليفه ، والتئام كلماته ، ووجوه إيجازه ، وجودة مقاطعه . وحسن تدليله ، وانسجام قصصه ، وبديع أمثاله ، كل هذا وغيره جعله فى أعلى درجات البلاغة ، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة ، لا يمل قارئه ، ولا يخلق بترديده ، قد امتاز بسهولة ألفاظه ، حتى قل أن تجد فيها غريبا ، وهى مع سهولتها جزلة عذبة ، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة ، لا تحس فيها لفظا نابيا عن أخيه ، فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه» (٢١)

(٢٠) المصدران السابقان .

(٢١) البحث عن الله : ١١٣ ، كما فى قالوا عن الإسلام : ٨٢ ، ٨٣ .

الفصل الثانى

الوجه الثانى من وجوه الإعجاز

الإعجاز النفسى

الإعجاز النفسى

ومن وجوه إعجاز القرآن ، الإعجاز النفسى:

والمقصود منه أن القرآن يؤثر فى نفوس سامعيه - من آمن به أو لم يؤمن - تأثيرا خارقا للعادة ، خارجا عما ألفه الناس ، سواء أكان كلاما إلهيا ، أم كلاما بشريا ، دون أن يصحب هذا التأثير عوامل ترهيب ، أو وسائل ترغيب .

وهذا الوجه وإن أحس به العلماء وأدركوه ، إلا أننا لم نر إلا النادر منهم التفت إليه بالكتابة باعتباره وجها مستقلا من وجوه الإعجاز ، كأبى سليمان الخطابى ، الذى أشار إليه فى أسطر قليلة ، حيث قال :

« قلت فى إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم .

وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن ، منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة ، والحلاوة ، فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه ، عادت مرتاعة ، قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها ، وعقائدها الراسخة فيها . »(١)

وقد عاب الرافعى رحمه الله على الأولين عفا الله عنهم قصورهم فى الحديث عن هذا الوجه ، واعتذر لهم بسبب طبائع أزمانهم ، حيث يقول :

« لم يقصر علماؤنا رحمهم الله فى شىء من هذا الذى وضعوه ، إلا ما يكون من فلسفة البلاغة وأسرارها النفسية ، فليس لهم فى هذا الباب إلا ما لا يعد ، على أن طبائع أزمانهم تسوغ لهم أكبر العذر فى إغفاله ، وما هو بأول شىء مكن لهم الإهمال فيه ، ولعلنا إذا يسر الله ، وأمد بعونه ، وبلغت بنا الوسائل أن ننشط يوما لوضع كتاب فى بلاغة القرآن ، على ما هو فى القرآن

---

(١) بيان إعجاز القرآنى للخطابى : ٦٤ ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز .

نفسه ، لا ما هو فى كتب البلاغة ، والنية بذلك إن شاء الله معقودة ، والنفس عليه مطوية ، والظن فى عون الله يقين »[٢]

ولكن المنية وافته رحمه الله ، وبذلك فقدت المكتبة القرآنية كنزا ثمينا وركنا ركينا .

ارتباط الاعجاز النفسى بالإعجاز البلاغى

قلنا فى الحديث عن الإعجاز البيانى ، إن القرآن معجز ببلاغته ، وإن البلاغة فى اللغة مأخوذة من البلوغ ، لأن المتكلم يبلغ بكلامه إلى أعماق نفوس سامعيه ، ليبلغها مايريد .

كما قلنا إن البلاغة تستلزم مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وعلى ذلك ، نقول : إنه يوجد ارتباط وثيق بين علمى البلاغة والنفس ، لما يفعله اللفظ من تأثير على النفس ، وبقدر الدقة فى اختيار اللفظ تكون قوة هذا التأثير.

وإذا كنا قد علمنا أن القرآن قد ارتقى عرش البلاغة ، فمن المسلم له إذا أن تكون فى ألفاظه شحنات عاطفية ، تحرك النفس البشرية السوية ، متى أرادت ، وكيفما شاءت .

جاء فى كتاب « البلاغة وعلم النفس » لأمين الخولى :[٣]

«القرآن من حيث إنه فن أدبى معجز ، ومن حيث هو هدى وبيان للناس لن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس البشرية ، فصلته بالنفس ، ومناجاته للروح واضحة .

فالنظر الصائب إليه ، والفحص الدقيق له لن يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه ، مستدلا وهاديا ، معنفا ومجادلا.

فبالأمور النفسية يعلل إيجازه وإطنابه ، وتوكيده وتكراره .

---

(٢) إعجاز القرآن للرافعى : ٣٤٠ .

(٣) نقلا عن : العلم والإيمان د /عبد الغنى الراجحى : ١٣٣ .

إن القرآن قد راعى قواعد نفسية ، من مظاهر الاعتقاد، ومسارب الانفعال ، ونواحى التأثر وجوانب التطامن ، وقد جاء نسيجا على قوالب وأنوال نفسية ، لا سبيل إلى مراعاتها ، فى عهد نزوله ، فهو صنيع فوق قدر البشر، وقوى الناس » انتهى .

إن الوقوف على سر هذا الوجه من وجوه الإعجاز ، يبدو جليا ، حينما نعلم أن قائل هذا الكلام ، والمتحدى به ، هو خالق النفوس ، الذى يعلم بأى شىء تتأثر ، وكيف تتأثر .

ومن هنا فقد جاءهم هذا القرآن من وراء النفس ، لا من وراء اللسان ، فما أن يسمع السامع الآية منه ، حتى تتغلغل فى ثنايا نفسه ، وخلايا قلبه ، ولا يستطيع أن يقى نفسه من التفاعل معها ، أو يصرف قلبه عن التأثر بها .

بعكس عبارات البشر التى يمكث الانسان فيها حينا ، ينمقها ويهذبها ، ثم بعد ذلك لا يملك التأثير بها على نفوس الآخرين ، فقد تذهب النفوس إلى هذا الكلام فتتأثر به ، وقد لا تذهب ولا تتأثر ، فالمجال أمامها موسع عليها ، لتستحسن ما تشاء ، وتزدرى ما تريد .

والسبب فى ذلك أن ألفاظ القرآن مختارة لمعانيها ، بعكس البشر فإن معانيهم مختارة لألفاظهم .

وهذا هو الفرق بين كلام الله وكلام البشر ، كلام الله يأتى الخلق من وراء النفس ، بينما كلام البشر يأتيهم تارة من النفس ، وأخرى من اللسان .

تأثير القرآن فى نفوس سامعيه

فإذا ما جئنا لبيان القرآن الفعلى فى نفس سامعه ، فإننا لا نجد فى ذلك فرقا بين من آمن به ومن كفر ، فالكل لا بد وأن يتأثر ، حتى لو بلغ من كراهته إياه قمتها ، ومن عداوته لقائله ولمن أنزل على قلبه ذروتها .

ونستطيع فى هذا المقام ضرب أمثلة لا حصر لها ، ولكننا نكتفى بنماذج فقط ، ومن هذه النماذج :

١ - أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه أمورا لعله

يقبل بعضها ، فلما عرضها عليه قرأ عليه الرسول ﷺ سورة فصلت ، ولما رجع إلى قومه قال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة ... » إلى أن قالوا له : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » (٤)

٢ - تواصيهم بعدم سماع القرآن .

قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾(٥)

٣ - ورغم تواصيهم بعدم سماعه إلا أن زعماءهم كانوا يسترقون سماعه ليلا ، دون أن يعرف عنهم ذلك .

يروى ابن هشام فى سيرته عن أبى جهل وأبى سفيان والأخنس أنهم « خرجوا ليلة ، ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى كانت الليلة الثانية والثالثة فوقع منهم ما وقع فى الأولى » (٦)

٣ - وها هو عمر بن الخطاب ، الجبار ، القاسى القلب ، الذى قيل عنه « لا يسلم عمر بن الخطاب حتى يسلم حمار بن الخطاب » (٧) ذهب ليقتل رسول الله ﷺ ، فما هى إلا لحظات استمع فيها لبعض آيات القرآن ، فإذا هى تغزو قلبه ، وينشرح صدره للإسلام ، ويصير من

---

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٩٤ .

(٥) فصلت : ٢٦ .

(٦) سيرة ابن هشام : ١ /٣١٥ .

(٧) المصدر السابق : ١ / ٣٤٣ .

أعظم رجال الإسلام .

جاء فى قصة إسلامه أنه ذهب ليقتل رسول الله ﷺ فلقيه نعيم بن عبد الله ، وحذره من قتله ، وقال له : أفلا ترجع إلى أهل بيتك ، فتقيم أمرهم ، قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك وابن عمك ، سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدًا على دينه ، فعليك بهما ، قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما إياها ، إلى أن دخل عمر وضرب ختنه ، وأدمى أخته .

فلما رأى الدم يسيل من أخته ندم على ما صنع ، فارعوى ، وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة ، التى سمعتكم تقرءونها ، فأمرته أن يغتسل ، فلما قرأ صدرا منها قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !» ، ثم طلب أن يدلوه على رسول الله ﷺ ، ليعلن أمامه إسلامه ، فذهب إليه وأسلم .

قال عبد الله بن مسعود : «إن إسلام عمر كان فتحا ، وإن هجرته كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا ، حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه . »(٨)

٤ - ومما يدل على تأثير القرآن النفسى الخارق ، ما جاء فى إسلام أسيدبن حضير وسعد بن معاذ .

حيث يروى ابن هشام أن أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير ، اجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : لا أبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين ، اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانهرهما ، عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث

---

(٨) المصدر السابق : ١ /٣٤٢ .

قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدما .
قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد ابن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، قال : فوقف عليهما متشتما ، فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتز لانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .
فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .
قال : أنصفت ، ثم ركز حربته ، وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا فى وجهه الإسلام - قبل أن يتكلم - فى إشراقه وتسهله .
ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟
قالا له : تغتسل ، فتتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ، فقام واغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ .
ثم أخذ حربته ، وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس فى ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .
فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك .
قال : فقام سعد مغضبا مبادرا ، تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا ، ثم خرج إليهما. فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن

يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى ، أتغشانا في دارينا بما نكره ؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أى مصعب ، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان .

قال : فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن .

قالا : فعرفنا والله فى وجهه الإسلام - قبل أن يتكلم - لإشراقه وتسهله .

ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ، ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا : تغتسل ، فتتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين .

قال : فقام فاغتسل ، وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامدا إلى نادى قومه ، ومعه أسيد ابن حضير .

قال : فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يابنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة . قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام ، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله .

قال : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة . »[٩]

٥ - ومن نماذج تأثير القرآن فى النفوس تأثيرا خارجا عن العادة ما جاء فى

---

(٩) السيرة النبوية لابن هشام : ١ /٤٣٦ ، ٤٣٧ ط مصطفى الحلبى.

سبب إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى.
يروى ابن هشام هذا السبب فيقول : «قدم الطفيل مكة ورسول الله ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلا شريفا ، شاعرا لبيبا . فقالوا له ياطفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل منا ، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل ، وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا تسمعن منه شيئا .
قال : فوالله ما زالوا بى ، حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا ، فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه.
قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة ، قال : فقمت منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله .
قال : فسمعت كلاما حسنا ، قال : فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته ، فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يامحمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، للذى قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف ، لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسنا ، فاعرض علىّ أمرك .
قال: فعرض علىّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا علىّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمر أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق . » ثم رجع ودعا أباه وزوجته إلى

الإسلام ، واسلم على يديه ثمانون بيتا . »[١٠]

٦ - ويصور لنا جبير بن مطعم رضى الله عنه تأثير القرآن فى قلبه حينما سمعه لأول مرة فيقول فيما يرويه عنه البخارى :

« سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، وذلك أول ما وقر الإيمان فى قلبى »[١١] وفى رواية أخرى فى صحيح البخارى أيضا زيادة قوله : « فلما بلغ هذه الآية ﴿ أم خلقوا من غير شىء ﴾ إلى قوله ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ كاد قلبى يطير . »[١٢]

٧ - وتقول عائشة برجت هونى الإنجليزية المعاصرة التى اعتنقت الإسلام : « لن أستطيع مهما حاولت أن أصف الأثر ، الذى تركه القرآن فى قلبى ، فلم أكد أنتهى من قراءة السورة الثالثة من القرآن ، حتى وجدتنى ساجدة لخالق هذا الكون ، فكانت هذه أول صلاة لى فى الإسلام . »[١٣]

ويصور لنا أحد فلاسفة فرنسا مدى تأثير القرآن فى النفوس ، بما يتضاءل معه تأثير كل المعجزات للأنبياء السابقين ، فيقول :[١٤]

« إن محمدا كان يقرأ القرآن خاشعا ، أواها ، متألها، فتفعل قراءته فى جذب الناس إلى الإيمان به ، مالم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين . » ا . هـ

نعم ... أين المعجزات الحسية من تلك المعجزة الروحية ؟ إن المعجزة الحسية لا تؤثر فى الروح بقدر ما تؤثر فى الحواس ، أما المعجزة الروحية فإنها تملك النفس من أقطارها ، والقلوب من أوتارها ... ، إنها روح تسرى فى القلوب مسرى الدماء .. ولذلك سمى الله قرآنه هذا روحا.

---

(١٠) السيرة النبوية لابن هشام : ١/ ٣٨٢ .

(١١) البخارى : كتاب المغازى ، باب (١٢) .

(١٢) البخارى : كتاب التفسير ، تفسير سورة الطور .

(١٣) من كتاب : قالوا عن الإسلام : ٨٨ .

(١٤) كما فى مناهل العرفان للزرقانى : ٢ /٣٠٧ .

قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾(١٥)

وفرق كبير بين ما يستولى على القلوب والأنفس ، وبين ما يدهش الإنسان من حيث هو غير مألوف لديه فقط .

ولذلك رأينا بنى إسرائيل لم يتأثروا بتلك المعجزات الحسية التى جاءهم بها موسى عليه السلام ، رغم كثرتها ..

فقد رأوا معجزة انقلاب عصا موسى إلى ثعبان ، ورأوا يده تخرج بيضاء من غير سوء آية للناظرين ، وشاهدوا البحر ينفلق ، حتى صار كل فرق كالطور العظيم ، وغير ذلك من معجزات ، وما هى إلا لحظات يسيرة حتى مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فطلبوا من نبيهم أن يجعل لهم صنما يعبدونه من دون الله .

وبعدها بقليل انتهزوا غياب نبيهم لملاقاة ربه ، حتى اتخذوا من حُليِّهم عجلا جسدا له خوار ، وعبدوه .

ولما طالبهم موسى بالجهاد ، ودخول الأرض المقدسة أبوا وعابوا فيه وفى الله عز وجل ، حيث قالوا : ﴿ إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾(١٦)

أما معجزة القرآن ، فقد فعلت فى نفوس الناس - كفارا ومؤمنين - ما فعلت ..

ولقد رأينا بعض نماذج من كفار فعل القرآن بقلوبهم ما فعل ، بحيث لم تتمالك نفوسهم ، حتى خرت ساجدة لمن صدر عنه هذا القرآن .

وإذا تبين لنا فعل القرآن فى نفوس من كفر به ، فلا تسل عما فعله فى نفوس من آمن به .

سل التاريخ يحدثك عنه وعنهم ، لقد شغلوا به أوقاتهم ليلا ونهارا ، وأقبلوا

---

(١٥) الشورى ٥٢ .

(١٦) المائدة : ٢٤ .

عليه علما وعملا ، حتى صاروا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار .

اتخذوا من الليل فرصة للاختلاء بربهم ، له يصلون ، وبقرآنه يقومون ، وفى روضات آياته يتمتعون ، وينسون أنهم بشر يأكلون ويشربون .

واتخذوا من النهار فرصة لدعوة الناس إلى خير القرآن ، وتعريفهم بأحكام الحلال والحرام ، ولو كلفهم ذلك بذل دمائهم ، وإزهاق أرواحهم .

سل التاريخ عن قبورهم ، وكيف قبروا فيها ... يحدثك بأنهم جابوا الدنيا كلها ، من مشرقها إلى مغربها ، وتناثرت أجسادهم الطاهرة فى كل مكان ، ليكتب ذلك فى سجلات آثارهم ، كما قال تعالى: ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾(١٧) ما الذى دفعهم إلى ذلك كله ، إنه القرآن ، والقرآن فقط ، فلولا القرآن ما كان هذا ، ولولا القرآن ما سمع بأسمائهم أحد ، ولكانوا فى خبر كان ، كما كان غيرهم على مر الزمان .

الإعجاز النفسى فى ضوء العلوم الحديثة

إن أخطر مشكلة واجهها الناس قديما ، وحاضرا ، وستظل مستقبلا ، هى مشكلة القلق النفسى ، والاضطراب العصبى ، وانعدام الإحساس بالأمان ...

وقد أبرز القرآن هذه القضية ، وأوجد أعظم علاج لها ، ولكن أكثر الناس غافلون ، وفى غيهم يعمهون ..

قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ (١٨) والمراد بالظلم هنا الشرك بالله وعدم اتباع قرآنه .

وقال أيضا : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(١٩) ، وقد بدا هذا جليا – من خلال تاريخ الدعوة الاسلامية – لكل مَنْ مَنَّ الله عليه بالإسلام بعد أن كان كافرا ، حتى لو كان متوافرا لديه كل متع الحياة ، فإنه لا يكون قانعا بنفسه ، أو راضيا عنها .

---

(١٧) يس : ١٢ .
(١٨) الأنعام : ٨٢ .
(١٩) الرعد : ٢٨ .

يقول كات ستيفنز المغنى البريطانى الشهير الذى اعتنق الإسلام عام ١٩٧٦م « فى تلك الفترة من حياتى ، بدا لى وكأننى فعلت كل شىء ، وحققت لنفسى النجاح والشهرة والمال والنساء ، كل شىء ، ولكن كنت مثل القرد ، أقفز من شجرة إلى أخرى ، ولم أكن قانعا أبدا ، ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شىء بداخلى .

كنت أراه حقا ، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتى الحقيقية .»(٢٠)

ولأن القرآن حق ، فقد جاء العلم الحديث ليشهد بصدقه ، وليؤكد حقيته . يقول أحد اليهود الذين من الله عليهم بالإسلام حديثا وتسمى أحمد نسيم سوسة « إن معجزة القرآن هى أكثر بروزا فى عصرنا الحالى ، عصر النور والعلم، مما كانت عليه فى الأزمنة ، التى سادها الجهل والخمول . »(٢١)

وقد بلغ من فضول العلم الحديث أن حاول الوقوف على مدى تأثير القرآن فى نفوس وأعصاب سامعيه ، فقام بعدة تجارب عملية على أشخاص مسلمين وغير مسلمين ، متحدثين بالعربية وغير متحدثين ، فتلى عليهم القرآن لينظر مدى تأثيره عليهم وكانت النتيجة مذهلة ...

ولنترك المجال لأحد المهتمين بهذا العلم الحديث ، ليحدثنا عن هذه التجارب فيقول فى موضوع تحت عنوان :

تأثير الألفاظ القرآنية فى علاج التوتر العصبى

« استعملت أجهزة الكترونية ، مزودة بالكمبيوتر ، لمراقبة وقياس أى تغيرات فسيولوجية ، عند عدد من المتطوعين الأصحاء ، أثناء استماعهم لتلاوات قرآنية ، وقد تم تسجيل وقياس أثر القرآن عند عدد من المسلمين ، المتحدثين بالعربية ، وغير العربية ، وكذلك عند عدد من غير المسلمين .

وبالنسبة لغير المتحدثين بالعربية ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، فقد تليت عليهم مقاطع من القرآن باللغة العربية ، ثم تليت عليهم ترجمة هذه المقاطع

---

(٢٠) من كتاب : قالوا عن الإسلام : ص : ٦٨ .
(٢١) المصدر السابق : ٧٢ .

بالإنجليزية .

وفى هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية ، التى أجريت فى عام ١٩٨٨، وجود أثر مهدىء للقرآن فى ٩٧٪ من التجارب ، فى شكل تغيرات فسيولوجية ، تدل على تخفيف درجة توتر الجهاز العصبى التلقائى .

ثم قال : « ويمكن أن يعزى ظهور هذا التأثير للقرآن الكريم إلى عاملين :

العامل الأول :

هو صوت الألفاظ القرآنية باللغة العربية ، بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها ، وبغض النظر عن إيمان المستمع .

العامل الثانى :

فهم معنى المقاطع القرآنية التى تليت ، حتى ولو كانت مقتصرة على التفسير بالانجليزية ، بدون الاستماع إلى الألفاظ القرآنية باللغة العربية .

وتحت عنوان « افتراضات جديدة » يقول هذا الباحث :

« تضمنت سلسلة البحوث القرآنية عددا من الدراسات المقارنة لمعرفة ما إذا كان أثر القرآن المهدىء للتوتر وما يصحبه من تغيرات فسيولوجية ، عائدا فعلا للتلاوة القرآنية ، وليس لعوامل غير قرآنية ، مثل صوت أو نبرة القراءة بالعربية ، أو لمعرفة السامع بأن ما يقرأ عليه هو جزء من آيات الله القرآنية .

بعبارة أخرى : فإن هدف هذه المرحلة الثانية هو تحقيق أن كلمات القرآن فى حد ذاتها ، لها تأثيرها الخاص ، حتى لو كانت غير مفهومة لدى السامع .

ولتحقيق هذا الافتراض من عدمه ، أمكن استخدام جهاز خاص ، مزود بالكمبيوتر ، يقوم بقياس ردود الفعل ، الدالة على التوتر بوسيلتين :

إحداهما : الفحص النفسى المباشر ، عن طريق الكمبيوتر .

والأخرى : مراقبة وقياس التغيرات الفسيولوجية فى الجسد ، عن طريق :

- برنامج للكمبيوتر ، يشمل الفحص النفسى ، ومراقبة وقياس التغيرات ، وطباعة تقرير النتائج .
- أجهز مراقبة الكترونية ، مكونة من أربع قنوات .

- قناتين لقياس التيارات الكهربائية ، فى العضلات ، معبرة عن ردود الفعل العصبية .

- قناة لقياس قابلية التوصيل الكهربائى للجلد .

- قناة لقياس كمية الدورة الدموية فى الجلد ، وعدد ضربات القلب ، ودرجة حرارة الجلد .

فمع زيادة وتخفيض درجة حرارة الجلد تسرع ضربات القلب ، ومع الهدوء ونقصان التوتر ، تتسع الشرايين ، وتزداد كمية الدم الجارى فى الجلد ، ويتبع ذلك ارتفاع فى درجة حرارة الجلد ، ونقصان فى ضربات القلب .

تجارب الاستماع وتجارب الصمت

أجرت المؤسسة الطبية الإسلامية (٢٢) ٢١٠ تجربة على خمسة متطوعين أصحاء ، ثلاثة ذكور ، وأنثيين . متوسط أعمارهم ٢٢ سنة ، وكل المتطوعين كانوا من غير المسلمين ومن غير الناطقين بالعربية فى هذه المرة .

تليت على المتطوعين قراءات قرآنية ، وقراءات غير قرآنية ، خلال ٨٥ تجربة أخرى ، وقد روعى فى القراءات الأخرى أن تكون باللغة العربية المجودة ، بحيث تكون مطابقة للقراءات القرآنية ، من حيث الصوت واللفظ والوقع على الأذن .

ولم يستمع المتطوعون لأية قراءة خلال ٤٠ تجربة أخرى ، سميت بتجارب الصمت ، كان المتطوعون فيها جالسين جلسة مريحة ، وأعينهم مغمضة ، وهى نفس الحالة التى كانوا عليها أثناء الـ ١٧٠ تجربة السابقة ، التى استمعوا فيها للقراءات

ومنذ التجارب الأولى فى هذه المرحلة الثانية ، ظهر بوضوح أن الجلسات الصامتة لم يكن لها أى تأثير مهدىء للتوتر .

فاقتصرت التجارب المتأخرة على جلسات الاستماع بنوعيها ، مع مراعاة تغيير ترتيب القراءات القرآنية ، بالنسبة للقراءات غير القرآنية ، بصفة مستمرة . فمرة تكون القراءة القرآنية سابقة للأخرى ، ثم تكون تالية لها فى الجلسة التالية ، أو العكس ، دون علم أفراد التجارب .

---

(٢٢) بأمريكا الشمالية .

النتائج العلمية

استطاعت المراقبة الدقيقة لأجهزة الكمبيوتر*، أن تأتى بنتائج واضحة يمكن الاعتماد عليها، كمؤشرات لمتغيرات ثابتة، تبدأ من عندها أى تجارب مستقبلية، حيث أثبتت القياسات المسجلة نتائج إيجابية بنسبة ٦٥٪ فى تجارب القراءات القرآنية.

وهذا يدل على أن الجهد الكهربائى للعضلات كان أكثر انخفاضا تأكيدًا على أثر مهدىء للتوتر.

فى حين ظهر هذا الأثر فى ٣٥٪ فقط من تجارب القراءات غير القرآنية. وقد أمكن تكرار هذه النتائج الإيجابية، للألفاظ القرآنية، بالرغم من إعادة تغيير ترتيبها، بالنسبة للقراءات الأخرى، مما أكد الثقة فى هذه النتائج، مرة ثالثة، مما يفتح مجالا جديدا، وواسعا، لعدد كبير من الافتراضات والاحتمالات المستقبلية.

واستنادا إلى القواعد الطبية الثابتة، نجد أن التوتر يؤدى إلى نقص مناعة الجسم، ضد أى مرض، فإنه من المنطق افتراض أن التأثير القرآنى المهدىء للتوتر، يمكن أن يؤدى إلى تنشيط وظائف المناعة فى الجسم، والتى بدورها ستحسن من قابلية الجسم لمقاومة الأمراض.»(٢٣)

الوقائع اليومية تشهد

بأن القرآن أعظم علاج للتوتر النفسى والعصبى

ولا أدل على تأثير القرآن فى إزالة التوترات النفسية، وعلاج الأمراض العصبية مما نشاهده الآن فى آلاف الحالات ...

فكم من آلاف أرقتهم مشكلة نفسية، وأقضت مضاجعهم حالة عصبية، فما أن جلسوا مع القرآن، سامعين أو قارئين إلا هدأت أحوالهم واطمأنت قلوبهم، وانفرجت همومهم.

---

(٢٣) انظر الإعجاز العلمى فى الإسلام: محمد كامل عبد الصمد: ص: ٣٢٤ - ٣٢٧.

وشهد أعداء القرآن بإعجازه النفسى

سبق أن قدمنا بعض أقوال ومواقف لأعداء القرآن تشهد تأثيره فى نفوسهم ، وصنيعه فى قلوبهم .

كما سبق أن قلنا إن المعجزة بالاشتهار تزداد وضوحا ، بينما الكذب بالاشتهار يزداد افتضاحا ...

وهذا ما حدث مع معجزة القرآن ، فكلما تقدم العلم ، وتطورت الحياة ، كلما اتضح للناس ، مدى صدقه ، ومدى إعجازه ، وأنه ممن خلق فسوى ، وقدر فهدى ....

ونحن فى هذا المقام ، نذكر بعض أقوال فى الإعجاز النفسى ، من أعداء القرآن بعضهم مَنَّ الله عليه بالإسلام ، وبعضهم لم يعتنقه ، ولكنه لم يستطع إنكار كون القرآن من عند الله ، أو على الأقل مدى تأثيره فى النفوس .

* **يقول المستشرق الفرنسى** « **درمنغم** » عن القرآن ، فى كتابه « حياة محمد » : « وكان محمد ﷺ يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله ، وكان هذا التحدى أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته .

ولا ريب أن فى كل آية منه ، ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياة الخاصة ، تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية ، ولا ريب فى أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سر نفوذه وعظيم نجاحه . »(٢٤)

* **وقال الأديب الانجليزى الشهير** : « **وليم بيرشال بشير بيكارد** » ، والذى أعلن إسلامه عام ١٩٢٢ : « ابتعت نسخة من ترجمة سافارى الفرنسية ، لمعانى القرآن ، وهى أغلى ما أملك ، فلقيت من مطالعتها أعظم متعة ، وابتهجت بها كثيرا ، حتى غدوت ، وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق على بنوره المبارك »(٢٥)

* **ويقول القس المبشر المصرى** ، الذى عمل كثيرا ضد الإسلام فى مجال

---

(٢٤) انظر قالوا عن الإسلام : ٦١ .

(٢٥) المصدر السابق : ٥٧ .

التنصير ، والذى أعلن إسلامه عام ١٩٥٩ وتسمى باسم « إبراهيم خليل أحمد » : « للمسلم أن يعتز بقرآنه ، فهو كالماء ، فيه حياة لكل من نهل منه »(٢٦)

* **ويقول دى كاسترى ، المقدم فى الجيش الفرنسى :**

« إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها ، وكفى رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب ، فآمن برب قائلها ، وفاضت عين نجاشى الحبشة بالدموع ، لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب سورة مريم ، وما جاء فى ولادة يحيى ، وصاح القسس : إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى عليه السلام .

لكن نحن معشر الأوربيين لا يسعنا أن نفقه معانى القرآن ، كما هى ، لمخالفته لأفكارنا ، ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا ، غير أنه لا ينبغى أن يكون ذلك سببا فى معارضة تأثيره فى عقول العرب »

ثم يستطرد قائلا :

« ولقد أصاب جان جاك روسو حيث يقول : « ومن الناس من يتعلم قليلا من العربية ، ثم يقرأ القرآن ، ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمدا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة ، وصوته المشبع المقنع ، الذى يطرب الآذان ، ويؤثر فى القلوب ، لخر ساجدا على الأرض وناداه : أيها النبى رسول الله ، خذ بيدنا إلى مواقف الشرق والفخار ، أو مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار »

ثم يقول : « ولو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه ، وجمال مبانيه ، لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ، ويأخذ بمجامع القلوب »(٢٧)

* **ويقول الفرنسى « ايتين دينيه »** الذى أشهر إسلامه عام ١٩٢٧ وتسمى

---

(٢٦) المصدر السابق : ٤٩ .

(٢٧) قالوا عن الإسلام : ٦٢ .

بناصر الدين : « أحس المشركون فى دخيلة نفوسهم أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب ، الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم ﷺ وكلهم كثيرا ما كانوا على وشك الخضوع ، الصادر لتلك الألفاظ الأخاذة ، التى ألهمها إيمان سماوى ، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا »(٢٨)

ويقول أيضا : « إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه ، يحدث مثل هذا التأثير فى نفوس علماء لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة ، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة ، التى تستهوى عرب الحجاز ، وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة ؟

لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة ، فيظلون فى مكانهم ، وكأنهم قد سمروا فيه .

أهذه الآيات الخارقة تأتى من محمد ﷺ ، ذلك الأمى الذى لم ينل حظا من المعرفة ؟ كلا ، إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد ، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلىّ القدير هو الذى أملى تلك الآيات البينات .»(٢٩)

* **ويقول « جاك ريسلر » الباحث الفرنسى** ، والأستاذ بالمعهد الإسلامى بباريس : « لما كانت روعة القرآن فى أسلوبه ، فقد أنزل ليقرأ ، ويتلى بصوت عال ، ولا تستطيع أية ترجمة ، أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية ، ويجب أن تقرأه فى لغته ، التى كتب بها ، لتتمكن من تذوق جمله وقوته ، وسمو صياغته ، ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع ، سحرا مؤثرا فى النفس ، حيث تزخر الأفكار قوة ، وتتوهج الصور نضارة ، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحرى ، وسموه الروحى يسهمان فى إشعارنا ، بأن محمدا ﷺ كان ملهما بجلال الله وعظمته »(٣٠)

* **ويقول المغنى البريطانى الشهير « كات ستيفنز » الذى اعتنق الإسلام**

---

(٢٨) قالوا عن الإسلام : ٦٣ .

(٢٩) المصدر السابق : ٦٤ .

(٣٠) قالوا عن الإسلام : ٦٦ .

عام ١٩٧٦ : « فى تلك الفترة من حياتى بدا لى وكأننى فعلت كل شىء ، وحققت لنفسى النجاح والشهرة والمال والنساء ، كل شىء ، ولكن كنت مثل القرد ، أقفز من شجرة إلى أخرى ، ولم أكن قانعا أبدا ، ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شىء بداخلى ، كنت أراه حقا ، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتى الحقيقية »(٣١)

* ويقول اليهودى العراقى الذى أسلم وتسمى أحمد نعيم سوسه :« يرجع ميلى إلى الإسلام حينما شرعت فى مطالعة القرآن الكريم ، للمرة الأولى ، فولعت به ولعا شديدا وكنت أطرب لتلاوته »(٣٢)

* وتقول الباحثة الإيطالية « لورا فاغليرى » :

« إن هذا الكتاب الذى يتلى كل يوم ، فى طول العالم الإسلامى وعرضه ، لا يوقع فى نفس المؤمن أيما حس بالملل .

على العكس ، إنه من طريق التلاوة المكرورة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر ، يوما بعد يوم ، إنه يوقع فى نفس من يتلوه أو يصغى إليه حسا عميقا ، من المهابة والخشية .

إن فى إمكان المرء أن يستظهره فى غير عسر ، حتى إننا لنجد اليوم على الرغم من انحسار موجة الإيمان ، آلافا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب ، وفى مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب فى أوربا كلها »(٣٣)

** * ويقول الإنجليزى « روم لاندو » أستاذ الدراسات الإسلامية فى المجمع الأمريكى للدراسات الآسيوية وشمالى أفريقيا :

« إن بين آيات قصار السور ترابطا باهرا ، له تأثيره الوجدانى ، برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامى .

وفى الحق أن سماع السور تتلى فى الأصل العربى ، كثيرا ما يخلف فى

---

(٣١) المصدر السابق : ٦٨ .
(٣٢) قالوا عن الإسلام : ٧٠ .
(٣٣) المصدر السابق : ٧٦ .

نفس المرء تأثيرا بليغا .

لقد أريد بالقرآن أن يتلى فى صوت جهير ، ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلا ، لكى يحكم عليه حكما عادلا ، ويقدره حق قدره ، وبوصفه كلمة الله الحقيقية كان معجزا ، لا سبيل إلى محاكاته ، ولم يكن ثمة بكل بساطة أيما شىء من مثله » (٣٤)

وتقول الفيلسوفة الإنجليزية ، النصرانية ، التى اعتنقت الإسلام وتسمت باسم عائشة برجت هونى :

« لن أستطيع مهما حاولت أن أصف الأثر ، الذى تركه القرآن فى قلبى ، فلم أكد أنتهى من قراءة السورة الثالثة من القرآن ، حتى وجدتنى ساجدة لخالق هذا الكون ، فكانت هذه أول صلاة لى فى الإسلام » (٣٥)

وهكذا فعل القرآن فى النفوس كلها - مؤمنة وكافرة - ما لم تفعله جميع معجزات الأنبياء السابقين .

---

(٣٤) قالوا عن الإسلام : ٨٦ .

(٣٥) قالوا عن الإسلام : ٨٨ .

الفصل الثالث

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز

الإعجاز الغيبى

الوجه الثالث

الإعجاز الغيبى

ومن وجوه إعجاز القرآنى الإخبار بالغيب ، ويقصد به : ما تحدث عنه القرآن من أمور غائبة ، ليس فى مقدور النبى ﷺ ، ولا مقدور العالم كافة أن يتحدثوا عنها بهذا الوجه الذى ورد فى القرآن الكريم .

لقد رأينا فى القرآن حديثا عن أمور تضرب بجذورها فى أغوار التاريخ ، منذ بداية خلق العالم ، ومنذ بداية خلق الإنسان الأول ، آدم عليه السلام ، إلى وقت بعثة النبى ﷺ ، بصورة دقيقة ، صدقتها الكتب السماوية السابقة ، التى لم يعرف عنها محمد أى شىء .

كما رأينا فى القرآن إخبارا عن أمور غائبة معاصرة لرسول الله ﷺ ، بل عن أمور كانت مستكنة فى قلوب المشركين واليهود والمنافقين ، انتزعها الله من قلوبهم وأطلع نبيه عليها .

كما رأينا فى القرآن إخبارا عن أمور مستقبلية ، فإذا بها تقع كما حدث عنها القرآن ، هذه الأمور كلها لا يمكن بحال من الأحوال ، أن تخضع لذكاء مخلوق أو فراسته ، أو لعظيم علمه واتساع ثقافته .

وعلى ذلك : فإنه يمكننا أن نقسم هذه الأمور الغيبية إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم يتعلق بغيب ماض

٢ - قسم يتعلق بغيب حاضر

٣ - قسم يتعلق بغيب مستقبل

أولا : غيب الماضى

ويقصد به كل ما جاء فى القرآن عن أمور حدثت فى الماضى ، وليس فى استطاعة النبى ﷺ الوقوف عليها بحال من الأحوال ، إلا بإخبار من الله عز وجل .

كالحديث عن خلق السموات والأرض ، وخلق آدم عليه السلام ، وكالحديث عن أنبياء الله السابقين وما دار بينهم وبين أقوامهم ، على مدى

ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٥]

وفى قصة مريم عليها السلام يقول تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[٦]

.... إن إخبار القرآن بكل ذلك ليدل دلالة واضحة على صدقه ﷺ ، خاصة إذا علمنا أن اليهود كانوا يتحدونه بأشياء ، إن أخبر بها كان نبيا ، وإلا فليس بنبى ، ويدل لذلك ما ورد أن قريشا أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، ليسألوهم عن حقيقة أمر محمد بن عبد الله ، هل هو صادق فى ادعاء النبوة ، أو كاذب .

فذهبا إليهم وقالا لهم : « إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقال لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ، ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبأه .

وسلوه عن الروح ، ما هو ؟

فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا فيه ما بدا لكم » [٧] الخ.

وهنا أمر فى غاية الأهمية ، فى الدلالة على كون الإخبار عن الماضى وجها

---

(٥) يوسف : ١١١ .

(٦) آل عمران : ٤٤ .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام : ١/ ٢٦٦ ، وتفسير الطبرى وابن كثير فى أول السورة ، وأسباب للواحدى فى سبب نزول (ويسألونك عن الروح) ، وأسباب النزول للسيوطى ، سبب نزول سورة الكهف .

من وجوه الإعجاز .. وهو أننا نلاحظ أن الإخبار عن الغيب الماضى ، وعن قصص السابقين إنما جاء فى العهد المكى دون العهد المدنى .

والسبب فى ذلك : نفى أى شبهة عن وجود اتصال علمى بين الرسول ﷺ ، وبين أهل الكتاب الذين كانوا يسكنون المدينة .

إن القرآن الكريم كان حريصا على نفى أى ظن يتجه إلى كون النبى ﷺ يستمد وحيه من غير الله عز وجل .

وحينما تقولت قريش على النبى ﷺ بمثل ذلك سارع القرآن بالنفى المعلل ، القائم على الدليل الساطع ، والبرهان القاطع .

استمع إليه وهو يورد تقولهم ، ويرد عليه بما يزهقه :

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (٨)

لقد اتهموه بأنه يأخذ القرآن عن أعجمى كان فى مكة ، يصنع السيف فرد عليهم بالدليل الهادىء ، القاطع ، إن هذا الذى تزعمون أن محمدا يأخذ عنه القرآن إنما يتكلم بلسان غير عربى ، أما هذا القرآن فهو كلام عربى فكيف يملى الأعجمى هذا القرآن العربى على محمد ﷺ .

وفى موضع آخر يورد القرآن بعض تقولاتهم هذه ويرد عليها أيضا .

قال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾(٩)

لقد رد الله عليهم بكل بساطة قائلا : إن لكل قول حقيقة ، ولكل دعوى دليلا ، فما حقيقة قولكم ، وما دليل دعواكم ، فإن لم تأتوا بحقيقة ولا بدليل ، فهذا هو عين الظلم ، وهذا هو عين الزور .

وبعد هذه الآية مباشرة ، يورد تقولا آخر : ويدحضه ، فيقول تعالى :

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله

---

(٨) النحل : ١٠٣ .

(٩) الفرقان : ٤ .

الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[١٠]

إن أساطير الأولين لا تكون بهذه الدقة ، التى لا يصل إليها إلا من لا تخفى على خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ولا تحتوى على مثل هذا المنهج الرحيم ، الذى يغيث الناس من الظلم والظلمات ، ويعمهم بالمغفرة والخير والبركات .

ثانيا : الإخبار عن غيب الحاضر

أما غيب الحاضر ، فيقصد منه : ما يحدث فى عهد الرسول ﷺ من أمور لم يشهد وقوعها ، ولم يكن له من سبيل فى الحصول عليها .

ومن أبرز غيب الحاضر :

١ - الأمور العلمية ، الخاصة بنظام الكون . وسوف نخصص لها فصلا مستقلا ، فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

٢ - ما يقع من المنافقين ، من مكائد ، يكيدون بها الله ورسوله ﷺ ، والمؤمنين فإذا بالله عز وجل يطلع رسوله على ما دار بينهم ، بل على ما تحدثهم به نفوسهم ، وتخفيه قلوبهم ، دون أن يتلفظوا به .

٣ - ما ورد فى شأن اليهود ، وما كانوا يضمرونه من حقد على الإسلام ، ومخططات للقضاء عليه .

٤ - ما ورد فى المنافقين واليهود معا .

٥ - ما ورد من أخطاء بعض المسلمين ، والتى كانوا يخفونها عن رسول الله ﷺ .

وسنضرب لذلك بعض الأمثلة :

أولا : بعض ما جاء فى المنافقين .

أ - ما جاء عنهم فى غزوة الأحزاب ، قال تعالى : ﴿وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾[١١]

ب - ما جاء فى قصة الإفك : فقد رمى المنافقون السيدة عائشة رضى

---

(١٠) الفرقان : ٥، ٦ .

(١١) الأحزاب : ١٢ .

الله عنها فى شرفها ، أعز ما تملك ، وحبك رئيسهم القصة حبكا شديدا ، إلى أن وصل الأمر برسول الله ﷺ نفسه أنه لا يستطيع أن يقطع فى الأمر بشىء ، هل فعلت أو لم تفعل ، ويقول لها كما فى صحيح البخارى : « يا عائشة : فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه » ويستشير الرسول ﷺ أصحابه فى هذا الأمر ، علىّ بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، والجارية بريرة ، وتظل المدينة كلها أكثر من شهر كامل تخوض فى هذا الباطل ، والرسول ﷺ لا يستطيع أن يقول شيئا ، إلى أن نزل القرآن بتبرئة الطاهرة العفيفة ، أم المؤمنين رضى الله عنها وعن جميع أمهات المؤمنات ، الطاهرات المحصنات . فلو كان القرآن من تأليف محمد ، أكان يظل شهرا كاملا ، لا يقول كلمة واحدة تبرئها ، بل تبرىء ساحة شرفه هو ، وحرمة عرضه ، ومحل كرامته ؟

هل لو كان القرآن من عند محمد أكان يمكث شهرا كاملا يستشير هذا وذاك فلا يذكرون عنها إلا خيرا ، وبعد أن تنقطع به السبل يأتيها ويقول لها : « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله» ؟

والله إن كان محمد كاذبا لكذب أول ما سمع الخبر ، وبرأ ساحة شرفه ، ونزه عرضه وكرامته عما يتخرصون ، وقال كلاما فى هذه التبرئة ونسبه إلى ربه ، ولا ضير عليه بعد ذلك فى تطليق زوجته ولكنه بعد أن يكون الناس قد اقتنعوا بتبرئة ساحته ، وصيانة عرضه . .. ولكنه القرآن الذى لا يسمح الله عز وجل لأى إنسان أن يزيد فيه أو ينقص .

ولذلك حينما نزلت الآيات تبرىء السيدة عائشة قالت لها أمها قومى إلى رسول الله ، فقالت لها : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل . »(١٢)

جـ - ومما جاء فى القرآن من غيب الحاضر ، فى شأن المنافقين ، ما ورد

وجل . »[١٢]

ج - ومما جاء فى القرآن من غيب الحاضر ، في شأن المنافقين ، ما ورد فى شأن مسجد الضرار . « حيث كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج ، يقال له أبو عامر الراهب ، كان يطمع أن يكون ملكا متوجا فى المدينة ، فلما رأى أمر الرسول ﷺ فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ، ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ، من أهل النفاق والريب ، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ، ويغلبه ويرده عما هو فيه وأمرهم أن يتخذوا له معقلا ، يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده ، لأداء كتبه ، ويكون مرصدًا له ، إذا قدم عليهم بعد ذلك .

فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم ، فيصلى فى مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه ، على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم ، وأهل العلة ، فى الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه ؛ فقال إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله ، فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه ، من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم ، مسجد قباء ، الذى أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد ، مَنْ هدمه قبل مقدمه المدينة »[١٣]

---

(١٢) البخارى : كتاب التفسير ، تفسير سورة النور .

(١٣) تفسير ابن كثير ٢ /٣٨٧ ، ٣٨٨ المطبعة التجارية بمصر .

ثانيا ما جاء فى اليهود

وللقرآن – فى هذا الصدد – الكثير من أخبارهم ، نذكر منها نماذج فقط :

١ – منها : ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس قال: «حضرت عصابة من اليهود نبى الله ﷺ ، فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبى ، قال : سلونى عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعننى على الإسلام ؟ قالوا فذلك لك . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال. أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم ، ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه ، فقال : أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا ، وطال سقمه ، فنذر لله نذرا ، لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم اشهد عليهم . وقال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله . إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكرا بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله ، قالوا نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم . قال : وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى ، تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد . قال : وإن وليى جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعند ذلك نفارقك ، لو كان وليك غيره لتابعناك . فعند ذلك قال تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾[١٤] الآية .

(١٤) البقرة : ٩٧ ، والحديث أخرجه أحمد فى مسنده : ٢٨٧/١ .

٢ - ما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن مرة ، عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبى ﷺ بيهودى مُحَمَّمًا مجلودا ، فدعاهم ﷺ فقال : «هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا تعالوا : فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر .... الحديث** »(١٥)

ثالثا : ما جاء فى المنافقين واليهود معا

ومما جاء فى شأن هاتين الطائفتين معا ، ما ورد من آيات تبين مدى التعاون بينهما ، وولاء بعضهم لبعض.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾(١٦)

رابعا : ماورد فى بعض المسلمين من أمور أخفوها .

ومن الإخبار عن غيب الحاضر ، تلك الآيات التى تتحدث عن أمور كان بعض المسلمين يفعلونها فى الخفاء ، دون أن يعلم بها غيرهم .

ومن هذه الأمور :

أ - أن بعضهم كان يأكل ويشرب ، أو يجامع زوجته بعد أن ينام ليلة الصيام وقبل الفجر ، وكان ذلك فى أول الأمر منهيا عنه فقد كان

---

(١٥) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب رجم اليهود ٥ / ١٢٢ ط دار المعرفة بيروت والآية من سورة المائدة ، رقم : ٤١ .

(١٦) الحشر : ١١ .

تشريع الصيام أن المغرب إذا دخل ونام المسلم ولو قليلا ثم استيقظ قبل الفجر ، فإن الطعام والشراب والنساء عليه حرام ، حتى غروب اليوم التالى.

فقد أخرج البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى ، وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما ، وكان يومه ذلك يعمل فى أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت لا ، ولكن انطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته ، فلما رأته نائما قالت : خيبة لك ، أنمت فلما انتصف النهار غشى عليه ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام** ﴾ إلى قوله (من الفجر) ، ففرحوا بها فرحا شديدا . »(١٧)

وأخرج البخارى أيضا من حديث البراء بن عازب قال : لما نزل صوم شهر رمضان ، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، فكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** »(١٨)

ب - ومن هذه الأمور أيضا ما وقع من حاطب بن أبى بلتعة أثناء توجه الرسول ﷺ والمسلمين إلى فتح مكة . فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول الله ﷺ : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة ، معها كتاب ، فخذوه منها ، فأتونى به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى من كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبى ﷺ فإذا فيه : « من حاطب بن أبى بلتعة ، إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبى ﷺ » فقال النبى ﷺ : « ما هذا يا حاطب ؟ » قال : لا تعجل علىّ يا رسول الله ، إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من

---

(١٧) البخارى : كتاب التفسير ، تفسير سورة البقرة .

(١٨) الموضع السابق .

حاطب ؟ » قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات ، يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن اصطنع إليهم يدا ، يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ، ولا ارتدادا عن دينى » . فقال النبى ﷺ : « صدق » . فقال عمر : « دعنى أضرب عنقه » فقال : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ونزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنو لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** ﴾[19] الآية

ثالثا : غيب المستقبل

الرجم بغيب المستقبل من سمات الكهان ، الذين لا يأبهون بتكذيب الناس إياهم ، فالكذب سماتهم للوصول إلى أغراضهم ، وخداع الناس حيلتهم لنهب أموالهم .

ورسول الله ﷺ عرف بين قومه منذ نشأته بالصدق ، واشتهر بينهم بالأمانة ، حتى أطلقوا عليه لقب « الصادق الأمين » .

وبتاريخه وماضيه استدل الله على صحة نبوته ، قال تعالى : ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون** ﴾[20]

وقد نفى الله فى قرآنه علم الغيب عمن سواه ، حتى ولو كان خير رسل الله ، قال تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾[21]

وقال أيضا : ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾[22]

---

(١٩) الممتحنة : ١ ، والحديث فى صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الممتحنة وفى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر .

(٢٠) يونس : ١٦ .

(٢١) الأنعام : ٥٩ .

وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٢٢]

وبين عز وجل أن الإخبار بالغيب ليس له إلا طريق واحد ، وهو وحي الله لرسول ارتضاه ، قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول** ﴾[٢٣]

فالإخبار بالغيب لا مجال فيه للذكاء ، ولا حيلة فيه للثقافه ... وقد جاء في القرآن من أمور الغيب المستقبلة ما هو فوق ذكاء الخلق كلهم ، بل ما هو فوق قدرتهم البشرية ، وطاقاتهم الإنسانية ، حيث وجدنا إخبارا عن أمور محددة ، ستحدث خلال عام مقبل ، أو ما دون عشرة أعوام بالتحديد ، وعن أمور لا بد وأن تقع في مستقبل الزمان ، وعن أمور يستحيل حدوثها ، ولم يكذب الواقع واحدة من هذه الوقائع التي تحدث عنها القرآن أبدا.

والأمثلة على إخبار غيب المستقبل كثيرة ، نختار منها ما يلي :

١ - حينما التقى الفرس والروم ، وانتصر الفرس ، وفرح بذلك المشركون ، واغتم لذلك المسلمون ، نظرا لأن الروم أهل كتاب ، والفرس لا كتاب لهم ، نزل القرآن الكريم يبشر المؤمنين بأن الروم ستنتصر في بضع سنين ، ورغم أن الوضع العسكري للروم في ذلك الوقت لا يشير بأي حال من الأحوال إلى أنه من الممكن أن يقف على قدميه أمام قوة الفرس ، إلى الدرجة التي جعلت مشركي قريش يراهنون على حدوث مثل ذلك ، بل وحملت بشارة القرآن بانتصار الروم بشارة أخرى وهي انتصار المسلمين على مشركي قريش في ذلك اليوم الذي ينتصر فيه الروم على الفرس . قال تعالى : ﴿ **الم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾[٢٤] أي ويوم انتصار الروم على الفرس يحدث انتصار

---

(٢٢) الأعراف : ١٨٨ .
(٢٣) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢٤) الروم : ١ - ٥ .

للمسلمين على عدوهم ، مشركى قريش ، وذلك ما حدث فى غزوة بدر التى وقعت فى اليوم الذى انتصر فيه الروم على الفرس.

أخرج الترمذي في سننه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿**الم غلبت الروم فى أدنى الأرض**﴾ ، قال :« غَلَبَتْ وغُلِبَتْ ، كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم ، لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، فذكروه لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، قال : أما إنهم سيغلبون ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا فذكر ذلك للنبى ﷺ ، قال : ألا جعلته إلى دون ، قال : أراه العشر ، قال أبو سعيد : والبضع ما دون العشر ، قال : ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ **الم غلبت الروم** ﴾ إلى قوله ﴿ **يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء** ﴾ قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر »(٢٥) قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » وفى رواية للترمذى فى الموضع ذاته : أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : « ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع »

٢ - لما استعصى كفار قريش على رسول الله ﷺ ، وآذوه ، وآذوا من معه ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، يقاسون فيها القحط والجوع ، فأنزل الله فى ذلك قرآنا مستجيبا دعوته ، آمرا إياه بترقب عقوبات متتالية ، حيث نزل قوله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ، إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾(٢٦)

---

(٢٥) سنن الترمذى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الروم .

عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾[٢٦]

لقد نزلت الآيات بأمور غيبية ، لا يمكن لأحد أن يتنبأبها .

أ - حيث أمرت الرسول ﷺ بترقب حدوث قحط وجوع لقريش فى غاية الشدة ، حتى إن أحدهم لينظر إلى السماء فلا يرى إلا كهيئة الدخان ، من شدة حاله .

ب - الإخبار بأنهم سيستغيثون بالله مما هم فيه ، وأن الله سيغيثهم ، ويكشف عنهم هذا العذاب مدة قليلة من الزمان .

جـ - الإخبار بأنهم - بعد إغاثتهم مما هم فيه - سيعودون إلى كفرهم وعنادهم وإيذائهم المسلمين كما كانوا أول مرة .

د - الإخبار بأن الله سينتقم منهم أشد انتقام وقد وقع كل ذلك فى المستقبل ، وختم بما حدث لهم يوم بدر ، حيث فعل بهم ما فعل ، وصاروا حديث الناس إلى يوم الدين . هل فى مكنة أحد من البشر أن يخبر بمثل هذا الغيب التفصيلى وعلى هذا الوجه القاطع ؟

٣ - من المعلوم أن سورة القمر من أوائل ما نزل فى الفترة المكية ، فى الفترة التى كانوا يؤذون فيها رسول الله ﷺ وأصحابه ولا يمكن أن يتصور أحد أنه سيكون للمسلمين جيش ينتصر على أعدائهم من كفار قريش وفى تلك الفترة ينزل القرآن متنبئًا بذلك. حيث يقول تعالى : **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾**[٢٧] بل إن بعض المسلمين - كعمر بن الخطاب رضى الله عنه - لما سمع تلك الآيات فى هذه الفترة المكية تساءل عن هذا الجمع الذى سوف يهزم ، ولم يرد فى خاطره أن الآيات تعنى جمع قريش ، نظرا لما يعانيه المسلمون من استضعاف واضطهاد أمام جبروت الكفار ، وهى حالة تجعل كل عاقل لا يفكر - مجرد تفكير - فى أنه يمكن أن تحدث مواجهة ويسحق فيها المسلمون كفار قريش . ولكن الأيام تأتى مصدقة بما تنبأ به القرآن .

---

(٢٦) الدخان : ١٠ - ١٦ .

(٢٧) القمر : ٤٥ .

أخرج ابن أبى حاتم بإسناده عن عكرمة قال : « لما نزلت (سيهزم الجمع ويولون الدبر) قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى جمع يغلب ؟

قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ : يثب فى الدرع وهو يقول : (**سيهزم الجمع ويولون الدبر**) فعرفت تأويلها يومئذ »(٢٨) كما أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لا تعبد بعد اليوم »

.

فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك - وهو يثب فى الدرع - ، فخرج وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر »(٢٩)

٤ - معروف أن قادة الأمم وزعماءها وعظماءها يتخذون حرسا لهم يحرسهم من شر أعدائهم ، وتبعا لهذا النظام فإن رسول الله ﷺ كان يتخذ حرسا له ، حتى لا يتعرض لمكر المنافقين وغيرهم من الكافرين وظل على ذلك فترة ، حتى أخبره بأن الله عاصمه منهم ، قال تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ ، وحينئذ أمر رسول الله ﷺ صحابته بعدم حراسته ، وظل هكذا دون حراسة إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

أخرج الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : « يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمنى الله » (٣٠) ولقد كان ﷺ يتعرض بين الحين والآخر لمحاولة قتله ، ولكن الله الذى تكفل بعصمته ، كان ينجيه كل مرة من أذا هم .

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، واللفظ للبخارى ، عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ، قبل نجد ،

---

(٢٨) تفسير ابن كثير : ٤ / ٢٦٦ .

(٢٩) البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة القمر .

(٣٠) أخرجة الترمذى فى سننه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة .

ابن عبد الله رضى الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ، قِبل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاه ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس فى العضاه . يستظلون بالشجر . ونزل رسول الله ﷺ ، تحت سمرة ، فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس.

فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صَلْتًا ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله» فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ . »(٣١) هل وجد التاريخ زعيما له أعداء مثل رسول الله ﷺ يريدون القضاء عليه وعلى دعوته ، دون أن يكون له حرس ؟ إن التاريخ ليخبرنا فى كل لحظة من اللحظات عن مصرع رؤساء وملوك وعظماء رغم حصونهم المحصنة ، وحراسهم المدججين ، بأقوى أنواع الأسلحة . وبلغت ثقة رسول الله ﷺ فى هذه العصمة ، مبلغا عظيما حتى كان يقف فى ميدان المعركة وحده ، بين آلاف أعدائه المدججين بالسلاح ، غير هياب . وانظر إليه ماذا فعل يوم حنين ، حين فر أصحابه من الميدان .

أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى إسحاق أنه سمع البراء وقد سأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر . كانت هوازن رماة ، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم ، فاستقبلنا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان آخذ بزمامها وهو يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . قال إسرائيل وزهير : « نزل النبى ﷺ عن بغلته »(٣٢)

وأخرج الإمام مسلم عن البراء رضى الله عنه قال:« كنا والله إذا احمر البأس نتقى به - أى الرسول ﷺ وإن الشجاع منا للذى يحاذى به »(٣٣)

٥ - ومن الإخبار بغيب المستقبل إخبار القرآن - وقت استضعاف المسلمين وتكالب الجميع عليهم بأن دين الله سوف يظهر على كل

---

(٣١) أخرجة البخارى فى كتاب المغازى ، باب غزوة ذات الرقاع ، ومسلم فى كتاب المسافرين ، باب (٣١١) .

(٣٢) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، غزوة حنين ، وصحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب (٧٩) .

الرسول ﷺ وإن الشجاع منا للذى يحاذى به » (٣٣)

٥ - ومن الإخبار بغيب المستقبل إخبار القرآن - وقت استضعاف المسلمين وتكالب الجميع عليهم بأن دين الله سوف يظهر على كل دين ، وأن المسلمين لا بد لهم من التمكين أخرج الحاكم بإسناده عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال :

لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين ، لا نخاف إلا الله ، فنزلت ﴿ **وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** ﴾ (٣٤)

لقد وعدهم الله هذا الوعد ، وما هى إلا فترة وجيزة ، حتى حطموا عرش كسرى وقيصر ، وهابتهم الدنيا كلها ، وما عرف التاريخ خلافة مثل خلافتهم ، أيستطيع هؤلاء الصحابة الذين كان يملؤهم الخوف أن يتصوروا فى هذا الوقت أنه من الممكن أن يحدث لهم هذا الاستعلاء على الدنيا كلها ؟ إن أهم ما كان يشغلهم ، ويمثل أقصى أمانيهم ، أن ينام أحدهم ويصبح دون أن يتعرض له أحد ، فإذا بمن بيده المقادير ، ويعلم السر وأخفى يبشرهم بالتمكين ، ويحقق لهم ما وعدهم به .

٦ - ومن الإخبار بغيب المستقبل ، الحكم القاطع بعجز الخلق المؤبد عن الإتيان بمثل سورة من القرآن . قال تعالى : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى**

---

(٣٣) مسلم : كتاب الجهاد ، باب (٧٩) .

(٣٤) النور : ٥٥ .

وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾(٣٥)

إن من يتحدى الخلق كله ، إنسه وجنه بذلك ، إنما يعرض نفسه لخطر عظيم ، فهو إما أن يكون مجنونا لا يدرى ما يقوله ، وإما أن يكون كاذبا ، لا يهمه كلام الناس ، وإما أن يكون نبيا مؤيدا من الله .

ولم يثبت عن الرسول جنون ، أو كذب ، بل بلغ الرسول ﷺ قمة العقل ، وذرة الصدق ، فلم يبق إلا أن يكون نبيا ، إن القرآن لم يَتحدَّ أمة العرب فقط للإتيان بمثله ، ولم يخص جيلا دون جيل ، وإنما تحدى الكافة إلى يوم الدين . وقد جرت عادة الخلق إذا كان هناك من يتحداهم فى أمر من الأمور ، أن يهبوا لقبول التحدى ، ليثبتوا أنهم ليسوا بأقل ممن تحداهم إن لم يكونوا أفضل منه . ولكن الجيل المعاصر للنبى ﷺ يعجز ، ويعقبه جيل ثان وثالث ورابع وخامس وهكذا حتى وصلنا إلى القرن الخامس عشر ، دون أن يستطيع الخلق كله معارضة القرآن ، رغم الملايين التى تعمل ضده ، تريد القضاء عليه وعلى من آمن به ... مع أن الأمر سهل ميسور ، لا يتعدى التلفظ بكلام ، ولا يحتاج إلى قوة وسلاح ، وجهاد وكفاح . هل يمكن أن يفسر هذا إلا بأن القرآن من عند الله ، الذى تحدى الخلق ولا يزالون وسيظلون عاجزين ؟

٧ - ومن الإخبار بغيب المستقبل القطع الجازم بعدم تمنى اليهود المعاصرين للرسول ﷺ الموت ، حيث زعموا أن الجنة لن يدخلها إلا اليهود ، فتحداهم القرآن بتمنى الموت إن كانوا صادقين فى دعواهم ، وأخبر بأن هذا التمنى من هؤلاء المعاصرين لن يحدث أبدا قال تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾(٣٦)

إن هذا الموقف وحده يعرض الرسول ﷺ ، والإسلام كله للانهيار لو كان هناك أدنى كذب فى هذه الرسالة .. هل هناك عاقل يمكن أن

---

(٣٥) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣٦) البقرة : ٩٤ ، ٩٥ .

كان هناك أدنى كذب في هذه الرسالة .. هل هناك عاقل يمكن أن يغامر بمستقبله ومستقبل دعوته وأمته على كلمة يتلفظ بها عدوه ؛ حتى لو كان عدوه كاذبا فيما ينطق به . ما أيسر الأمر على اليهود لكى يبطلوا دعوة الرسول ﷺ ، ويثبتوا كذبه أن يقولوا بألسنتهم نحن نتمنى الموت ، ولكنهم يعلمون صدق القرآن ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام أشد من معرفتهم لأبنائهم ، ولذلك لم ينطقوا بها ، وإلا لمات المتلفظ بهذه الكلمة من لحظته.

٨ - ومن الإخبار بغيب المستقبل أن الله وعد رسوله مناما بدخول المسجد الحرام هو وأصحابه معتمرين ، آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين دون تحديد عام معين ورؤيا الأنبياء وحى ، لا بد وأن تقع . فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بهذه الرؤيا ، وظنوا أن هذا الوعد موعده عامهم هذا ، فخرجوا معتمرين إلى مكة ، فما أن وصلوا الحديبية حتى وقف كفار مكة فى وجوهم يصدونهم عن المسجد الحرام ، وكادت الحرب أن تقوم على ساقها ، لولا أن الله سلم ، وكف أيدى المؤمنين عنهم ، وأيديهم عن المؤمنين ، وانتهى الأمر بما عرف بصلح الحديبية ولم يعتمر المسلمون عامهم هذا ، ولقد وصل الأمر بهم إلى حالة نفسية غاية فى السوء ، ولكن المنافقين لم يكونوا يتركون هذا الموقف دون تشكيك فى النبى ﷺ ورسالته ، حيث قالوا والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾ [٣٧] الآية . لقد تضمنت هذه الآية ثلاثة وعود:

١ - دخول المسلمين مكة والمسجد الحرام

٢ - أداء العمرة كاملة

٣ - ضمان الأمن لهم ذهابا إلى مكة وإيابا إلى المدينة

---

(٣٧) الفتح : ٢٧ .

وقد وَفَّى الله بوعده ، بحوله وقوته ، فى العام الذى بعد صلح الحديبية مباشرة ، لقد كان من بين بنود صلح الحديبية أن يؤدى المسلمون عمرة القضاء فى العام التالى ولا يدخلون مكة بسلاح حرب ، ووافق المسلمون على ذلك .

إن هذا البند إن دل على شىء فإنما يدل على مدى الثقة التامة من المسلمين فى صدق الله فيما وعد به من غيب يتعلق بالمستقبل ، رغم معرفتهم بغدر قريش ، وأنها لن تجد فيهم فرصة أفضل من ذلك.

٩ - ومن الإخبار بغيب المستقبل ، الإخبار بسوء الخاتمة لشخص معين ، أو حدوث شر معين له . فمن النوع الأول ما أخبر به القرآن عن أبى لهب وامرأته ، حيث أخبر أنهما من أهل النار ، الذين سيعذبون أشد العذاب ، كما جاء فى سورة المسد :

﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد** ﴾ لقد كان فى مكنة أبى لهب - خداعا للنبى ﷺ وتشكيكا فى القرآن - أن يدعى الإسلام ولو ظاهرا طول حياته ، ليشكك الناس فيما أخبر به القرآن عنه أن سيموت على الكفر ، ويكون من أهل النار ... ولكن أبا جهل لم يستطع ذلك ، لأن الله علم بخاتمته فأخبر عنها ، فما مات إلا على الكفر ، ليلقى نارا ذات لهب كما حدث القرآن .

ومن النوع الثانى : ما جاء فى حق الوليد بن المغيرة ، حيث قال تعالى فى شأنه « سنسمه على الخرطوم » [٣٨] أى سنجعل له علامة مميزة ، وسمة خاصة ، وستكون تلك العلامة على أنفه .. كان هذا الوعيد بمكة والمسلمون قلة مستضعفة ، ويعتبر هذا الوعيد بالنسبة لقريش ضربا من الأوهام ، أو ما يرى فى أضغاث الأحلام ولكن يوم بدر يأتى ليتحقق هذا الوعيد ، ويضرب الوليد هذا بالسيف ضربة على

---

(٣٨) القلم : ١٦ .

أنفه ، لتسمه بهذه السمة الموعود بها ، ولتحقق للقرآن وجها آخر من وجوه إعجازه ، ألا وهى الإخبار بغيب المستقبل ، والوفاء بما تضمنه الخبر .

وهكذا يتبين لنا أن الإخبار بالغيب ، بأنواعه الثلاثة ، الماضى والحاضر والمستقبل يدل دلالة واضحة على أن القرآن من عند الله ، خاصة وأن كلا من الله ورسوله قد نفى أن يكون هناك مخلوق يطلع على الغيب إلا بإذن الله عز وجل .

الفصل الرابع

الوجه الرابع من وجوه الإعجاز
الإعجاز التشريعي

الوجه الرابع من وجوه الإعجاز

الإعجاز التشريعي

ويقصد من هذا الوجه أن القرآن الكريم اشتمل على منهج كامل وشامل لكل زوايا الحياة ، للفرد والمجتمع ، بحيث يشمل علاقة الفرد بنفسه وبأسرته ، وجيرانه وقبيلته ، وأبناء مجتمعه المؤمنين والكافرين ، وعلاقة الدولة المسلمة بغيرها من دول الكفر ، فى السلم والحرب ، وبحيث يشمل هذا المنهج زوايا الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها .

إن هذا المنهج يعنى علاقة المسلم والمجتمع المسلم بكل من وما فى الكون .

إنه منهج كامل ، كما قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (١)

هذا المنهج يضمن لمن يسيرون عليه خيريتهم على كل من عداهم ، قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (٢)

كما يضمن لهم حياة سعيدة فى الدنيا ، وفوزا عظيما فى الآخرة ، وإلا فقد عاشوا الشقاء ألوانا ، والعذاب أصنافا ، قال تعالى: ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾(٣)

إن هذا المنهج بشموله تعجز البشرية مجتمعة فى أى عصر من العصور عن وضع مثله فى ناحية واحدة من نواحى الحياة ، وليس فى كل نواحيها .

وتاريخ الإنسانية يشهد أن كثيرا من الفلاسفة والمصلحين ، حاولوا فى عصور مختلفة أن يضعوا للناس منهجا معينا فى ناحية واحدة من حياة الناس ، وهى الناحية الاجتماعية ، ليصلحوا لهم أحوالهم ، وليحققوا لهم الأمن

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

(٣) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ .

النفسى ، والاستقرار الاجتماعى ، والعدل بين الجميع ، ومحبة الكل للكل ، إلا أنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا.

والسبب فى ذلك واضح ، لأنهم يشرعون لغير صنعهتم ، ويقننون لمن هم مخلوقون مثلهم بأيدى غيرهم ، فلا يفرقون بين ما ينفعهم ، وما يضرهم ، ولا يميزون بين ما يصلحهم وما يفسدهم ، إضافة إلى أن هذه التشريعات البشرية تحمل الكثير فى طياتها من الرغبات الشخصية ، والمنافع الأنانية ، ومراعاة فئة دون أخرى ، علاوة على فصل الإنسان عن ربه ، وعزله عن منهجه .

أما المنهج القرآنى ، فهو منهجُ مَنْ خلق لمن خلق ، منهجُ مَنْ أحاط علما بالنفس وأحوالها ، وبالقلوب وتقلباتها ، منهج الذى يعلم السر وأخفى منهج الصانع لصنعته ، منهج من يحيط خبرا بكيفية صلاح الناس وفسادهم .

وحينما نقارن بين منهج القرآن ومنهج آخر غيره ، فهذا بمنزلة المقارنة بين الخالق والمخلوق ... وحينئذ يظهر الفرق بوضوح ..

إن هذا المنهج القرآنى يدل بكل وضوح على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من عند محمد بن عبد الله.

هل يعقل أن يأتى رجل مثل محمد ، بمنهج عجزت البشرية ، وستظل عاجزة إلى يوم الدين عن أن تضع مثله فى ناحية واحدة فقط من نواحيه ؟

هل يعقل أن يكون هذا المنهج الكامل الشامل ، الخالد ، المصون من التحريف والتبديل نابعا من عقل رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ؟

إن محمدا قد أقام بقرآنه هذا دولة فى حياته ، وهذا مالم يقع لأحد من الأنبياء السابقين .

إن الذين ينسبون لمحمد هذا القرآن ، وينسبون لله ما يسمى بالتوراة والأناجيل الموجودة بين أيديهم الآن ، إنما يرفعون محمدًا إلى درجة الألوهية ، ويضعون الإله - عز وجل - فى مصاف البشرية .

حيث بلغ القرآن من الإصلاح قمته ، وبلغ الكتاب المقدس من الزراية بالإله أسفلها .

يقول الشيخ محمد الغزالى أكرمه الله : « بحثت بجد فى طول القرآن وعرضه عما صنعه محمد لنفسه فى هذا الكتاب ، فلم أجد شيئا صنعه محمد لنفسه ، إلا أنه عبد لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، عبد فقير إلى الله كسائر العباد .

إن الحماس يشتعل فى الآيات النازلة على مدى ربع قرن ، تسبيحا لله وتمجيدا ، واقتلاعا للأهواء والخرافات ، التى صرفت الناس عن ربهم الكريم .

ماذا لمحمد فى هذا الكتاب الذى قالوا : إنه ألفه ؟

وقرأت الكتب المنسوبة إلى السماء فى زعم خصوم محمد ، فما فتئت أن قلت إن صح أن هذه الكتب من السماء وأن كتاب محمد من الأرض فمعنى هذا أن محمدا أقدر على صنع الدين من رب الدين ، وأنه أفصح فى الثناء على الله من الله ، عندما يتحدث عن نفسه »(٤)

ونحن فى هذا المجال لن نتعرض لكل ناحية من نواحى هذا المنهج ، لأن هذا - فوق كونه ليس مقدورا لنا - لا يكفيه مجلد أو مجلدان ، أو ثلاثة أو مائة ، بدون مبالغة ، وإنما يحتاج إلى مكتبة ضخمة متنوعة ، بكافة العلوم الشرعية والعربية ، وغيرها من مختلف المعارف الحديثة ، فى شتى المجالات .

والحمد لله ، فإن المكتبة الإسلامية فيها آلاف المجلدات ، التى تدور حول هذه الناحية من القرآن ، وهى ناحية التشريع .

ولا غرو ، فإن القرآن ما نزل إلا ليكون تشريعا للناس ، فى كل زوايا الحياة . وبناء على ذلك ، فإننا سنتناول الآن بمشيئة الله تعالى ، نماذج فقط فى بعض نواحى هذا التشريع القرآنى ، هذه النماذج تتعلق بما يأتى :

١ - بمجال العقيدة

٢ - ومجال العبادات ، فى بعض منها .

٣ - مجال من مجالات المعاملات ، وهو مجال المعاملات المالية

٤ - مجال التشريع الأخلاقى .

---

(٤) المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، للشيخ محمد الغزالى : ١٢ ط دار الصحوة .

فإلى الحديث عن هذه النواحى .

أولا : مجـــال العقيـــدة

بعث الرسول ﷺ ، والعالم كله عربه وعجمه ، لا يدين لله بدين صحيح ، وكما قال ﷺ ، عن هذه الفترة : « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » (٥)

حيث انقسموا إلى قسمين ، إما جاحدون لوجوده ، وهم الملاحدة الدهريون الذين يقولون إن الكون خلق هكذا بدون إله ، وإما معترفون بوجوده، ولكن مع شريك له ، وهذا الشريك إما بشر ، كعيسى بن مريم وأمه ، وإما حجر ، كما كانت تعتقد العرب فى أصنامها ، وإما بقر ، كما عند الهند ، وإما من كواكب ونجوم ، وغير ذلك من المخلوقات ، حتى أصبح الناس لا فرق بينهم وبين الأحجار والجمادات ، كما قال أحمد شوقى مخاطبا رسول الله ﷺ :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم (٦)

فلما جاء القرآن ، وضع لهم عقيدة راسخة ، لا يرون صورتهم الصحيحة إلا فيها ، حيث اتسمت بسمات ربانية ، وقامت على أركان ركينة

أما هذه السمات ، فكان أبرزها :

١ - الوضوح التام ، وعدم اللبس فى زاوية من زوايا هذه العقيدة ، فلم تقم كما قامت ديانات أخرى ، على مبدأ « اعتقد وأنت أعمى » أو « اغمض عينيك ثم اتبعنى »

٢ - قامت على أساس التفسير الصحيح للكون .

حيث قررت أنه يستحيل أن يوجد هذا الكون بنظامه البديع ، دون فعل فاعل ، كما قررت أن هذا الإله واحد لا شريك له .

٣ - كما قامت على أساس وجود حكمة عليا من خلق هذا الكون ، قال تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(٧) ، وقال أيضا :

---

(٥) مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الجنة ، باب (٦٣) .

(٦) الشوقيات ، قصيدة نهج البردة ١ / ١٩٧ ط المكتبة التجارية .

(٧) الذاريات : ٥٦ .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوا لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾[8] وقال أيضا : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[9] وقال أيضا : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[10]

أما عن أركان هذه العقيدة ، فهى كالتالى :

« أ » الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له

ورغم أن مسألة وجود الله ، ووحدانيته ، وعدم شريك له ، أسمى من أن تكون قضية يقال فيها قيل وقال

ورغم أن عميان البشر ، الذين مسخوا فطرتهم ، وشوهوا خلقتهم وخلقهم ، أسفل رتبة من أن يهتم الله بشأنهم ، ويناقشهم فى سفالتهم .

رغم هذا كله فإن الله عز وجل - كيلا يكون لهم عليه حجة يوم القيامة - أقام لهم من الأدلة ما يؤكد على وحدانيته ، وما يفند سفالاتهم تلك ، وبين لهم أن تلك السفالات مصدرها الكبر الكاذب ، الذى لا يستند إلى ركن ركين ، أو علم صحيح .

قال تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾[11]

لقد وجدت فى القرآن نصا قليل الالفاظ ، يعرف الانسان بربه ، ويكشف له من أسمائه الحسنى ما به يؤمن ويذعن ، هذا النص الواحد جاء فى حوالى عشرة أسطر ، ولكنه احتوى من أسماء الله وصفاته على ستة عشر اسما وصفة ، ليشد الناس إلى بارئهم بألف رباط ورباط .

تدبر معى هذا النص فى سورة الحج ، حيث يقول تعالى :

---

(٨) الأنبياء : ١٦ ، ١٧ .

(٩) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

(١٠) القيامة : ٣٦ .

(١١) غافر : ٥٦ .

﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم ، ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ، ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ، ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾(١٢)

لقد تضمنت هذه الآيات القليلة الألفاظ العظيم من أسماء الله وصفاته الآتية :

١ - الله	٢ - الرزاق
٣،٤ : ﴿ العليم الحليم ﴾	٥، ٦ ﴿ العفو الغفور ﴾
٧، ٨ ﴿ السميع البصير ﴾	٨، ٩، ١٠ ﴿ الحق ، العلى ، الكبير ﴾
١١، ١٢ ﴿ اللطيف ، الخبير ﴾	١٣ ، ١٤ ﴿ الغنى ، الحميد ﴾
١٥ ، ١٦ ﴿ الرءوف ، الرحيم ﴾ .	

إن التدبر فى أسماء الله وصفاته ، ليوجب على الإنسان إفراده بالوحدانية ، والسير على هداه .

والملاحظ فى الآيات القرآنية - فى مجال التوحيد - أن الله عز وجل نوع الأدلة الدالة على ذلك ، حتى رأينا منها ، ضروبا شتى ..

وعلى رأس هذه الأدلة :

أ - أدلة الخلق : والمقصود من هذه الأدلة ، أن هذا الكون بما فيه من مخلوقات علوية وأرضية ، لا بد له من موجد ، إذ يستحيل أن يكون

---

(١٢) الحج : ٥٨ - ٦٥ .

هذا الكون كله قد خلق من غير خالق ، أو أنه خلق نفسه بنفسه ، فكل فعل لا بد له من فاعل ، وكذلك فالصنعة لا تصنع نفسها .

وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** ﴾(١٣) إلى غير ذلك من الآيات التى ملىء بها القرآن الكريم .

ب - أدلة التناسق . ويقصد منها أن هذه المخلوقات التى خلقها الله عز وجل لم تخلق وفقط ، ولكن هناك من التناسق بينها ما يعجز العقل عن إدراك الكثير منه ، بل ما اكتشف العلم إلا النادر من هذا التناسق بين خلق الله تعالى .

ولننظر مثلا إلى جسد الإنسان ، حيث نجد فيه من الأجهزة الكثير والكثير ، وبين هذه الأجهزة من التناسق ما يحار الإنسان فيه ، ولا يملك إلا أن يخر ساجدا لمن خلقه وسواه ، وقدر لكل عضو فيه عمله وهداه .

وما ينطبق على الإنسان ، الكائن الصغير ، ينطبق على الكون الكبير ، فما خَلْق الإنسان بأعظم من خَلْق هذا الكون .

قال تعالى : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(١٤) خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ، وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾(١٥)

---

(١٣) الطور : ٣٥ ، ٣٦ .

(١٤) غافر : ٥٧ .

(١٥) يس : ٣٣ - ٤٠ .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا** ﴾(١٦)

وقوله تعالى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ (١٧) إلى غير ذلك من مئات الآيات التى تبين مدى الارتباط التام بين كل المخلوقات ، والتى تبين أنه ما من مخلوق إلا وهو مخلوق بحكمة الحكيم ، العليم الخبير.

وكما اتخذ القرآن من الخلق دليلا على وجود الله فقد اتخذ منه أيضا دليلا على نفى الشريك له ، عز وجل .

خذ مثلا نصا واحدا وتأمل فيه ، لترى كيف يصل القرآن بالخلق إلى الخالق واحدا لا شريك له

قال تعالى : ﴿ **أَمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أَمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعملون ، أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى عما يشركون أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾(١٨)

وطالب تعالى - من خلال خلقه السموات والأرض - من يدعى وجود شريك له أن يأتى بدليل علمى ، غير قابل للنقد .

قال تعالى: ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من**

(١٦) فاطر : ٤١ .

(١٧) الحجر : ١٩ .

(١٨) النمل : ٦٠ - ٦٤

علم إن كنتم صادقين ﴾[١٩] وكما نفى القرآن عن الله وجود شريك له ، فقد نفى عنه أيضا أن يكون له ولد ، واعتبر ذلك ادعاء شنيعا تكاد السموات والأرض والجبال من شناعته تتصدع وتتهدم ، لولا قدرة الله وقدره .

قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾[٢٠]

وعلل القرآن نفى الولد عن الله بأن اتخاذه يعنى الحاجة إليه ، والله غنى عن العالمين ، قال تعالى: ﴿ **قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٢١] وبين غباء من ادعى ولدا لله فقال : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء** ﴾[٢٢]

إن الولد لا يأتى إلا من أم وأب ، والله عز وجل منزه عن الزواج ، والشهوة واتخاذ امرأة ، فكيف أتى له هذا الولد ؟

وحينما ظن النصارى أن عدم وجود أب للمسيح عليه السلام يعنى رفعه إلى درجة الألوهية ، خطأهم الله فى ذلك ، وبين لهم أن ذلك إنما كان بقدرته عز وجل ، وهى تفعل العجب العجاب ، والله يخلق من يشاء كيفما شاء .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** ﴾[٢٣] وقال ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض**

---

(١٩) الأحقاف : ٤ .
(٢٠) مريم : ٨٨ - ٩٥ .
(٢١) يونس : ٦٨ .
(٢٢) الأنعام : ١٠١ .
(٢٣) المؤمنون : ٥٠ .

وما بينها يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾[٢٤]

إن المسيح وأمه والعالم كله مرهون بإرادة الله تعالى وقدرته وقدره ، فهو يخلق ما يشاء ومن يشاء كيفما شاء ، ولأي شيء شاء ، لأنه على كل شيء قدير .

(ب ، جـ ، د) : الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله

ومن أركان هذه العقيدة أيضا أن لله رسلا من السماء هم الملائكة ، ورسلا من الأرض ، هم بشر فإذا أراد الله إنزال كتاب لأهل الأرض نزلت الملائكة بهذا الكتاب ، إلى الرسول البشرى ، ليبلغه إلى قومه .

والقرآن أوجب الإيمان بكل الملائكة ، وبكل الرسل وبكل الكتب ، فمن أنكر واحدا فقد كفر بالجميع .

قال تعالى : **﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾**[٢٥] وقال أيضا : **﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾**[٢٦]

(هـ) الإيمان باليوم الآخر

ومن أركان هذه العقيدة التى أتى بها هذا القرآن المعجز ، البعث بعد الموت ، فقد كان الناس يعتقدون أن لا حياة مرة أخرى بعد الموت ، وكانوا يقولون ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

ومن كان يؤمن بالحياة بعد الموت ، فقد يؤمن بها على صورة غير صحيحة ، كأن يقول إن الحياة هذه حياة روحية لا جسدية إلى غير ذلك من الصور المشوهة ، التى تشجع من يؤمن بها على ارتكاب الرذيلة ومحاربة الفضيلة .

إلى أن جاء القرآن ، فقرر للناس أن موتهم هذا ما هو إلا انتقال من دار إلى

---

(٢٤) المائدة : ١٧ .

(٢٥) البقرة : ٩٨ .

(٢٦) البقرة : ٢٨٥ .

دار ، وأن هناك موعدا محددا لن يتخلف يقوم الناس فيه لرب العالمين ، ليحاسب كلا بما عمل ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

إن من أيقن أنه مبعوث بعد الموت ، ومحاسب على ما عمل فى حياته ، لا بد وأن يعمل لما فيه صلاح نفسه ، وصلاح الكون كله ، وسيسلم الناس من أذاه ، ومن لم يؤمن بالبعث بعد الموت فإنه ينطلق فى الدنيا يعيث فيها فسادا ، لا هم له إلا التمتع بالشهوات ، غير مفرق بين الحلال والحرام ، ضاربا بمصلحة الجميع عرض الحائط ، ولو كان ذلك على حساب أمنهم وأموالهم وأعراضهم .

وهذا ما يفسر لنا مسلك اليهود فى الحياة ، حيث لا نرى فى أسفار موسى الخمسة ، والتى تسمى التوراة ، أو العهد القديم ، ذكرا للبعث بعد الموت ، أو جزاء على العمل فى الحياة ، لم نر فيها ترغيبا واحدًا فى الجنة ، أو ترهيبا واحدًا من النار .

إن هذا تحريف للتوراة التى أنزلها الله عز وجل على موسى ، فمن المستحيل أن يخلو كتاب سماوى من ذكر البعث ، والجنة والنار .

إن قرآننا يحدثنا عن أول لقاء حدث بين موسى وربه ، حيث جاء فيه خطاب الله لموسى ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾(٢٧)

وفى التدليل على البعث بعد الموت ، وقدرة الله عز وجل عليه ، اتخذ القرآن مسالك عدة ، فقد استدل عليه بخلق الإنسان ، حيث قال : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم** ﴾(٢٨)

واستدل بخلق السموات والأرض ، فقال ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾(٢٩)

---

(٢٧) طه : ١٤ ، ١٥ .

(٢٨) الحج : ٥ .

(٢٩) الأحقاب : ٣٣ .

واستدل بقياس الإعادة على البدء ، حيث قال ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾[٣٠] وقال ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[٣١] وبإحياء الأرض بعد موتها ، وبغير ذلك من طرق كثيرة .

لقد اعتبر القرآن البعث بعد الموت تكريما للإنسان ، وعدلا بين بنى البشر. أما كونه تكريما للإنسان : فإن هذه الدنيا لو كانت كما يقول المنكرون ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ، لكانت عبثا ، وكان كل جهد فيها ضائعا ، وكان الانتحار أفضل من الاستمرار.

لقد أصاب الشيخ محمد الغزالى أكرمه الله ، حينما وصف هؤلاء المنكرين للبعث بقوله : «إنهم يظنون أنهم مربوطون بأعباء الحياة ، كما تربط الحمير بعربات القمامة ، تظل تدور بها حتى يغلبها الإعياء ، وتدركها الشيخوخة ، فتموت حتف أنفها ، أو يطلق عليها الرصاص ثم لا شىء »[٣٢]

أما كون البعث عدلا لبنى البشر ، فإن واقعنا يشهد بوقوع ظلم من بعض البشر لبعضهم ، وكثيرا ما تعلو الرذيلة على الفضيلة ، ويبغى دعاة الباطل على أهل الحق ، أفيكون من العدل أن تنتهى هذه الحياة بدون أن تكون هناك آخرة ، فيها يقف الكل أمام الواحد الديان ، وينال الصالحون جزاء ما عملوا من خير ، وما قدموا من صالح ، ويجد المفسدون الطغاة جزاء فسادهم وإفسادهم وطغيانهم ؟

(و) : الإيمان بالقدر

كذلك من أركان الإيمان الإيمان بأن كل ما يجرى فى هذا الكون إنما يجرى بعلمه عز وجل وبإرادته ، فلا يقع فى الكون إلا ما يريده ، دون أن يجبر أحد على فعل ذنب .

وأن كل هذا مدون فى اللوح المحفوظ قبل أن يبرأ الله الدنيا وما فيها ومن فيها . فالله علم كل ما سيقع فى هذه الحياة ، فدونه فى اللوح المحفوظ ، ثم

---

(٣٠) الأعراف : ٢٩ .
(٣١) الروم : ٢٧ .
(٣٢) عقيدة المسلم : ٢٨٠ .

خلق عباده لتجرى عليهم أقداره ، حسبما علم عنهم ودونه عنده .

هذا باختصار شديد شيء عن العقيدة الإسلامية التي جاء بها القرآن ، وشرعها للناس .

أَمِنْ مقدور محمد الرجل الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا جالس العلماء ، ولا خالط الحكماء أن يأتى بعقيدة مثل هذه العقيدة .

تلك العقيدة التى تحقق للإنسان إنسانيته ، وللإنسانية حياتها ، وللحياة بهجتها ، وللبهجة صفاءها .

ثـانيـا : الـعـبـادات

ومن التشريع القرآنى للناس تشريع العبادات .. والعبادات جمع عبادة ، وهى فى اللغة : الخضوع والطاعة والذل ، والتنسك ، يقال : تعبد فلان لفلان ، إذا تذلل له ، ويقولون طريق معبد ، أى مذلل بكثرة السير عليه .

ويراد منها شرعا : غاية الطاعة ، والمحبة لله تعالى ... ، فلا بد من المحبة مع الطاعة ، إذ قد يطيع المنافق دون محبة قلبية لمن يطيع .

فى أى الميادين تكون العبادة ؟

وإذا كانت العبادة بمعناها الشرعى تعنى غاية الطاعة ، وغاية المحبة ، لله تعالى ، فهى إذًا تعنى شمول كل ما يحبه الله ويرضاه ، قولا أو عملا مما يتعلق بأمور الدين والدنيا معا .

فهى تشمل شعائر الإسلام ، من صلاة وزكاة وصيام وحج ، كما تشمل الأخلاق الفاضلة ، كالصدق والوفاء بالعهد وغيرهما ، وتشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

« العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصيام ، والحج ، وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان إلى الجار واليتيم ،

والمسكين ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله » الخ [٣٣]

الحياة كلها ميدان للعبادة

يقول تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ [٣٤]

أفاد هذا القول الكريم أن حياة المسلم كلها يجب أن تكون سائرة على منهج الله عز وجل ، وأن كل عمل دنيوى يقصد به وجه الله عز وجل ، فهو عبادة .

وقد نصت الأحاديث النبوية الشريفة على ذلك أيضا ، حتى اعتبرت تبسم الإنسان فى وجه أخيه صدقة ، وغرس الزرع عملا يثاب عليه ، وإتيان الرجل زوجته ، له به أجر ..

شعائر الإسلام رأس العبادات

وإذا كانت العبادة تعنى كل ما يحبه الله ويرضاه قولا وفعلا ، فإن العلماء حينما يطلقون مصطلح « العبادات » ، ويريدون منه الصلاة والزكاة والصيام والحج ، فإنما يقصدون أنها رأس العبادات ، إذهى شعائر ، لها كيفيات خاصة ، ومواقيت ومقادير محددة ، غير قابلة للتعديل ، بأى صورة من الصور ، مع اعترافهم بأن فعل كل ما يحبه الله ويرضاه ، بقصد طاعة الله ، وحبه ، يطلق عليه عبادة .

الطاعة لا تتوقف على معرفة الحكمة

وقبل أن نتعرض للحديث عن بعض شعائر الإسلام ، نحب أن نشير إلى أمر فى غاية الأهمية ، حيث إن العبودية لا تتحقق إلا به ، وهى أن الطاعة لا تتوقف على معرفة الطائع للحكمة التى من أجلها يعمل أو يترك ، وإلا لما سميت طاعة ، ولا عبادة .

فما دمنا قد آمنا بالله وبقرآنه ، عن دليل وبرهان ، لا عن تقليد أعمى ، كما

---

(٣٣) العبودية ، لابن تيمية :٣ ط المطبعة السلفية

(٣٤) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

عند آخرين ، وما دمنا قد وثقنا فى أن الله لا يأمرولا ينهى إلا بما هو فيه خير البشر ، فليس من حقنا أن نطلب الحكمة ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا .

إن المريض إذا وثق فى طبيبه فإنه لا يناقشه ، فى الأدوية التى يأمره بأخذها ، ولا بسر تركيب كل دواء ، فكذلك - ولله المثل الأعلى - على المسلم أن يثق فى الله ولا يناقشه فيما يأمره به وينهاه عنه .

والصيدلى يضع لكل دواء مقدارا ووزنا ، ونوعا من العناصر ، تختلف من دواء لآخر ، لعلمه بسر ذلك . ، فكذلك الله ، ولله المثل الأعلى ، ولا وجه للمقارنة هنا ، وإنما الكلام على سبيل التقريب فيجب على المسلم تمام الامتثال ، وغاية الاتكال ، سواء ظهرت الحكمة أم لم تظهر، فالله لا يفعل إلا ما فيه سعادة العباد ، فى العاجل والآجل .

ونحن فى هذا المقام ، مقام التشريع للعبادات ، للتدليل على أنه من المستحيل أن يكون هذا التشريع من وضع محمد بن عبد الله سنختار ثلاثة أنواع فقط من العبادات نتكلم عليها ، لتكون دليلا على غيرها أيضا .

سنختار : ١ - الصلاة ٢ - والزكاة ٣ - والصيام

فإلى الحديث عن كل شعيرة منها بشىء وسط بين الإيجاز والإطناب ، فنقول وبالله التوفيق :

(أ) الصــــلاة .

الصلاة شعيرة مفروضة ، على كل نبى وقومه ، فهى معروفة من القدم ، غير مجهولة .

١ - دعا إبراهيم ربه فقال : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى** ﴾[٣٥]

٢ - وأثنى الله على إسماعيل فقال : ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾[٣٦]

---

(٣٥) إبراهيم : ٤٠

(٣٦) مريم : ٥٥ .

٣ - وأمر الله بها موسى فقال : ﴿ **فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾(٣٧)

٤ - وأمر بها موسى وهارون وقومهما فقال : ﴿ **أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة** ﴾(٣٨)

٥ - وأول كلام نطق به المسيح حين ولد ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا** ﴾(٣٩)

٦ - ومما أوصى به لقمان ابنه وهو يعظه ﴿ **يابنى أقم الصلاة** ﴾(٤٠)

٧ - وبها أمرالله رسوله ، وأهله ، وأمته ، حيث قال : ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة** ﴾(٤١) وقال : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾(٤٢) وقال : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾(٤٣)

مكـــانة الصـــلاة

وتبدو أهمية الصلاة ومكانتها من حيث كونها :

١ - أول شعيرة من شعائر الإسلام ، تفرض على المسلمين فى العهد المكى .

٢ - الركن الثانى من أركان الإسلام ، بعد الشهادتين .

٣ - كانت آخر وصية لرسول الله ﷺ ، أوصى بها أمته ، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، حيث قال : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم »(٤٤)

٤ - هى الفيصل بين الإيمان والكفر ، قال ﷺ « العهد الذى بيننا وبينهم

---

(٣٧) طه : ١٤ .

(٣٨) يونس : ٨٧ .

(٣٩) مريم : ٣٠ ، ٣١ .

(٤٠) لقمان : ١٧ .

(٤١) العنكبوت : ٤٥ .

(٤٢) طه : ١٣٢ .

(٤٣) البقرة : ٢٣٨ .

(٤٤) أخرجه أحمد فى مسنده : ١ /٧٨ ، وابن ماجه فى كتاب الجنائز ، باب (٦٤) .

الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »[٤٥]

٥ - هى مناجاة بين العبد وربه ، ولذا جاء فى الحديث « إذا قام أحدكم يصلى فإنه يناجى ربه »[٤٦]

٦ - كثيرا ما افتتحت بها أعمال الخير ، مثل : ﴿ **قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾[٤٧] الآيات

ومثل قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم** ﴾[٤٨] الآيات ، وغيرها .

٧ - أوجبها الشرع على المسلم فى كل حال ، مادام فيه قلب ينبض ، ولذلك لم تسقط عنه ، حال الحرب ، أو المرض . قال تعالى : ﴿ **فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾[٤٩]

٨ - لا تسقط الصلاة بفقدان الماء ، فمن فقده فعليه أن يتيمم قال تعالى: ﴿**فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا** ﴾[٥٠]

٩ - جاء الوعيد الشديد على تركها ، قال تعالى : ﴿ **فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[٥١] ، وقال : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾[٥٢]

---

(٤٥) أخرجه أحمد فى مسنده ٥ /٣٤٦ ، وابن ماجه فى كتاب الإقامة ، باب (٧٧) وغيرهما .

(٤٦) أخرجه : أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة ، باب (٨) ، ومسلم فى كتاب المساجد باب (٥٤) .

(٤٧) المؤمنون : ١ -٩ .

(٤٨) المعارج : ١٩ - ٢٥ .

(٤٩) البقرة : ٢٣٩ .

(٥٠) النساء : ٤٣ والمائدة ٦ .

(٥١) الماعون : ٤ ، ٥ .

(٥٢) مريم : ٥٩ .

المتدبر فى آيات القرآن ، الخاصة بالصلاة ، يراها دائمًا موصوفة بالإقامة ، دون الأداء ، مثل : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة** ﴾(٥٣) ، ومثل ﴿ **وأقام الصلاة وآتى الزكاة** ﴾(٥٤) ، ومثل : ﴿ **والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة** ﴾(٥٥) ، ومثل ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾(٥٦)

... وفرق بين إقامة الصلاة ، وبين أدائها .

إن الإنسان قد يؤدى الصلاة تامة الأقوال ، كاملة الأفعال ، ولكن قلبه ساه ، وعقله لاه ، فلا يعقل ما يقول ، ولا يتدبر فيما يردد ، ثم تنتهى صلاته دون إضافة جديد لإيمانه ، ودون عزم على تغيير سلوكه إلى الأفضل ، والنتيجة أنه لم يصل وإن كان قد صلى.

إن الصلاة لا يقصد بأدائها التخلص من فرضيتها ، إنها بهذا التصور تكون عبئا ثقيلا ، يطلب من صاحبه إزاحته من على قلبه ... وهذا مفهوم خاطىء ، فالصلاة علاج ، لطمأنينة القلب ، وهدوء النفس ، وانشراح الصدر ، وراحة الأعصاب ، ولذلك يقول ﷺ : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »(٥٧)

إن الصلاة لا تؤتى الثمار المرجوة منها ، والتى سنتحدث عنها الآن إن شاء الله تعالى إلا إذا كانت تامة الأقوال والأفعال ، والأركان والسنن والهيئات والخشوع والتدبر فيما يتلى ويذكر ، وبنية القرب من الله عز وجل ، والبعد عن كل ما يغضبه تعالى.

وهذا هو معنى إقامة الصلاة ، وهذه هى الصلاة المرادة .

---

(٥٣) البقرة :٣ .
(٥٤) البقرة : ١٧٧ .
(٥٥) النساء : ١٦٢ .
(٥٦) البقرة : ٤٣ .
(٥٧) أخرجه أحمد فى مسنده : ٣ / ١٢٨ .

والمتأمل فى آيات القرآن كذلك ، يرى أن أمر المسلمين بها إنما جاء بصيغة الجمع ، فالصلاة المفروضة مكانها المسجد الجامع ، وليس البيت ، ولذلك هم الرسول ﷺ بتحريق بيوت قوم يتخلفون عن صلاة الجماعة .

إن الصلاة فى البيت سمة من سمات المنافقين .

روى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « من سره أن يلقى الله غدا مسلما ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى .

وإنكم لوصليتم فى بيوتكم ، كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم .

وما من رجل يتطهر ، فيحسن الطهور ، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة .

ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها - أى الصلاة جماعة - إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به ، يتهادى بين الرجلين ، يسندانه لمرضه ، حتى يقام فى الصف »(٥٨)

من ثمرات الصلاة

للصلاة مزايا جمة ، يعود أثرها على الفرد والمجتمع معا ، ونحن فى هذه العجالة نقتطف بعضا منها ...

١ - الصلاة نظافة وتجمل

لا دين أنظف من دين الإسلام .... حقيقة واقعة ، يشهد بها كل من اطلع على فقه الإسلام ، أو عايش مسلما مطبقا فقه دينه .

---

(٥٨) أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ، باب (٢٥٧) ؛ وأحمد فى مسنده : ١ /٣٨٢ .

وما عدا الإسلام فلن تجد فيه نظافة تليق بقيمة الإنسان ، ولن تجد فيه جمالا يليق بمن كرمه الله وفضله على كثير من خلقه .

حتى هؤلاء الذين ادعوا أنهم منقطعون لعبادة الله ، وترهبنوا ابتغاء مرضاته ، والذين هم أسوة لغيرهم ، قد ضلوا السبيل إلى ما يحبه الله من كون الإنسان طاهرا نظيفا جميلا .

تحت عنوان « عجائب الرهبان » من كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، يقول أبو الحسن الندوى رحمه الله عن هؤلاء الرهبان :

« كانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ، ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة ، وأوغلهم فى النجاسات والدنس ، يقول الراهب « تهينس » إن الراهب أنتونى » لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب « أبراهام » لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الاسكندرى بعد زمن متلهفا : « واأسفاه » لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه حراما ، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات » (٥٩)

إن القرآن الكريم على النقيض من هذا تماما ، فقد فرض النظافة على الناس فرضا ، منذ الآيات الأولى التى أنزلها الله عز وجل ، حيث جاء فى سورة المدثر : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾(٦٠) ، ولا تقبل صلاة إلا إذا كانت على طهارة وفى ثوب طاهر ، ومكان طاهر ، والنصوص فى ذلك معروفة . واعتبر الإسلام التطهر علامة من علامات حب الله لعبده ، قال تعالى : ﴿ **والله يحب المطهرين** ﴾ (٦١)

وكما أمر الله المسلمين بالتطهر للصلاة ، أمرهم بالتزين والتجمل لها ، قال تعالى : ﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾(٦٢)

---

(٥٩) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٦٨ ط دار الكتاب العربى بيروت .

(٦٠) المدثر: ٤ .

(٦١) التوبة : ١٠٨ .

(٦٢) الأعراف : ٣١ .

٢ - الصلاة حصن من الانحرافات والموبقات

يقول تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾(٦٣) .

هذه الآية الكريمة تبين لنا ميزة كبرى من ميزات الصلاة ، ألا وهى وقاية المصلى من الانحرافات السلوكية المشينة ، وصيانة المجتمع من أثر هذه الانحرافات الخطيرة .

فالذى لا يصلى لا يجد رادعا يردعه عن ارتكاب أى محرم ، تافها كان أو كبيرا .

ويلحق بهؤلاء الذين لا يصلون ، أولئك الذين يصلون بدون خشوع وتدبر حيث يؤدونها بجوارحهم ، بينما عقولهم وقلوبهم فى واد آخر .

ولذلك نجد أخلاقهم قد ساءت ، وسلوكهم قد انحرف .

لذا لم يكتف القرآن بإيجاب المحافظة عليها فقط ، بل أوجب مع ذلك الخشوع فيها ، بل إنه ذكر صفة الخشوع ، قبل صفة المحافظة عليها .

انظر إلى صدر سورة « المؤمنون » تجد أول صفة من صفات هؤلاء المؤمنين هى ﴿الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ ، وآخر صفة من هذه الصفات المذكورة هى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ .

ولذلك جاء الوعيد الشديد للمتظاهرين بها ، دون أن يكون وجه الله هو هدفهم ، ودون أن يكون الوصول إلى أسمى الأخلاق هو غايتهم ، قال تعالى : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ﴾(٦٤)

٣ - الصلاة علاج للنفس والبدن

من سنن الله فى الحياة ، ابتلاء الإنسان بمصائب متنوعة ، فإذا كان ضعيف

---

(٦٣) العنكبوت : ٤٥ .

(٦٤) الماعون : ٤ - ٧ .

النفس جزع وخار ، وربما ترتب على جزعه وخوره من الآلام النفسية والعضوية أضعاف ما كان سببا فى همه وغمه ابتداء.

وقد أرشد القرآن إلى مابه تقوى نفس الإنسان ، لتصمد أمام تلك الابتلاءات ، فلا تخور ولا تجزع ، حتى لا تصاب بالأمراض النفسية والعضوية .

وكان من أعظم ما أرشد به القرآن فى هذا الوقاية بالصلاة ، قال تعالى: ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين** ﴾(٦٥) وقال : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾(٦٦)

وكان من هدى النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول لبلال : « أرحنا بالصلاة يا بلال » (٦٧)

يقول الدكتور « **توماس هايسلوب** » ، وهو غير مسلم :

« إن من أهم مقومات النوم التى عرفتها فى خلال سنين طويلة ، من الخبرة والتجريب ، الصلاة ، وأنا ألقى هذا القول بوصفى طبيبا ، فإن الصلاة هى أهم وسيلة عرفت إلى الآن ، لبث الطمأنينة فى النفوس ، وبث الهدوء فى الأعصاب » (٦٨)

بل إن تأثير الصلاة جاوز التأثير الروحى ، إلى التأثير العضوى ، فى علاج كثير من الأمراض العضوية .

يقول الدكتور « **الكسيس كارليل** » الحائز على جائزة نوبل فى الطب ، ورئيس قسم البحوث فى مؤسسة روكفلر بأمريكا ، عن الصلاة :

« إنها تحدث بعض النشاط فى أجهزة الجسم وأعضائه ، بل هى أعظم مولد للنشاط عرف إلى يومنا هذا .

وقد رأيت بوصفى طبيبا ، كثيرا من المرضى ، أخفقت العقاقير فى

---

(٦٥) المعارج : ١٩ - ٢٢ .
(٦٦) البقرة : ٤٥ .
(٦٧) أخرجه أحمد فى مسنده : ٥ /٣٧١ .
(٦٨) الإعجاز العلمى فى الإسلام ، لمحمد كامل عبد الصمد : ٢٩٦ .

علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزا وتسليما ، تدخلت الصلاة ، فأبرأتهم من عللهم.

إن الصلاة كمعدن الراديوم ، مصدر للإشعاع ، ومولد ذاتى للنشاط ، فقد شاهدنا تأثير الصلاة فى الحالات الباثولوجية ، إذ برىء كثير من المرضى ، من أمراض مختلفة متعددة ، كالتدرن البريتونى ، والتهاب العظام ، والجروح المتقيحة ، والسرطان ، وغيره »(٦٩)

وعن الصلاة وفائدتها للجسم ، يقول عبد الرزاق نوفل:

« وقد ثبت علميا أن الركوع والقيام والسجود ، يقوى عضلات الظهر والمعدة ، ويزيل ما قد يتكون على جدار المعدة ، من دهون وشحوم .

أما السجود فإنه يقوى عضلات الفخدين والساقين ، ويساعد على وصول الدم إلى أطراف الجسم ، كما أنه يقوى جدار المعدة ، وينبه حركات الأمعاء ، ويعتبر وقاية من أعراض مرض تمدد المعدة ، بما يسببه ، من تقلص عضلاتها ، وتحريك الحجاب الحاجز .

من هنا تعتبر الصلاة أفضل رياضة بدنية يستفيد منها الجسم ، إذ أنها تحرك الأطراف التى تصل حركتها إلى كافة العضلات ، والمفاصل والعظام ، وتعمل على خفض الدم العالى ، وإن مرضى الضغط العالى لو حافظوا على أداء الصلاة ، وأقاموها على مهل وتؤدة ، لأفادت فائدة محققة .(٧٠)

٤ - الصلاة نظام

قلنا إن الصلاة المفروضة ، إنما تؤدى فى المسجد جماعة ، وهناك يقف الجميع صفوفا مستقيمة ، خلف إمام واحد ، لا يتحركون ، ولا يسكنون إلا بحركته وسكونه .

لا يكبرون إلا إذا كبر ، وإذا قرأ القرآن استمعوا وأنصتوا ، وإذا ركع ركعوا ، وإذا سجد سجدوا ، وإذا جلس جلسوا ، وإذا سلم سلموا .

---

(٦٩) الإعجاز العلمى فى الإسلام ٢٩٧ .

(٧٠) المصدر السابق : ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ومن خالفه فى شىء من ذلك ، بطلت صلاته ، حيث أصبح خارجا عن النظام ، بل إن الشرع يعتبره خارجا عن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان.

قال ﷺ: « أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار»(٧١)

إن الصلاة بهذه الكيفية تعنى :

١ - احترام القادة وأولى الأمر ، وطاعتهم فى المعروف .

٢ - احترام النظام العام للدولة الإسلامية .

٣ - ذم الفوضى .

وعلى هذا : فالصلاة تجعل من المسلمين قوما يمتازون على كل من عداهم .

وقد اعترف بذلك الآخرون :

يقول « **توماس آرنولد** » عن الصلاة (٧٢) :

« هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات ، المميزة للمسلمين عن غيرهم ، فى حياتهم الدينية ، فكثيرا ما لاحظ السائحون وغيرهم فى بلاد الشرق ، ما لكيفية أدائه من التأثير فى النفوس » ا .هـ

الصلاة تحقق المساواة والأخوة بين المصلين

يذهب المسلم إلى المسجد ، فلا يجد مكانا خاصا بالفقراء ، وثانيا ، للأغنياء، وثالثا للسادة ، ورابعا للخفراء ، وخامسا للوزراء وسادسا لعمال القمامة .، بل حيث ينتهى المجلس بأى شخص جلس ، حيث المساواة بين الجميع ، إذ ترى عامل القمامة يلاصق كتفه كتف وزير من الوزراء ، أوقائد من القادة - دع عنك ما يفعله من برىء الإسلام من تصرفاتهم ، ففرق بين الإسلام والمسلمين.

إن اجتماع أهل الحى الواحد فى المسجد خمس مرات يوميا ، ليستقبلوا قبلة واحدة ويصلوا خلف إمام واحد ، يتلو كتابا واحدا ، يؤثر فيهم تأثيرا يجاوز

---

(٧١) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان ، باب (٥٣) ، ومسلم فى كتاب الصلاة ، باب (١١٤) .

(٧٢) كما جاء فى « العبادة فى الإسلام » للدكتور يوسف القرضاوى : ٢٣١.

التلاصق السطحى ، إلى التآلف القلبى ، فيجعل من الجميع شخصا واحدا فى المظهر والمخبر . ويظهر هذا الإخاء والتساوى بصورة أوضح ، حينما ترى المسجد الواحد يضم أفرادًا من أقطار الدنيا كلها ، كما هو الحال فى المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، أو فى أى مسجد من مساجد دول الخليج العربى ، التى تجمع مصلين من كافة الأقطار ، حيث ترى الجميع ، رغم اختلاف أوطانهم ، وألسنتهم ، وألوانهم ، ولغتهم ، ووظائفهم ، يقفون متلاصقين ، لا اعتبار لأى شىء من هذه الأشياء ولا غيرها ، الاعتبار الوحيد فقط هو : الإسلام ، فهو الذى حقق لهم هذا الإخاء وتلك المساواة .

قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[٧٣]

إن هذه الصلاة ، إذا لم تحقق المراد منها ، من الألفة ، وانتزاع البغضاء من بين قلوب المصلين ، فلا فائدة منها .

قال ﷺ : « ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرا ، رجل أَمَّ قوما وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان »[٧٤] أى متقاطعان

إن غير المسلمين يحسدون المسلمين على صلاتهم تلك ، لما تحققه لهم من مزايا عظيمة .

يقول الفيلسوف الفرنسى « رينان »[٧٥] المعروف بعدائه للإسلام والعرب :« إننى لم أدخل مسجدا من مساجد المسلمين ، من غير أن أهتز خاشعا وأن أشعر بشىء من الحسرة على أنى لست مسلما »

٦ - الصلاة تعلم الشجاعة والنقد البناء

من فقه الصلاة : أن الإمام إذا أخطأ فى قول أو فعل ، وجب على من يصلى خلفه أن يصحح له خطأه .فإذا أخطأ فى قراءة ذكروا له الآية صحيحة ، وإن أخطأ فى غير القراءة فعليهم أن ينبهوه ، الرجل يقول سبحان الله ، والمرأة تصفق

---

(٧٣) الحجرات : ١٠ .
(٧٤) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الإقامة ، باب (٤٣) .
(٧٥) كما جاء فى « العبادة فى الإسلام » للدكتور يوسف القرضاوى : ٢٣١ .

بيديها .ويستوى فى حق التصحيح الجميع ، الكبير والصغير ، الذكر والأنثى ، السيد والعبد ، الوزير والخفير ، الشريف القرشى ، والعبد الحبشى.

وفى هذا تشجيع للمسلمين جميعا على اختلاف أعمارهم ، ووظائفهم ، وأوضاعهم ، على أن يمارسوا حق النقد للقادة ، وتقويم ما يرونه معوجا منهم ، وهذا ما حدث بصورة جلية ، وفعالة فى عهد السلف رضى الله عنهم ، وبهذا سادوا الدنيا ، وحكموا الأمم.

٧ - تكفير السيئات

ومن فوائد الصلاة أيضا أنها تكفر سيئات المصلى. قال تعالى: ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾(٧٦) ورد فى سبب نزولها كما يروى البخارى وغيره : أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبى ﷺ ، فذكر ذلك له فأنزلت عليه ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ الآية ، فقال الرجل : ألى هذه ؟ قال : هى لمن عمل بها من أمتى (٧٧) وقال ﷺ : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا: لايبقى من درنه شىء ، قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا . »(٧٨)

رفـــــع الدرجــــات

كذلك من فوائد الصلاة ، رفع درجات صاحبها ، ففضلا عن كونه قد أدى واجبا مفروضا عليه ، فإن الله عز وجل يكتب له من الثواب ما يرفع به مقامه عنده .قال ﷺ: « صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته ، وصلاته فى سوقه ، بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة ، لايريد إلا الصلاة ، فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد»(٧٩)

---

(٧٦) هود : ١١٤ .
(٧٧) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، فى تفسير سورة هود
(٧٨) أخرجة: البخارى فى كتاب المواقيت ، باب (٦) ، ومسلم كتاب المساجد باب (٢٨٣) .
(٧٩) أخرجة البخارى ، فى كتاب الأذان ، باب (٣٠) ، ومسلم فى كتاب المساجد ، باب (٢٧٢) .

(ب) تشريع الزكاة

والشعيرة الثانية من شعائر الإسلام ، والتى يستحيل أن تكون من تشريع محمد بن عبد الله الزكاة ، وتبدو أهميتها من حيث :

١ - كونها الركن الثالث من أركان الإسلام ، كما فى حديث بنى الإسلام على خمس.

٢ - اقترانها دائما بالصلاة ، الركن الثانى ، حيث تعتبر الصلاة حق الله ، والزكاة حق خلقه ، وجميع الحقوق لا تخلو عن هذين . ، وحيث تعتبر الصلاة عبادة بدنية ، والزكاة عبادة مالية ، وجميع العبادات لا تخلو عن هذين .

٣ - من حيث تحققيها - مع الصلاة والشهادتين - للأخوة الإسلامية . قال تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين** ﴾(١)

٤ - منكرها كافر ، ومانعها فاسق ، يقاتل حتى يؤديها ، ولذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنها مانعيها ، وقال قولته المشهورة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه »

مقدارها والسر فى ذلك

الزكاة تجب فى الذهب والفضة وعروض التجارة ، والزروع ، والإبل والبقر والغنم . ولهذه الأشياء مقادير معينة ، إذا حال عليها الحول .

فالذهب والفضة فيهما ربع العشر ٢ر٥٪ ، وعروض التجارة تقوم بأحد النقدين. أما الإبل والبقر والغنم فلها نصاب خاص ، ومقادير خاصة ، يستحسن الرجوع إلى كتب الفقه فيها ، فالمجال يضيق عن التعرض لها .

والركاز - وهو الكنوز المدفونة - ومثلها المعادن عليها الخمس ، متى عثر الإنسان عليها ، دون انتظار حول يحول عليها.

---

(١) التوبة : ١١ .

والسر فى تفاوت المقادير فى أنواع الزكاة ، مراعاة جهد الإنسان ، فى هذه الأشياء ، فكلما كان مجهوده أكثر قل مقدار الزكاة ، وكلما كان مجهوده أقل زاد مقدار الزكاة .

فالفلاح مثلا إذا باشر حرث الأرض ، وبذرها ، ولم يسقها ، وإنما تركها لماء السماء فعليه العشر .

فأما إذا تولى سقيها بالمواشى ، أو بالآلات الحديثة ، فعليه نصف العشر.

فإذا قطع الفلاح نفسه لها ، من حرث وبذر ، وسقى وإدارة ، وتسويق ، وغير ذلك فعليه ربع العشر.

أما الركاز فلما لم يكن للإنسان فيه كبير عمل ، فقد أوجب عليه الخمس .

أما الذين يملكون مالا قليلا ، فقد أعفاهم الإسلام ، من فريضة الزكاة ، وإنما ترك لهم باب التطوع مفتوحا ، بحسب ما تجود به نفوسهم ، بما زاد عن حاجتهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾[٢] أى الزائد عن الحاجة .

الزكاة ركن مفروض ، لا تكرم مبذول

قلنا إن الزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، يكفر من يجحدها ، ويفسق ويقاتل من يمتنع عنها .

وبهذا تكون فرضا مفروضا على أصحاب الأموال ، لا اختيار لهم فى دفعها ، أو عدم دفعها ، وبهذا أيضا لا تكون الزكاة تكرما من الأغنياء على الفقراء ولا تفضلا منهم على البؤساء .

والزكاة بهذا المفهوم ، تكون حقا لثلاث جهات :

١ - الله ٢ - الفقير ٣ - المجتمع

أما كونها حقا لله : فلأنها عبادة تمثل ركنا ركينا من أركان الإسلام الخمسة ، فهى ليست ضريبة تدفع ، ومغرما يغرم ، بل هى قربى يتقرب بها

---

(٢) البقرة : ٢١٩ .

الإنسان إلى ربه ، ولا بد من طيب النفس عند أدائها .

ولذا كان من السنة أن يقول دافعها :

« اللهم اجعلها مغنما ، ولا تجعلها مغرما »[٣]

واعتبر الشرع طيب نفس دافعها ، علامة من علامات تغلغل الإيمان فى قلبه ، وذوقه حلاوته .

قال ﷺ : « ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان ، من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه »[٤]

وهذا أقل ما يكون لله من حق ، فيما فى يد الإنسان من مال ، سواء أكان زرعا وثمارا ، أم حيوانات ، أم نقودا ، أم غير ذلك .

فهذا المال كله وغيره مال الله ، وهذا الكون ، بسماواته وأرضه ، كون الله . قال تعالى: ﴿ **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ﴾ [٥] ، وقال : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون** ﴾ [٦] ، وقال : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾[٧]

أما كونها حقا للفقير : فإن هذا الفقير أخ للغنى فى الإسلام ، كما أنه أخ له فى الإنسانية ، فليس من الدين فى شىء أن تتخم بطن المسلم من الأكل ، وأن يعيش فى رفاهية من العيش والكسوة والبناء والمواصلات ، وغيرها ، وأخوه المسلم لا يجد ما يوارى به سوءته ، أو يسكت به قرقرة بطنه .

وليس من الإنسانية فى شىء أن يعيش إنسان ما ، وهو لا يدرى ماذا يصنع بكنوزه ، بينما يوجد فقير يسيل لعابه ، على فضلات هذا الغنى التى يقذف بها على أكوام قمامته .

ولذلك قال ﷺ : « أيما أهل عرصة فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة

---

(٣) أخرجة ابن ماجة فى كتاب الزكاة ، باب (٨) .

(٤) أخرجة أبو داود فى كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٥٨٢ .

(٥) النور : ٣٣ .

(٦) يس : ٧١ .

(٧) الحديد : ٢٥ .

الله تعالى » (٨)

ويبدو حق الفقير فى مال الغني واضحا ، مما يأتى :

١ - أن الله اعتبر إطعام المسكين ، من موجبات عذاب النار ، قال تعالى: ﴿ **ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين** ﴾(٩) ، ويلحق بإطعامه - كما هو واضح - تلبية ضروراته من ملبس ، ونحو ذلك .

٢ - أن الله اعتبر ترك الحث على إطعام المساكين علامة من علامات الكفر بالله ، قال تعالى : ﴿ **إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين** ﴾(١٠)

٣ - كما اعتبر ترك الحث على إطعام المسكين ، علامة من علامات التكذيب بيوم القيامة . قال تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين** ﴾(١١)

أما كون الزكاة حقا للمجتمع : فذلك يبدو واضحا من خلال أمرين :

١ - الأمر الأول : من أين اكتسب الغنى ماله ؟ إن هذا المال الذى فى يدى الغنى لم يكن من محض عمل صاحبه ، بل شاركه فيه كثيرون ، البعض بالفكر ، والبعض بالعمل ، والبعض بالمال ... التاجر مثلا : هل يستطيع أن يحقق ثروته بدون المجتمع ؟ إن المجتمع هو ميدان ربح تجارته ، يشترون منه ويبيع لهم ، وكذلك أهل الفلاحة ، فلولا الآخرون الذين يصنعون للفلاح أدوات فلاحته ، وتلبية ما يحتاج إليه زرعه من أسمدة وغيرها ، كيف كان يزرع ، وكيف كان يجنى ؟ وكيف يكون له مال ؟ وهكذا كل صاحب مال ، يظهر فضل المجتمع عليه فى تكوين ثروته .

٢ - الأمر الثانى : فيم ينفق هذا المال؟

---

(٨) أخرجة أحمد فى مسنده : ٢ / ٣٣ .

(٩) المدثر : ٤٢ - ٤٤ .

(١٠) الحاقة : ٣٣ و ٣٤ .

(١١) الماعون: ١ - ٣ .

إنه ينفق على المجتمع الذى يعتبر هذا الغنى فردا من أفراده ، ويستفيد من عائد دفع الزكاة ، إن هذا المال ينفق على هذا المجتمع لسد ثغرات كثيرة فيه ، ومن هذه الثغرات « الجهاد فى سبيل الله » والعدو إذا لم يغز غزا ، وإذا غزا العدو بلاد المسلمين ، فإن هذا الغنى وأسرته وكل أقاربه ليسوا من المستثنين ، من الاعتداء على الأموال ، وانتهاك الحرمات ، وإزهاق الأرواح .

لمن يسلم الأغنياء الزكاة ؟ وفيم تصرف ؟

حدد الله عز وجل الجهة التى يدفع لها أصحاب الأموال زكاتهم ، وهى الدولة ، حيث قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾[١٢] فالزكاة ليس فيها تعامل بين أصحاب الأموال ، والجهات التى تستحق الزكاة ، وإنما الدولة هى النائبة عن هذه الجهات ، فى تسلم الأموال ، وتسليمها إليهم . وإنما جعل الإسلام هذا التعامل بين أصحاب المال والدولة ، دون التعامل بينهم وبين الفقراء ومستحقيها ، لأسباب عدة ، منها :

١ - ليعم التوزيع كل الفقراء ، فقد يركز الأغنياء على فقراء معينين ، فى حين أن هناك فقراء لا يشعر بهم أحد .

٢ - صيانة ماء وجه الفقير ، وتقدير شعوره ، والمحافظة على كرامته .

٣ - عدم إحساس الفقير بالامتنان لشخص بعينه ، وإنما يشعر بالامتنان الكامل لمن فرض له هذا الحق ، وهو الله عز وجل .

٤ - هناك مصاريف للزكاة غير الفقراء والمساكين ، كالانفاق فى سبيل الله ، والمؤلفة قلوبهم ، وتقدير هذه المصاريف من قبل الأغنياء ، لا يكون بالدقة ، وبالنظرة ، والقدر الذى تنظمه الدولة .

٥ - الأفراد ليسوا على درجة واحدة من التقوى ، بل إن الفرد الواحد تختلف قوة إيمانه ، من وقت لآخر، فلو ترك الأمر للأغنياء فستكون

---

(١٢) التوبة : ١٠٣ .

الفرصة سانحة لعدم دفع الزكاة ، ممن ضعف إيمانهم ، وماتت ضمائرهم . وهذا ما نشاهده اليوم فى تلك الأقطار الإسلامية ، التى تركت أخذ الزكاة من أصحاب الأموال ، واكتفت بفرض ضريبة عليهم ، فصار الناس يتهربون من هذه الضرائب بشتى الوسائل ، حيث يرونها غير شرعية ، وبذلك فلا هم دفعوا للدولة حق الله ، ولاهم دفعوا لها ما أوجبته عليهم .

على من توزع الزكاة ؟

بين الله عز وجل مصارف الزكاة ، بقوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾[١٣] حيث نص على ثمانية أصناف :

الصنف الأول والثانى : الفقراء والمساكين ، وهما أهل الفاقة والاحتياج ، وقد اختلف العلماء فيمن هو أسوأ حالاً من الآخر ، على رأيين ، وعلى أية حال ، فالمعدم تماما ، أو الذى لا يجد ما يكفيه وأهله ، لهما نصيب فى هذه الزكاة .

الصنف الثالث : العاملون على الزكاة ... وهذا اللفظ يشمل من يجمعونها ، ومن يشترك فى خزانتها وتوزيعها على مستحقيها ، ولو كان هؤلاء المذكورون أغنياء .

الصنف الرابع : « المؤلفة قلوبهم » ، ويشمل ذلك :

١ - الكفار الذين يطمع فى إسلامهم

٢ - أو الذين أسلموا حديثا ، ويرجى ثباتهم على الإسلام

٣ - أو الكفار الذين يراد منهم كف الأذى والشر عن المسلمين ... وفى أيامنا هذه يمكن صرف هذا السهم فى التبشير الإسلامى ، كما يفعل النصارى مع من يريدون تنصيرهم .

---

(١٣) التوبة : ٦٠ .

الصنف الخامس : « فى الرقاب » ، أى فى تحرير الأرقاء من ذل العبودية . فقد جاء القرآن والرق منتشر فى أرجاء الدنيا كلها ، فوضع للتخلص منه منهجا فريداً ، وهذا المنهج فيه ما يخص الأفراد ، وفيه مايخص الدولة ... فمما يخص الأفراد : تلك الكفارات التى تجب على من أذنب ذنبا خاصا ، كالجماع فى نهار رمضان ، أو الحنث فى اليمين ، وغير ذلك .

ومما يخص الدولة : تخصيص جزء من الزكاء لعتق الأرقاء ، سواء منفردة ، أم بإعانة المكاتب على أداء ما كاتبه سيده عليه ، ليعتقه .

وهذا المنهج فى غاية الإبداع ، ليس فى وسع محمد ، ولا فى وسع أمته ، ولا فى وسع الأمم كلها أن تأتى بمثله .

الصنف السادس : الغارمون ، وهم المدينون ، الذين أرهقتهم الديون ، فلم يستطيعوا سدادها ، فقد قيل عن الدين إنه « هم بالليل وذل بالنهار » والإسلام يحب لأهله أن يكونوا أعزة ، لا أذلة ، كما لا يحب أن يبيع المسلم أثاث بيته ، وقوام حاجاته ليسد دينه .

ويدخل فى هؤلاء الغارمين ، أهل الشهامة والإصلاح بين الناس ، الذين تحملوا دفع ما يقرره مجلس الصلح بين المتنازعين .

أخرج الإمامان أحمد وأبو داود عن قبيصة بن مخارق الهلالى ، قال : تحملت حمالة ، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة ، فنأمر لك بها ، ثم قال : ياقبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة ، حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة ، اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة ، حتى يصيب قواما من عيش ، أو قال سدادا من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه ، لقد أصابت فلانا فاقة ، فحلت له المسألة ، حتى يصيب قواما من عيش ، أو قال سدادا من عيش ، فما سواهن من المسألة ياقبيصة فسحت ، يأكلها صاحبها سحتا . »(١٤)

---

(١٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٣ /٤٧٧ وأبو داود فى سننه ، كتاب الزكاة ، باب (٢٦) حديث ١٦٤٠ .

الصنف السابع : « فى سبيل الله » ، والمقصود هنا : الجهاد فى سبيل الله ، وكل عمل للإسلام ، يرفع رايته ، ويحقق العزة والمجد لشرعته .

الصنف الثامن : « ابن السبيل » ... وهو الغريب الذى انقطع عن ماله ، بصرف النظر عن غناه أو فقره . ويشمل هذا النوع أولئك الذين فروا بدينهم وتركوا أوطانهم ، نتيجة حكام كفرة ، أو ممن يسيرون على منهجهم ، من أذى المسلمين ، فى نفوسهم ، أو أهليهم وأموالهم .

ملاحظـــات

ويلاحظ على هذه المصارف مايأتى :

١ - أن الله هو الذى حددها ، ولم يدعها للحكام ، حتى لا يكون هناك مجال للتلاعب بها ، واستخدامها فى الترف والملذات ، وإنفاقها على الأصدقاء والأخلاء .

٢ - لا تجمع هذه الزكاة إلا من المسلمين ، لأنها عبادة محضنة ، وليست ضريبة .

٣ - لا تصرف هذه الزكاة ، إلا فى المصارف المحددة سابقا.

وبذلك لا تدخل فيما يسمى بالميزانية العامة للدولة ، وإلا لذابت فى مصارف أخرى ، ولم تصل إلى مستحقيها .

ثمرات الزكاة

حينما أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ، بأخذ الزكاة ، ذكر بعضا من مزاياها ، حيث قال : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾[(١٥)]

فقد نص على أن الصدقة (١) تطهير (٢) وتزكية ، أى تنمية ، وهذان هدفان عظيمان للزكاة . ولنا وقفة عند هذين الهدفين . .

أما التطهير بها ، فذلك صالح لأن يشمل جهات أربع .

١ - تطهير الغنى　　　٢ - تطهير الفقير

٣ - تطهير المجتمع　　　٤ - تطهير المال.

أما كونها تطهيرا للغنى : فمن ناحية كونها عبادة يترتب عليها حسنات

---

(١٥) التوبة : ١٠٣ .

والحسنات يذهبن السيئات ، ومن ناحية كونها تطهيرًا لنفسه من الصفات الخبيثة ، كالبخل والأنانية والشح ، وإذا تحقق للإنسان ذلك أصبح من الفالحين ، قال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[16] ، وهل بعد الفلاح من مطلوب ؟

أما كون الزكاة تطهيرا للفقير : فلا شك أن هذا الفقير ، حينما يرى نفسه محروما مما فى يد غيره ، فإنه يتطلع إليه ، فإذا لم يأخذ منه شيئا زرع فى قلبه الحقد والحسد ، أما إذا أعطى منه ، فلن يجد الحقد والحسد فى قلبه مكانا .

أما كونها طهارة للمجتمع ، فلأنها تزيل أسباب التفرقة بين طبقاته ، فلا يظهر فى المجتمع طبقتان ، طبقة يكون المال دولة بينها ، وطبقة محرومة من الكفاف ، وأكرم بمجتمع يسوده الاستقرار ، وتختفى منه عوامل الانهيار.

إن الحكومات الحديثة أنشأت ما يسمى بالضمان الاجتماعى ، ولكن فرق كبير بين أن يؤدى الإنسان شيئا ، أوجبه عليه الله ، وشيئا أوجبه عليه غير الله ، إنه فى الأول لا يستطيع أن يتحايل على الله ، وفى الثانى سيجد أبوابا كثيرة فى التحايل على غير الله ، وفى الأول سيجد الدافع الكبير ، وفى الثانى إن وجدت فيه نزعة وطنية ، فسرعان ما سيقصر ، لأتفه الأسباب .

أما كون الزكاة طهارة للمال : فلأن فى هذا المال حقا لله ، وحقا للمجتمع ، وحقا للفقير ، فإذا لم يخرج هذا الحق ، فإن المال كله سيلوث ، وما أحسن قول القائل : « الحجر المغصوب فى الدار رهن بخرابها » أخرج الحاكم بإسناده عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره »[17] .

أما الهدف الثانى ، وهو التزكية ، فإنه يراد به التنمية ، فالزكاة فى اللغة بمعنى النماء . فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وتزكيهم بها ﴾ يقول أبو السعود رحمه الله : « أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم إلى مراتب المخلصين أو أموالهم »[18]

---

(١٦) الحشر : ٩ ، والتغابن : ١٦ .

(١٧) أخرجه : الحاكم فى المستدرك ، فى كتاب الزكاة : ١ / ٣٩٠ .

(١٨) تفسير أبى السعود : ٤ / ٩٩ .

نعم هى تنمية للحسنات ، وتنمية للأموال ، قال تعالى : ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾[١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾[٢٠] وواقعنا يشهد بأن من يؤدى زكاة ماله ، أو أى صدقة ، يفتح الله له من أبواب سعة الرزق ما لا يخطر على بال .

٣ - ومن ثمرات الزكاة وأهدافها : أن فيها تشجيعا عظيما على العمل ، واستثمار الأموال ، ومحاربة كنزها . لأن المال إذا كنز أكلته الزكاة ، حتى ينتهى ، وبالتالى فإن على صاحب المال أن يثمره ، بأى عمل ، حتى يبقى له رأس ماله ثابتا ، ويخرج الزكاة عنه من الزيادة .

٤ - ومن ثمراتها أيضا : تحقيق المحبة بين جميع أفراد المجتمع ، حيث يشعر الفقراء بأن لهم مكانة فى قلوب الأغنياء ، يشعرون بمشاعرهم ، فيتألمون بآلامهم ، ويفرحون بفرحهم ، ولا يستريحون إلا بقضاء حوائجهم ، حيث هم منهم كالعضو من الجسد ، وذلك معنى حديث رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٢١]

٥ - ومن أهداف الزكاة أيضا : توفير كل ضرورات الحياة للمحتاجين وقد أثبتت الدراسات التى تجرى بين حين وآخر تلك الحقيقة ، حيث يوجد فى المسلمين أعداد هائلة تملك من المال ، لو أخرجوا عنه زكاته ما وجد بينهم بائس ولا فقير .

٦ - ومن أهدافها كذلك حماية المسلمين من الخضوع لغيرهم . فمادام المسلمون متعاونين مع أنفسهم ، يقضون حوائج بعضهم ، فلن يجد أعداؤهم فرصة للتدخل بينهم ، وإيقاع المفاسد فى مجتمعهم ، بذريعة مساعدتهم.

---

(١٩) البقرة : ٢٧٦ .

(٢٠) الروم : ٣٩ .

(٢١) أخرجه : البخارى فى كتاب الأدب ، باب (٢٧) ، ومسلم فى كتاب البر باب (٦٦ ، ٦٧) ، وأحمد فى مسنده : ٤ / ٢٧٠ .

وهذا ما يحدث الآن ، حينما ترك المسلمون أداء زكاتهم ، ففتحوا الباب على مصراعيه لما يسمى بصندوق النقد الدولى . والعجيب أننا نرى كثيرا من الأقطار الإسلامية مدينة لهذا الصندوق ، الذى يتحكم فى اقتصاد تلك البلاد ، وبالتالى فى توجيه سياستها .

فى حين أن أصحاب الأموال لو استثمروها فى بلادهم ، بدلا من بلاد الكفار ، وأخرجوا زكاتها ، لما وجد هذا الصندوق فرصة للتحكم فى اقتصاد بلادهم ، وتوجيه سياستها .

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله فى تفسير المنار: « ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم - بعد أن كثرهم الله ووسع عليهم فى الرزق - فقير مدقع ، ولا ذو غرم مفجع ، ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة ، فجنوا على دينهم وملتهم وأمتهم ، فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالا ، فى مصالحهم الملية والسياسية ، حتى فقدوا ملكهم وعزهم وشرفهم ، وصاروا عالة على أهل الملل الأخرى ، حتى فى تربية أبنائهم وبناتهم ، فهم يلقونهم فى مدارس دعاة النصرانية ، أو دعاة الإلحاد ، فيفسدون عليهم دينهم ودنياهم ، ويقطعون روابطهم الملية والجنسية ، ويعدونهم ليكونوا عبيدا أذلة ، للأجانب عنهم ، وإذا قيل لهم لماذا لا تؤسسون لأنفسكم مدارس كمدارس هؤلاء الرهبان والمبشرين ، أو الملاحدة الإباحيين ؟ قالوا : إننا لا نجد من المال ما يقوم بذلك ، وإنما الحق أنهم لا يجدون من الدين والعقل ، وعلو الهمة والغيرة ما يمكنهم من ذلك ، فهم يرون أبناء الملل الأخرى يبذلون للمدارس وللجمعيات الخيرية والسياسية ما لا يوجبه عليهم دينهم ، وإنما أوجبته عليهم عقولهم وغيرتهم الملية والقومية ، ولا يغارون منهم ، وإنما يرضون أن يكونوا عالة عليهم ، تركوا دينهم فضاعت بإضاعته له دنياهم »(٢٢) .

---

(٢٢) المنار : ١٠ / ٥١٤ ، ٥١٥ ط دار المعرفة .

أعداء القرآن يشهدون بسمو تشريع الزكاة .

رغم تشويه الكفرة الفجرة لصورة الإسلام ، إلا أننا نجدهم فى بعض الأحيان يستطيعون إلا إنصاف الإسلام ، وفيما يخص إنصاف الإسلام فيما يتعلق بنظام الزكاة ، فسأكتفى بنقل ثلاثة أقوال لبعض المستشرقين :

١ - **يقول ليودو روش** » لقد وجدت فى الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم ، الأولى : قول القرآن ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[٢٣] ، فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ، والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال . «[٢٤]

٢ - **ويقول** « **ماركوس** » - غير اليهودى الشيوعى - عن هذه الزكاة : « وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه ، فى تاريخ البشرية عامة ، فضريبة الزكاة التى كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والأغنياء ، على دفعها ، لتصرفها الدولة على المعوزين ، والعاجزين من أفرادها ، هدمت السياج الذى كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحدت الأمة ، فى دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الإسلامى على أنه لا يقوم على أساس الأثرة البغيضة »[٢٥]

٣ - ويقول المستشرق الشهير : « ماسينيون » « إن لدين الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة ، التى يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة ، التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية .

ويقف فى نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ، ورأس المال التجارى . وبذلك يحل الإسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية . »[٢٦]

---

(٢٣) الحجرات : ١٠ .

(٢٤) العبادة فى الإسلام : ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢٥) الموضع السابق .

(٢٦) الموضع السابق .

زكـــاة الفطر

ومن العبادات المالية المفروضة على المسلمين زكاة الفطر ، وسميت بذلك : لأنها تجب على المسلمين ، بفطرهم من صيام شهر رمضان ، وآخر موعد لها صلاة العيد . عن ابن عباس قال : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، من أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة ، فهى صدقة من الصدقات »(٢٧)

على من تجب ؟ وما مقدارها ؟

تجب على كل مسلم ، أيا كان نوعه وعمره ، ولا يشترط فيها غنى ، أو امتلاك النصاب المالى ، الذى يكون فى زكاة المال.

وهى عبارة عن صاع من تمر ، أو قمح ، أو شعير ، ونحو ذلك ، مما هو غذاء لأهل البلد ، كالأرز مثلا . روى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان ، صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، على كل حر أو عبد ، ذكر أو أنثى ، من المسلمين »(٢٨) وهؤلاء تجب زكاتهم على من يعولهم .

مزايا زكاة الفطر

تحقق زكاة الفطر عدة فوائد ، منها :

١ - جبر ما حدث من خلل للصائم فى هذا الشهر .

٢ - التوسعة على الفقراء فى يوم العيد ، حيث يكون عندهم ما يكفيهم عن سؤال غيرهم . وإلى هاتين الفائدتين ، يشير حديث رسول الله ﷺ الذى ذكرناه الآن : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين »

٣ - تدريب المسلم على الكرم والإنفاق ، حتى لو كان فقيرا .

إذ يندر أن يوجد فى المسلمين من لا يستطيع أن يتصدق بصاع من

---

(٢٧) أخرجة أبو داود فى كتاب الزكاة ، باب (١٧) وابن ماجه فى كتاب الزكاة ، باب (٢١) .
(٢٨) أخرجه : البخارى فى كتاب الزكاة ، باب (٧١) ، ومسلم فى كتاب الزكاة باب (١٢) .

تمر ، أو شعير ونحو ذلك ، وفى هذا رفع لروحه المعنوية ، حيث يشعر بالفرق بين اليد العليا ، واليد السفلى .

٤ - التشجيع على العمل ، ومحاربة البطالة ، لأن الفقير حينما يحس بالفرق بين المعطى والآخذ ، سيكون هذا الإحساس دافعا له إلى ترك البطالة ، والتوجه إلى العمل ، الذى يرفع مكانته بين الناس ، بدلا من أن يكون محل ازدراء أو شفقة .

٥ - الفقير لن يخسر شيئا من إخراجه الزكاة ، فإن العائد عليه أكثر مما دفع ، وفى هذا يقول ﷺ: « صاع من بر أو وقمح على كل امرىء صغير أو كبير ، حر أو عبد ، ذكر أو أنثى ، غنى أو فقير ، أما غنيكم فيزكيه الله ، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى » [٢٩]

سؤال

هل فى مكنة محمد بن عبد الله الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يشرع مثل شريعة الزكاة هذه ، بهذه الكيفية المعجزة ، وبهذه المزايا التى لم ولن يستطيع أى نظام فى العالم تحقيقها ، وباعتراف أكبر علماء العالم ، رغم عدائهم الظاهر للقرآن ولمن نزل على قلبه هذا القرآن ؟

(٢٩) أخرجة : أحمد فى مسنده : ٥ /٤٣٢ ، وأبو داود فى كتاب الزكاة باب (٢٠) حديث ١٦١٩

(جـ) الصيـــام

ومع شعيرة أخرى من شعائر الإسلام والتى تثبت لنا أن القرآن من عند الله ، وأن تشريع هذه الشعيرة . بجميع أحكامها ، وبما تحققة من مزايا ، فوق عقل محمد بن عبد الله ، وعقل الخلق جميعا ... ألا وهى شعيرة الصيام .

والصيام الإسلامى عبارة عن : إمساك المسلم عن الطعام والشراب والجماع بنية التعبد ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، شهرًا كاملا من السنة ، هو شهر رمضان . وهو واجب على كل مسلم ومسلمة توافرت فيهما شروط التكليف . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنو كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ إلى أن يقول : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾[1]

ويقتصر حديثنا عن الصيام هنا على ذكر بعض مزاياه ، خشية الإطالة من ناحية ، ولدلالة هذه المزايا على كون هذه الشعيرة بهذه الكيفية على أن مشرعها هو الله ، الذى أنزل القرآن ، وليس محمدًا بن عبد الله .

مزايا الصيام

للصيام مزايا جمة ، بعضها يعود على الصائم ، وبعضها يعود على غيره ... أما المزايا التى تعود على الصائم ، فمنها مزايا روحية ، ومنها مزايا بدنية .

فأما المزايا الروحية فكثيرة ، نقتصر منها على ما يلى :

١ - الصيام يحقق العبودية الكاملة لله تعالى .. إذ يرى الصائم فى بداية شأنه ، أن الصوم يحرمه من مقومات الحياة ، وضرورات البشرية ، من أكل وشرب وجماع ، وقبل ظهور أى حكمة له من حكم الصيام يسلم أمره لله تعالى قائلا : « سمعنا وأطعنا » فهو يتقبل ما يفرض عليه ، وإن لم تظهر له الحكمة ، وهذا كمال الإيمان ، وكفى بهذه المزية للصيام .

---

(١) البقرة : ١٨٣ - ١٨٥ .

٢ - الصيام يشعر الإنسان بقيمة نعم ربه عليه ، فكما قالوا : الضد يظهر حسنه الضد : فالإنسان مثلا إذا دامت عليه نعمة الصحة لم يشعر بقيمة هذه النعمة ، لطول إلفها ، فإذا حرم منها فترة من الفترات ، شعر بقيمتها وبمدى ما يعانيه المرضى ، وكذلك إذا عاش مرفها فى الملاذ ، دون أن يحرم منها ولو ساعات قليلة ، فإنه لا يقدر هذه النعم ، فإذا حرم منها ولو لفترة بسيطة أدرك قيمتها .

وإلى هذه الحكمة يشير قوله ﷺ : « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك »(٢)

٣ - الصيام يقوى الإرادة ، ويعلم الصبر. ومعلوم أن الجهاد طريق الجنة ، التى حفت بالمكارة ، والأمة فى جهاد دائم إلى يوم الدين ، والجهاد يعنى بذل النفس والنفيس ، ولا يتم ذلك إلا بالصبر الفائق ، والإرادة الصلبة ، والنفس التى لا تعرف اليأس ... والصيام يحقق للمسلم كل ذلك .

٤ - الصيام ينتزع من النفس كل الصفات الرذيلة ويزرع فيها كل الصفات الحميدة ، فليس المقصود من الصيام تجويع الإنسان نفسه وإظماءها وبعدها عما أحل الله ... فذلك ليس هدفا ، وإنما هو وسيلة إلى الهدف فالهدف محدد فى آية الصيام ، وهو « لعلكم تتقون » والتقوى من متطلباتها ، الامتناع عن كل محرم ، وفعل كل محمود ولذا جاء فى الحديث « من لم يدع الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »(٣)

إن الصائم إذا اتفق له الامتناع عن كل الرذائل ، والاتصاف بكل الفضائل ، فقد سمت روحه ، وأشرقت نفسه ، وانتصر على بشريته ، وأصبح جسده

---

(٢) أخرجه : أحمد فى مسنده : ٥ / ٢٥٤ ، والترمذى فى كتاب الزهد باب (٣٥) .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الصيام ، باب (٨) .

خادما له ، وليس هو الأسير لخدمته .

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

أما الفوائد البدنية التى تعود على الصائم : فواضحة ، إذ معلوم أن المعدة بيت الداء ، وبدهى أن أى جهاز إذا لم يحصل على قسط من الراحة ، أصيب بالخراب ، فكذلك أجهزة الجسم ، لا بد لها من فترة صيانة ، بين الحين والآخر ، وكفاها من الإرهاق طوال العام .

وإذا كان ابن آدم يكفيه لقيمات يقمن صلبه ، كما فى الحديث ، إلا أنه لا يكتفى بذلك ، بل يسرف فى جميع الملذات ، وبالتالى يكون عرضة لأمراض كثيرة .

وقد أثبت العلم الحديث أن الصيام شفاء لكثير من الأمراض ، كالبول السكرى وغيره .

فوائد تعود على غير الصائم

والفوائد التى تعود على غير الصائم متنوعة ، ومنها ما يعود على فئة خاصة وهى طائفة الفقراء ومنها ما يعود على المجتمع كله .

أما ما يتعلق بالفقراء : فإن المسلم حينما يصوم ويتذوق حرارة العطش وألم الجوع ، يشعر بما يلاقيه الفقراء ، من تلك الحرارة ، وذلك الألم ، فيتحرك ضميره نحوهم ، ويمد يد العطف والتراحم لهم .

وبذلك يحقق الصيام فائدة عظمى ، تعجز عن تحقيقها ، كل الأنظمة البشرية ، كالضمان الاجتماعى وغيره .

أما ما يتعلق بالمجتمع كله : فإن الصيام يحقق الشعور بوحدة الأمة ، بصورة واضحة ، حيث يبدأ الجميع الصيام فى وقت واحد ، ويتناولون الافطار والسحور فى وقت واحد ، وتمتلىء بهم المساجد بما هو فوق طاقتها ، فى صلاة الجماعة والتراويح ، وتعقد جلسات العلم والتعارف ، وتبادل الزيارات ، لتناول طعام الافطار ، وتقوية العلاقات ، إلى غير ذلك من مظاهر التعاون والتلاحم .

ومن فوائد الصيام على المجتمع أيضا : أن الجرائم تكاد تنعدم فى شهر رمضان ، لما يحققه الصيام من تقوى للجميع .

وإنى لأرى أن الحكمة التى ذكرها الله فى نهاية آية الصيام ، وهى قوله تعالى ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ تعم كل الفوائد التى تحدثنا عنها .

فالتقوى المرادة فى هذه الآية تعنى أن يتقى الصائم كل ما يضر روحه ، وجسده ، وسائر فئات المجتمع ، من فقراء وغيرهم .

سؤال

وفى نهاية الكلمة السريعة عن الصوم ومزاياه نطرح هذا السؤال :أفى استطاعة رجل مثل محمد بن عبد لله أن يشرع تلك الشعيرة ، التى تحقق كل تلك المزايا وغيرها ، للروح والجسد والمجتمع ؟ إن هذا إلا اختلاق ..

من أجل هذا نقول إن القرآن كلام الله ، وليس من كلام أحد سواه .

ثالثا : الإعجاز التشريعى فى مجال المعاملات

وفى مجال المعاملات بجميع أنواعها نرى للقرآن الكريم تشريعا بديعا ، يعجز كل من فى الكون ، عن مثله ، وبطبيعة الحال فإننا لن نتكلم عن كل نوع من أنواع المعاملات ، لأن ذلك مما يحتاج إلى عشرات المجلدات . ولكننا سنختار نوعا واحدا فقط نفرده بالحديث ، ليتبين لنا استحالة أن يكون هذا التشريع من وضع محمد بن عبد الله ، وإنما هو من وضع من أوحى إليه هذا القرآن المعجز .سنختار الحديث عن :

المال فى شريعة القرآن .

ففى هذا المجال ، نرى القرآن الكريم ، قد شرع تشريعات ، تضمن للمال صلاحا عظيما ، ولصاحبه مستقبلا كريما .

وبدهى أننا لن نستطيع فى هذا المقام تناول هذا التشريع بطريقة تفصيلية ، على سبيل الاستقصاء لجميع جزئياته ، وإنما سنختار بعض جوانبه ، ففيه الكفاية للتدليل على ما نقول ، من كونه دليلا على أنه تشريع الحكيم الخبير ، لا غير . وسأقصر الحديث على الجوانب الآتية :

١ - حث القرآن على العمل

٢ - دعوة القرآن إلى الاقتصاد

٣ - وجوب إنفاق المال فى وجوه البر

٤ - تشريع ما يقى الإنسان من ضرر عاجل متحقق ، أو من ضرر آجل مترقب .

فإلى نبذة سريعة عن هذه الجوانب .

(أ) حث القرآن على العمل.

فقد جاءت الآيات القرآنية ، صريحة فى هذا الأمر .

إقرأ مثلا قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى**

مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [1] ، وقوله تعالى: ﴿ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ [2] ، وقوله تعالى ﴿ وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ [4] وغير ذلك من الآيات ، التى تبين أن الله عز وجل سخر لنا هذا الكون بسمواته وأرضه وبحاره وأنهاره ، وجباله وسهوله ، وحيواناته ودوابه ، وطالبنا بأن نستخدم كل ذلك فى عمارة الأرض، قال تعالى ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾[5]

ومادام هناك عمل ، فإن هناك مالا ، وما دام هناك مال ، فإن هناك استغناء عن كل الأمم الأخرى ، وحينئذ تتحقق العزة والكرامة ، والقوة .

(ب) دعوة القرآن إلى الاقتصاد

عرف علماء الاقتصاد النظام الاقتصادى ، بأنه : « مجموعة الاجراءات التى تهدف إلى توجيه الموارد ، نحو تحقيق الأهداف [6]

وإذا كان للبشر قواعد لضمان أحسن نظام اقتصادى ، فإن رب البشر عز وجل ، قد وضع لهم من القواعد ما يضمن لاقتصادهم أحسن حال ، وأفضل مآل ، ومن هذه القواعد :

١ - إباحة الطيبات : قال تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[7] ، وقال : ﴿ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض من حلالا طيبا﴾[8] ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنو لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

---

(١) الملك : ١٥ .
(٢) الجمعة : ١٠ .
(٣) المزمل : ٢٠ .
(٤) البقرة : ١٩٨ .
(٥) هود : ٦١ .
(٦) النظام الاقتصادى الإسلامى للدكتور محمد عفر : ٧ .
(٧) الأعراف : ٣٢ .
(٨) البقرة : ١٦٨ .

المعتدين ﴾[9]

٢ - التوسط فى الاستهلاك : قال تعالى: **﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾**[10] ، وقال : **﴿ ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾**[11] ، وقال **﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾**[12] ، وقال **﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾**[13]

٣ - ربط هذا الاستهلاك بالله عز وجل ، بحيث يرتفع المسلم عن مستوى الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، إلى مستوى العارفين بالله ونعمه ، المؤدين حق شكرها ، قال تعالى : **﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾**[14] وقال تعالى : **﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾**[15] إن المسلم حينما يربط استهلاك النعمة بالمنعم بها يكون أهلا للمزيد ، قال تعالى : **﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾**[16] .

٤ - تحريم استهلاك ما فيه ضرر ، قال تعالى : **﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ﴾**[17]

---

(٩) المائدة : ٨٧ .
(١٠) الأعراف : ٣١ .
(١١) الاسراء : ٢٦ ، ٢٧ .
(١٢) الاسراء : ٢٩ .
(١٣) الفرقان : ٦٧.
(١٤) القصص : ٧٧ .
(١٥) الأنعام : ١٤١ .
(١٦) إبراهيم : ٧ .
(١٧) المائدة : ٣ .

وقال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[18]
وقال أيضا : ﴿ يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[19]

وسائل تنظيم الاستهلاك

وقد وضع الإسلام وسائل عدة لتنظيم الاستهلاك ، حتى لا يكون الأمر فوضى :

١ - ويأتى على رأس هذه الوسائل عقيدة المسلم ذاتها .

٢ - ولى الأمر ، ولذلك فإنه يجوز له الحجر على من يلى أمره إذا كان سفيها

٣ - الدولة ذاتها ... إذا رأت أن تدخلها يكون مناسبا لصالح الفرد والمجتمع ، وهذا لا يتنافى مع حرية الفرد ، فحريته لا بد وأن تكون موجهة ، بما لا يضر مصلحته ، أو مصلحة الجميع .

سمات الاقتصاد الإسلامى .

ويلاحظ على الاقتصاد الإسلامى عدة سمات ، منها :

١ - أنه جزء لا يتجزأ من التشريع الإسلامى كله ، إذ هو مرتبط بالعقيدة والشريعة من جميع جوانبها أشد الارتباط .

٢ - الإسلام وإن اعترف بالملكية الخاصة للأفراد فإنه يضع لهم قواعد خاصة ، تكبح جماحهم .

٣ - فتح الإسلام للأفراد والجماعات ، ميادين واسعة لتثمير أموالهم فيها ، مع وضع ضوابط خاصة ، فى الاستثمار ، والاستهلاك ، والادخار .

٤ - حرض الإسلام أتباعه على تنمية مواردهم .

٥ - منع تقييد الحرية فى سبيل تنمية الثروة ، ما دام لا يترتب عليها أى ضرر

---

(١٨) الأعراف : ٣٣ .

(١٩) المائدة : ٩٠ .

٦ – ألغى الإسلام أى امتياز يعطى لأى فئة من الفئات ، أو لأى فرد من الأفراد ، دون وجه حق .

٧ – راعى الإسلام مصلحة الفرد والمجتمع معا ، فلم ينظر إلى مصلحة طرف منهما دون الطرف الآخر ، لأن الكل وحدة واحدة لاتتجزأ .

قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [٢٠] وقال ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾[٢١]

(جـ) وجوب إنفاق المال فى وجوه البر

من القواعد الأساسية التى أرساها الإسلام فيما يتعلق بالمال التكافل الاجتماعى بين أفراده وفئاته ، بما يحقق لهم المودة والعطف ، وبحيث يكونون به إخوة متحابين ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [٢٢]ومن هذا المنطلق فإن القرآن أوجد للمسلم وجوها يصرف فيها جزءا من ماله لتحقيق تلك الأهداف السامية .

وهذه الوجوه منها ما هو واجب ، ومنها ما هو سنة ، وقد يصل به الأمر أحيانا إلى درجة الوجوب ...

ونتناول بعضا من هذه الوجوه .

١ – إعارة الماعون

الماعون فى لغة العرب : اسم جامع لمنافع البيت ، كالقدر والأكواب ، والفأس ، مما جرت به العادة ، وفسره بعضهم بما يشمل المال والزكاة .

فهذه الأشياء وإن كانت ملكا لأصحابها ، إلا أن القرآن توعد من يبخل بإعارتها لمحتاجيها ، نظرا لما يترتب على منعها من كراهة الناس بعضهم بعضا ، وحقدهم على بعض .

قال تعالى : ﴿ **فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين**

---

(٢٠) الحجرات : ١٠ .

(٢١) التوبة : ٧١ .

(٢٢) الحجرات : ١٠

هم يراءون ، ويمنعون الماعون ﴾[٢٣]

قال ابن كثير عن هؤلاء الذين يمنعون الماعون : « إنهم لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولو بإعارة ما ينتفع به ، ويستعان به ، مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى »[٢٤]

وقد ذهب الفقهاء إلى أن إعارة العارية قد يرتقى إلى حد الوجوب ، حال الضرورة ، إذا كان صاحبها غير مباشر للانتفاع بها فى هذا الحال .

٢ - القرض

القرض هو : « دفع المال وتأخير استرجاعه » وقد شرع الله القرض ، ووضع له أحكاما ، منها :

أ - أن يرد دون زيادة على رأس المال ، قال تعالى : **﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾**[٢٥] ، وإلا كان ربا محرما ، لترتب كثير من المفاسد على ذلك ، كزرع الضغينة بين الطرفين . قال الفخر الرازى عن الربا : « إنه يفضى إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض ، لأن الربا إذا حرم طابت نفوس الناس بقرض الدرهم واسترجاع مثله ، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين ، فيفضى ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان »[٢٦]

(ب) ومن أحكام القرض كذلك : إمهال المقترض إن حل موعد السداد ، ولم يستطع السداد ، قال تعالى **﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾**[٢٧]

(جـ) ومن أحكامه كذلك عند الإعسار : أفضلية التصدق به أو ببعضه ، على هذا المعسر ، قال تعالى : **﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم**

---

(٢٣) الماعون : ٤ - ٧ .

(٢٤) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٥٥ ط دار الفكر العربى .

(٢٥) البقرة : ٢٧٩ .

(٢٦) تفسير لفخر الرازى : ٤ / ٩٤ .

(٢٧) البقرة : ٢٨٠ .

تعلمون ﴾(٢٨)

(د) كتابة الدين ، وقد وضع لها القرآن ضوابط معينة ، منها :

١ - أن يتولى الكتابة عدل ، وعلى العدل الإجابة ، إذا ما تعين .

٢ - أن الذى يملى الكتابة هو من عليه الدين ، لأن موقف صاحب الدين قوى ، والمدين ضعيف ، فلو أملى صاحب الدين فربما ظلم الآخر ، وسكت المدين لضعف موقفه .

٣ - لا بد من الشهادة على هذا الدين ، من رجلين ، أو رجل وامرأتين .

٤ - إن فقد الكاتب لسفر ونحوه ، فالرهان وسيلة ضمان أداء الدين . قال تعالى : ﴿ **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة** ﴾(٢٩)

٥ - التجارة الحاضرة مستثناة من الأمر بالكتابة .

هذه الضوابط كلها جاءت فى آية واحدة فى القرآن بآية الدين ، ولطول كتابتها أحيل القارىء على موضعها ، فهى تحمل رقم ٢٨٢ من سورة البقرة .

٣ - صدقة التطوع

وقد اعتنى بها الإسلام منذ بداية الدعوة ، وقبل تشريع الزكاة المفروضة ومن النصوص المكية في ذلك : قوله تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر** ﴾(٣٠)، وقوله ﴿ **ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين** ﴾(٣١) ، وقوله ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾(٣٢) وقوله ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم** ﴾(٣٣) ، وقوله ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع**

---

(٢٨) البقرة : ٢٨٠ .

(٢٩) البقرة : ٢٨٣ .

(٣٠) الضحى : ٩ ، ١٠ .

(٣١) المدثر ٤٢ - ٤٤ .

(٣٢) الذاريات ١٩ .

(٣٣) المعارج ٢٤ ، ٢٥ .

اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾[٣٤] ، وقصة أصحاب الجنة فى سورة القلم وغيرها من الآيات .

وقد قرر الشرع لتلك الصدقة ضوابط خاصة ، منها :

١ – أن المال مال الله ، قال تعالى : ﴿ **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ﴾[٣٥] وقال أيضا : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾[٣٦]

٢ – القصد من التصدق ابتغاء وجه الله ، وليس مقابل جزاء من الناس ، أو انتظار شكر منهم ، قال تعالى : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾[٣٧]

٣ – عدم المن بها ، أو الرياء فيها ، لأن ذلك يبطلها ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنو لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾[٣٨]

٤ – المتصدق يتعامل مع الله ، لا مع الناس . قال تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات** ﴾[٣٩] وفى الحديث : « إلا وهو يضعها فى يد الرحمن أو فى كف الرحمن »[٤٠]

٥ – عدم استعمال الصدقة لتحقيق أى مصلحة ، حتى ولو كانت لإجبار الناس على الإسلام ، قال تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾[٤١]

٤ – الضيافة

ومن وجوه إنفاق المال فى البر : الضيافة . فالله عز وجل جعل بيوت البشرية كلها ، مائدة للإنسان ، حيث ارتحل أوحل . وكان مما شرعه لخلقه أن أوجب الضيافة على من نزل عليه شخص ، وذلك حسب طاقته ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

---

(٣٤) الماعون : ١ – ٣ .

(٣٥) النور : ٣٣ .

(٣٦) المنافقون : ١٠ .

(٣٧) الإنسان ٩ .

(٣٨) البقرة : ٢٦٤ .

(٣٩) التوبة : ١٠٤ .

(٤٠) أخرجة أحمد فى مسنده : ٢ / ٤١٨ .

(٤١) البقرة : ٢٥٦ .

فالضيافة إذًا فرض لا سنة ، ولذا عاب موسى ورسولنا عليهما الصلاة والسلام على هؤلاء القوم ، الذين استطعمهم موسى والخضر، والذين قال الله فيهم : ﴿ **فأبوا أن يضيفوهما** ﴾(٤٢)

وعنهم قال رسول الله ﷺ : « **كانوا قوما لئاما** »(٤٣) وبين الرسول ﷺ حكم هذه الضيافة ، وكيف أنها من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر ، فقال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا وما جائزته يارسول الله ؟ قال : جائزته يومه وليلته ، والضيافة ثلاثة أيام** »(٤٤)

فلو أن الضيف لم يكن معه شيء ، يتبلغ به ، وبخل عليه الناس ، وقهرهم على حاجته فما عليه من سبيل . روى أن ناسا من الأنصار سافروا فأرملوا ، فمروا بحى من العرب ، فسألوهم القرى - طعام الضيافة - فأبوا عليهم ، فسألوهم الشراء فأبوا ، فتضبطوهم (٤٥) ، فأصابوا منهم ، فأتت الأعراب عمر ابن الخطاب ، فأشفقت الأنصار ، فقال عمر « تمنعون ابن السبيل ما يخلف الله تعالى فى ضروع الإبل بالليل والنهار ؟ ابن السبيل أحق بالماء من الثاوى عليه »(٤٦) ، أى المقيم عليه . فقد جعل عمر رضى الله عنه هؤلاء الضيوف فى منزلة ابن السبيل .

٥ - الأضحية

ومن وجوه إنفاق المال فى البر ، والتى جعل الله للفقراء فيها نصيبا الأضحية ، وهى الذبيحة التى تذبح فى عيد المسلمين يوم النحر ، فى العاشر من ذى الحجة من كل عام ، وفيها يقول تعالى : ﴿ **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾(٤٧) وقد بين عز وجل ، أن تلك الأضاحى لا يعود منها شيء على الله بالنفع ، ولكن النفع كله لعباده المتقين . قال تعالى : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا**

(٤٢) الكهف : ٧٧ .
(٤٣) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب فضائل الخضر .
(٤٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب (٣١) ومسلم فى كتاب اللقطة باب (١٤) .
(٤٥) أى على قهر .
(٤٦) انظر المحلى لابن حزم : ٩ /١٧٥ ط دار الجيل .
(٤٧) الحج : ٢٨ .

دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[٤٨]

إن هذه الوجوه كلها لإنفاق المال تؤدى إلى التراحم والترابط بين المجتمع، بحيث يتحقق معنى الأخوة. وإلا فأين هذه الأخوة ؟، إن قوما لا توجد فيهم هذه الصلات، وتلك الأحاسيس لقوم جديرون بتبرؤ الله منهم.

قال ﷺ :« أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى »[٤٩]

إن التكافل الاجتماعى فى النظام الإسلامى إنما يكتسب أهميته من كونه جزءا من الإسلام، لامن نظام بشرى، يسهل التحايل عليه، والتخلص منه.

إن الإنسان إذا استطاع أن يتحايل على ولى الأمر، فلن يستطيع أن يفعل ذلك مع العليم الخبير، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

(د) تشريع مابه الوقاية

من ضرر عاجل متحقق أو آجل مترقب

ومما يتعلق بالتشريع المالى فى القرآن أن الله عز وجل، حرم على الناس كل تصرف مالى من شأنه أن يلحق أى ضرر بالمسلمين، سواء أكان هذا الضرر عاجلا متحققا، أم آجلا مترقبا.

الضرر العاجل المتحقق

فمن التصرفات المالية التى تحقق لصاحبها ضررا عاجلا لا شك فيه :

١ - المعاملات الربوية ٢ - أكل أموال الناس بالباطل

٣ - الرشوة ٤ -عيشة الترف

٥ - أكل مال اليتم ٦ - استغلال النساء كوسيلة للحصول على المال.

وهاك كلمة مختصرة عن التشريع القرآنى، لكل أمر من الأمور السابقة.

---

(٤٨) الحج : ٣٧.

(٤٩) أخرجه أحمد فى مسنده : ٢ / ٣٣.

١ - الربا

قال المفسرون : إن الربا - نظرًا لشيوعه وتمكنه من قلوب العرب - حرمه الله على سبيل التدريج ، على مراحل ثلاث :

١ - **المرحلة الأولى** : بين الله فيها للمرابين ، أنه لن يبارك لهم فى معاملاتهم الربوية ، وأن المبارك فيه هو الزكاة ، التى يتصدقون بها ابتغاء وجه الله ، قال تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾(٥٠)

٢ - **المرحلة الثانية** : جاء فيها النهى عن التعامل بالربا ، إذا كانت الزيادة على رأس المال المردود زيادة فاحشة ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنو لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة** ﴾(٥١)

٣ - **المرحلة الثالثة** : جاء فيها التحريم النهائى ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾(٥٢)

وفى هذه المرحلة الأخيرة ، بين الله حال المرابين ، بأنه حال قلق واضطراب ، وخوف على الحاضر والمستقبل ، من هنا أو من هناك ، فأعداء المرابى كثيرون ، وله يتربصون ، فكم امتص من دماء ، وكم استغل من أزمات ، وكم أطاح بآمال ، فلذلك تراه مضطربا متخبطا خبط العشواء كمن أصابه جان ، قال تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾(٥٣) وهذا التخبط والقلق شامل لحاله فى الدنيا ، وحاله يوم يبعث من رقدته فى قبره .

إن شبهة المرابين فى معاملاتهم المالية أنهم ساووا بين الربا والبيع ، بل جعلوا الربا أصلا والبيع فرعا ، حيث قالوا (إنما البيع مثل الربا)(٥٤) ، وهذا من

---

(٥٠) الروم : ٣٩ .

(٥١) آل عمران : ١٣٠ .

(٥٢) البقرة : ٢٧٨ .

(٥٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٥٤) البقرة : ٢٧٥ .

التشبيه المقلوب ، الذى يراد منه المبالغة فى التعبير ، كما تقول : القمر مثل هند والأسد مثل عمرو .

وسبب هذه التسوية أنهم قالوا : كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين ، يجوز بيع الدرهم ذاته بدرهمين ، وهم فى ذلك خاطئون ، لأن البيع خاضع لمهارة البائع وذكائه ، ولظروف الحياة ، إما حسنا وإما سوءا ، ولذلك فهو عرضة للربح والخسارة ، أما الربا فالربح فيه مضمون ، فما على المرابى إلا أن يجلس ، ويجىء إليه رأس ماله ، مع زيادة عليه ، دون اعتبار لما يحدث للمدين ، حتى لو هلك كل ماله .

كما أن البيع يخلق فرصا للعمل ، ويجعل المال متداولا بين الجميع ، بينما الربا يقسم المجتمع إلى طبقتين ، طبقة عاملة كادحة ، تعطى جهدها ولحمها ودمها للطبقة الأخرى صاحبة المال ، بما يترتب على ذلك من زرع الحقد والحسد بين الطبقتين ، ثم الصراع بينهما ، الذى يصل فى كثير من الأحيان إلى الصراع الدموى الذى يهلك الحرث والنسل .

ومن هنا أحل الله البيع وحرم الربا ، وتوعد من أصر عليه بأشد العذاب ، وبين مايؤول إليه المرابى وماله ، فقال تعالى : ﴿ **ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾(٥٥)

إن مال المرابى حتى لو كثر عديم الجدوى لصاحبه ، حيث يسلط الله عليه حربا فى جميع حياته ، حربا نفسية ، وحربا مرضية ، إن المرابى لو لم يسلط عليه إلا القلق والاضطراب الذهنى ، والعقد النفسية ، لكفى بذلك من عذاب .

وتكمن خطورة الربا على صاحبه أنه يدخله فى حرب يكون هو - بضعفه أحد طرفيها ، بينما يكون الطرف الآخر مَنْ بيده مقاليد الامور كلها ، رب القوى والقدر ، الله رب العالمين . قال تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا** ﴾ أى تتركوا الربا ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾(٥٦)

---

(٥٥) لبقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٥٦) البقرة : ٢٧٩ .

إن حربا يكون الله أحد طرفيها ، فالهزيمة التى لا شك فيها ، والتدمير الذى لامرية فيه ، سيكون من نصيب الطرف الآخر.

٢ - أكل أموال الناس بالباطل

ومما حرمه القرآن : أكل أموال الناس بالباطل ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** ﴾(٥٧)

فقد أفادت هذه الآية ما يلى :

١ - النهى عن أكل مال الغير ، بأى صورة من صور الباطل .

٢ - التراضى بين الناس فى المعاملات المالية ، له اعتبار فى الشرع ، ما لم يكن قائما على الربا ، أو على أى شىء يخالف شرع الله .

٣ - أكل أموال الناس بالباطل يؤدى إلى انهيار المجتمع ، وضياع قوة الأمة ، فالمقصود من قوله ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ التنبيه على أن أكل أموال الناس بالباطل هو فى واقع الأمر قتل لهم ، لأن مجتمعا يبيح للقوى أن يأكل الضعيف مجتمع محكوم عليه بالفناء فى النهاية . ولو قلنا إن هذا النهى ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ نهى آخر غير النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، فإن ذلك يعبر عن مدى خطورة أكل مال الغير بالباطل ، حيث جعل قرينا لقتل النفس ، ومساوقًا فى خطر ارتكابه .

٣ - رشوة الحكام

ومما هو مرتبط بما سبق الرشوة ، وهى حرام لأى جهة . ولكن القرآن شدد على نوع منها بالذات وهو رشوة الحكام ، فالهدف منها أيضا ، أكل أموال الناس بالباطل ، ولذا قال تعالى : فى سورة أخرى ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم** ﴾(٥٨)

---

(٥٧) النساء : ٢٩ .

(٥٨) البقرة : ١٨٨ .

خطر الرشوة

وخطر رشوة الحكام بالذات يتمثل فى عدة أمور ، منها :

١ - أن هذه الرشوة تقف حائلا دون تطبيق العدل بين الناس ، فيشيع الظلم فى المجتمع ، والظلم ظلمات ، تهدد كيان المجتمع ، مما يجعل أفراد وفئاته يتناحرون ويتقاتلون .

٢ - أن رائش الحاكم يستغل أجهزة الحكم المتعددة ، فى تحقيق أغراضه ، التى قد تكون مخالفة فى كثير من الأمور لشرع الله تعالى ، وفى ذلك من إفساد المجتمع ما لا يخفى .

٣ - كما أنه يستغل هذه الأجهزة الحكومية فى حماية نفسه ، من الحكومة نفسها ، ومن المجتمع ، مما يجعله يتمادى فى سلوكه الضار بالجميع .

إن رشوة الحاكم دليل على قلب الأوضاع ، وانتكاس الأحوال ، فبدلا من أن يسخر الحاكم أفراد المجتمع لصالح هذا المجتمع ، إذا بقلة من أصحاب الأموال تسخره لضرب هذا المجتمع ، والاستيلاء بالباطل على أمواله .

إن رشوة الحاكم كما تعنى حصول الرائش على مال الناس بغير جهد منه ، تعنى حصول الحاكم على مال الرائش بغيرجهد منه ، وكلاهما قد أكلا مالا بالباطل. إن أصحاب الأموال الذين يقدمون الرشوة لأجهزة الحكم ، إنما هم فى الواقع دولة داخل دولة ، بل هم فى حقيقة الأمر دولة خفية أقوى من الدولة الظاهرة ، لأنهم يخضعون الدولة بما لهم من نفوذ ، وبما يمتلكون من أموال لتحقيق ما يريدون .

لذلك نجدهم يتحكمون فى إنتاج المحاصيل وتسويقها ، واحتكار البنوك والشركات ، والمصانع ، وتعيين كبار رجال الحكم ، فى مناصبهم ، أو فى إدراة المصانع والشركات والبنوك إن تركوا كراسى الحكم .

إن أصحاب الأموال - برشوة الحكام - يقضون على المجتمع وفضائله

بأسرع من قضاء عدوهم على هذا المجتمع وفضائله ، لذا شدد القرآن فى تحريم هذا النوع من الرشوة بالذات .

٤ - عيشة الترف

ومما حرمه الشرع على أتباعه أن يعيشوا عيشة المترفين .

وإذا كان الله لم يحرم زينته التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق وأباح الاستمتاع بهذه الأشياء ، إلا أنه جعل لهذا الاستمتاع حدا وسطا ، قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ (٥٩) ، وحكم على المبذرين بأنهم إخوان الشياطين ، حيث قال : ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ (٦٠) أى إخوانا لهم فى الضلال والإضلال .

خطورة الترف

لقد بين القرآن خطورة الترف على أصحابه فى عدة أمور ، منها :

أ - أن المترفين - أصحاب المال والمتع غير المشروعة ، والتثمير الحرام - يفسرون الكون تفسيرا خاطئا ، ويحكمون على الدنيا حكما عبثا ، ويقفون من الدعاة إلى الله - أنبياء ومصلحين - موقف التكذيب ، والتجاهل والتغافل .

لأن دعوة الرسل والمصلحين ، تقوض أول ما تقوض ترف هؤلاء المترفين ، وتزيح أول ما تزيح ، وضعهم الاجتماعى الكاذب ، وزعامتهم الزائفة .

قال تعالى عن رسول من رسله ، وقومه المترفين ، وتصورهم للحياة :

﴿ **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون ، أيعدكم أنكم إذامتم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيهات هيهات**

---

(٥٩) الأعراف : ٣١ .

(٦٠) الإسراء : ٢٧ .

لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾[٦١] وقال أيضا: ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾[٦٢]

ب - وبين القرآن كذلك أنهم عوامل هدم فى المجتمع الذى يعيشون فيه. إذ أنهم بترفهم هذا وانغماسهم فى الشهوات والمعاصى ، يكونون قد استجلبوا مقت الله ، واستحقوا عذابه . قال تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾[٦٣] من أجل هذا حرم الله تعالى كل مايؤدى إلى هذه النتيجة السيئة ، بأى لون من ألوان الترف...

٥ - أكل مال اليتيم

ومن المعاملات المالية التى حرمها الله تعالى ، والتى تحقق ضررا عاجلا ، أكل مال اليتيم .

لقد بعث الرسول ﷺ فى عصر ، بلغ فيه البشر من الظلم ما بلغوا ، فلم يكن عجيبا من هؤلاء الذئاب أن يفترسوا يتيما ، لا حول له ولا قوة ، ولا أنصار له ولا أعوان ، بل هو كالريشة التى لا وزن لها فى مهاب الأعاصير والفياضانات ... من أجل هذا وجدنا الآيات القرآنية منذ بدايات الوحى المكى تنهى عن ظلم اليتيم ، بأى صورة من الصور ، وخاصة أكل ماله ، تقرأ فى بدايات ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾[٦٤] وقوله ﴿ **كلا بل لا تكرمون اليتيم** ﴾[٦٥] .

واعتبر القرآن استضعاف اليتيم وقهره ، ومعاملته بالعنف علامة من علامات

---

(٦١) المؤمنون : ٣٢ - ٣٨ .

(٦٢) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ .

(٦٣) الإسراء : ١٦ .

(٦٤) الضحى : ٩ .

(٦٥) الفجر : ١٧ .

الكفر والتكذيب بيوم القيامة . قال تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم** ﴾(٦٦) والدع هو الدفع بقوة وعنف ، وإنما حمله على ذلك تكذيبه بيوم يلاقى فيه جزاء عنفه هذا .

ولقد صور القرآن الكريم عملية الاستيلاء على مال اليتيم ، وما يستحقه ذلك الظالم أبشع تصوير ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾(٦٧)

إن التعبير بأكل مال اليتيم بدلا من الاستيلاء عليه – مع أنه يكون للأكل وغيره لإظهار بشاعة هذا الظالم ، ولمزيد التشنيع على فعله ، وكأنه لم يجد خزانة لمال اليتيم إلا بطنه .

والتعبير بأكل النار تعبير دقيق وشنيع . لقد قال بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى ﴿ **إنما يأكلون فى بطونهم نارا** ﴾ أى ما يؤدى بهم إلى النار ، وأرى أن هذا تفسير غير دقيق ، فقد قال الله بعد ذلك ﴿ **وسيصلون سعيرا** ﴾ ، فمعنى ذلك أن آكل مال اليتيم إنما يعاقب بعقابين ، عقاب فى الدنيا وهو الذى قال عنه ﴿ **إنما يأكلون فى بطونهم نارًا** ﴾ وعقاب فى الآخرة ، وهو المعنى بقوله ﴿ **وسيصلون سعيرا** ﴾ وأرى أن عقاب الدنيا هذا إنما هو كما قال القرآن نار فى البطن ، أى أن ذنب أكل مال اليتيم يترتب عليه أمراض جسدية ونفسية ، تفعل فى صدر وبطن الآكل ما تفعله النار ، ولا مانع أن يصير هذا المال الذى أكله هذا الظالم نارا حقيقية يوم القيامة تدخل بطنه لتفعل بها الأفاعيل .

ومما يؤيد رأيى هذا – فيما أرى – أن الآية السابقة لتلك ، وجهت المتخوفين على ذريتهم ، القلقين على مستقبلهم ، توجيها يريحيهم من هذا القلق النفسى ، والاضطراب العصبى ، قال تعالى: ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** ﴾ (٦٨)

---

(٦٦) الماعون : ١ ، ٢ .

(٦٧) النساء : ١٠ .

(٦٨) النساء : ٩ .

رعاية مال اليتيم

روى المفسرون أنه لما نزلت تلك الآية ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى** ﴾ تحامى الناس عن مخالطة اليتيم ، وتعهد أموالهم ، فشق ذلك عليهم ، فذكروه للنبى ﷺ ، فنزل قوله تعالى ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾[٦٩].

فإذا ضممنا إلى قوله تعالى ﴿ **قل إصلاح لهم خير** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** ﴾[٧٠] تبين لنا :

١ - أنه يحرم المساس إطلاقا بمال اليتيم ، بما فيه أدنى ضرر له .

٢ - على الوصى تثمير مال اليتيم ، بما فيه إصلاحه .

وتبين لنا آية أخرى حكم أخذ الوصى شيئا من مال اليتيم ، حيث تقول : ﴿ **ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف** ﴾[٧١] فقد نصت على أنه:

١ - من الأفضل للوصى إن كان غنيا ، أن لا يأخذ أجرة ، على قيامه على اليتيم ، وعلى مصلحة ماله .

٢- فإن كان فقيرا : فليأخذ مقابل خدمته لليتيم ولماله ، بقدر حاجته الضرورية .

قال أبو السعود فى تفسيره : « وفى لفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف ، ما يدل على أن للوصى حقا ، لقيامه عليها ، عن النبى ﷺ أن رجلا قال له : إن فى حجرى يتيما ، أفآكل من ماله ؟ قال : بالمعروف ، غير متأثل مالا، ولا واق مالك بما له .

وذهب بعضهم إلى أنه يأخذ بقدر الضرورة ، فإذا أيسر قضى ، عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « إنى أنزلت نفسى من مال الله تعالى منزلة ولى اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، وإذا أيسرت

---

(٦٩) البقرة : ٢٢ .

(٧٠) الأنعام : ١٥٢ ، والإسراء : ٣٤ .

(٧١) النساء : ٦ .

قضيت »[72]

متى يسلم المال لليتيم ؟

ينص القرآن أنه لا يجوز أن يسلم المال لليتيم ، إلا بعد أن يصل إلى حال الرشد ، بحيث يتصرف فى ماله تصرف الرجل العاقل ، المدرك لعواقب الأمور.

وإذا كان العلماء قد اختلفوا فى تحديد سن الرشد ، فإن القرآن لم يحدد له سنا خاصا ، وإنما نص على حسن تصرف اليتيم فى ماله ، حيث قال : ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾[73] فقد علقت الآية إعطاءهم المال على أمرين :

١ - بلوغهم السن ، الذى يكون معه الزواج .

٢ - حسن التصرف ، وهو المراد من قوله ﴿ **فإن آنسيتم منهم رشدا** ﴾ فعلى الوصى اختبار اليتيم إذا بلغ ، فإن رآه حسن التصرف أعطاه ماله ، وإلا فلا.

كيفية التسليم

ولم يترك القرآن كيفية التسليم لما يراه الوصى من وجهة نظره ، بل حددها له ، حيث بين له ما يأتى :

١ - أن لا يأخذ الطيب ، ويعطيه الخبيث بدلا منه ، فقد يفعل البعض ، أن يعطيه الكم كاملا ، ولكن النوع خبيث ، قال تعالى : ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** ﴾[74]

٢ - أن لا يماطل الوصى فى التسليم ، إذا حان وقته ، بأن يجعله مضموما إلى ماله ، فيضيع على اليتيم فرصة تثمير ماله ، قال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** ﴾[75]

---

(٧٢) تفسير أبى السعود : ٢ / ١٤٦ .

(٧٣) النساء : ٦ .

(٧٤) النساء : ٤.

(٧٥) النساء : ٢ .

٣ - يجب الإشهاد على التسليم ، قال تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ﴾[٧٦]

وفي هذا الإشهاد فائدتان :

أ فرض رقابة على الوصي أثناء وجود مال اليتيم معه .

ب - إبراء ذمته ، بعد تسليمه لليتيم .

٦ - استغلال النساء وسيلة للحصول على المال

ومن الأمور التي حرمها القرآن : أن يستغل الرجل المرأة للحصول على المال ، ولهذا الاستغلال عدة صور منها :

١ - إرث النساء كرها ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾[٧٧] ، وكانوا يفعلون ذلك بضم ميراث المرأة إلى ميراث الرجل نهائيا ، أو بعدم فصل ميراثها عن ميراثه ، فيحرمها من الانتفاع به .

٢ - مضايقة الزوج زوجته ، بأي صورة من الصور ، لتتنازل عن بعض مهرها ، وعبر القرآن عن هذه المضايقة بالعضل ، حيث قال تعالى:﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾[٧٨] ورد في سبب نزولها : أن الرجل كان إذا مات قريبه ، يلقي ثوبه على امرأته ، أو على خبائها ، ويقول أرث امرأته كما أرث ماله ، فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ، ثم إن شاء تزوجها بلا صداق ، وإن شاء زوجها غيره ، وأخذ صداقها ، ولم يعطها منه شيئا ، وإن شاء عضلها ، لتفتدي بما ورثت من زوجها .[٧٩]

٣ - كان الرجل من أهل الجاهلية إذا زهد في امرأته ، ورغب في زواج أخرى ، رماها بالزنا ، ليلجئها إلى أن تفتدي نفسها منه ، بما أعطاها من صداق ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان

---

(٧٦) النساء : ٦ .

(٧٧) النساء ١٩ .

(٧٨) النساء : ١٩ .

(٧٩) أسباب النزول للواحدي : ٨٠ .

زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾[٨٠] قال أبو السعود : « كان أحدهم إذا تزوج امرأة بهت التي تحته بفاحشة ، حتى يلجئها ، إلى الافتداء منه ، بما أعطاها ، ليصرفه إلى تزوج الجديدة ، فنهوا عن ذلك »[٨١]

لقد نهى القرآن أن تكون المرأة وسيلة للحصول على المال بهذه الوسيلة القذرة ، حيث قال ﴿ **أتأخذونه بهتانا** ﴾ أى بافتراء الكذب عليها ﴿**وإثما مبينا** ﴾ أى وأنتم مرتكبون إثما واضحا ، فى قذفكم ، والحصول على المال به .

٤ - كان من وسائل تحرير الرقيق فى الجاهلية ، والتى أقرها الإسلام : المكاتبة . أى يكاتب السيد عبده ، أو أمته ، على مبلغ معين ، إن دُفع إليه عتق العبد أو الأمة . ومن أجل حصول العبد أو الأمة على هذا المبلغ يتركهما السيد ، يعملان عند غيره . وكان بعض الأسياد يكره إماءه على الزنا ، ليجمعن له ما كاتبهن عليه ، فنزل النهى الإلهى ، عن إكراه الفتيات على سلوك هذا السبيل ، قال تعالى : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾[٨٢] وقوله تعالى ﴿ **إن أردن تحصنا** ﴾ ليس شرطا فى عدم الاكراه ، وإنما بيان للوضع الذى كان يحدث ، لأنه لا يتصور أن تكره امرأة على الزنا إلا إذا كانت لا تريده ، وإلا فأين الإكراه ؟

سؤال

هذا نوع واحد فقط من أنواع المعاملات التى تحدث عنها القرآن ، وهى

---

(٨٠) النساء : ٢٠ .
(٨١) تفسير أبى السعود : ٢ / ١٥٩ .
(٨٢) النور : ٣٣ .

كثيرة ، فمنها ما يتعلق بمعاملة الفرد لنفسه ، ومعاملته لزوجته ، ومعاملته لأولاده ، ومعاملته لقرابته ، ومعاملته لجيرانه ، ومعاملته ، لأبناء مجتمعه ، رجالا ، أو نساء ، ومعاملته لأولى الأمر ، ومعاملته للحيوانات ، بل معاملته لكل من وما فى الكون ، وفى جميع الحالات ، إضافة إلى معاملة المسلمين لغير المسلمين ، فى المأكل والمشرب ، والتجارة ، والسلم والحرب . إلى غير ذلك من أنواع المعاملات ..

والسؤال المطروح هنا : هل فى مكنة رجل مثل محمد بن عبد الله الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يشرع نوعا واحدا مثل هذه الأنواع من المعاملات ؟

إن هذا ليعجز عنه جميع الخلق ، والمجال مفتوح لمن أراد المعارضة .

رابعا : التشريع الأخلاقى

ومما يستحيل صدوره عن البشر جميعا ، هذا التشريع الأخلاقى العظيم ، الذى جاء فى القرآن الكريم ، فما من فضيلة إلا وحث عليها القرآن بأساليب متنوعة ، وما من رذيلة ، إلا وحذر منها ، وذلك هو الأسلوب الوحيد الذى يربى أمة هى خير أمة أخرجت للناس حيث انتزع من الناس الرذائل وزرع فيهم الفضائل .

وأعتقد أننا وبعد الحديث عن الجوانب السابقة يطول بنا المقام لو استعرضنا بعض الصفات .

ولئن لم يمكننا ذلك فنكتفى بإشارة إلى بعض مواضع الآيات فى القرآن ، انظر مثلا الوصايا فى سورة الأنعام والتى تبدأ بالآية رقم ١٥١ ، ووصايا سورة الإسراء ، والتى تبدأ بالآية رقم ٢٢ ووصايا سورة لقمان والتى تبدأ بالآية ١٣ ، وصفات المؤمنين فى أول سورة المؤمنون وصفات عباد الرحمن فى أواخر سورة الفرقان .

وغير ذلك بما يتبن لنا أن تشريعا أخلاقيا مثل هذا التشريع لا يمكن أن يصدر عن البشر ، لأن البشر لهم ميولهم وعواطفهم الخاصة ، ومصالحهم الشخصية بما لا يكفل نزاهة لأى تشريع . فلو كان هذا التشريع الأخلاقى من عند غير الله لوجدوا فيه فسادا كثيرا .

طريقة القرآن فى التشريع

سبب فى إعجازه ، من هذا الوجه

وإذا كان التشريع القرآنى من أبرز وجوه إعجازه ، وأقواها ، فإن وراء ذلك التشريع أسبابا عظيمة ، جعلته يصل إلى حد الإعجاز ، الذى لا يستطيع محمد ولا قومه ، ولا العالم كله أن يأتى بمثله ، ومن هذه الأسباب :

١ - أن تشريع القرآن للدنيا والآخرة معا ، فلم يهتم بالدنيا ويترك الآخرة ، أو يهتم بالآخرة دون الدنيا ، وإنما شرع لهما معا ، وإن شئت فقل إنه ربط بينهما ، فجعل الدنيا وسيلة للوصول إلى أسمى درجات الآخرة .

٢ - تشريع القرآن للروح والجسد معا ، فكما جعل للروح منهجا ، جعل للجسد منهجا ، وبالتالى لم تتغلب المادية على الروح ، ولم تتغلب الحياة الروحية على الناحية الجسدية ، كما يفعل الرهبان ...

٣ - مراعاة التيسير ورفع الحرج عن المكلفين ، قال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾[١] ، وقال ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[٢] ﴿ **مايريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾[٣]

٤ - مخاطبة العقل ، واحترامه ودعوته إلى التحرر من التقليد الأعمى ، ولذلك رأينا كثيرا من الآيات القرآنية ، تنعى على من يتبعون الآباء والأجداد ، دون أن يعملوا عقولهم ، كذلك رأينا كثيرا من الآيات

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) البقرة : ١٨٥ .
(٣) المائدة : ٦ .

تنتهي بمثل قوله تعالى : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ ﴿ لقوم يعلمون ﴾ ونحو ذلك .

٥ - التدرج فى التشريع ، خاصة فى الأمور التى تمكنت من قلوبهم ، ورسخت فى دمائهم ، مثل شرب الخمر ، والربا ، وقد كان هذا سببا قويا فى إسلام كثير من الناس ، وإقبال الجميع على شرع الله عز وجل.

٦ - أسلوب القرآن العظيم ، ووصوله إلى أعماق القلوب ، بما يشعر سامعه بأن هذا القرآن من عند الله ، وقد رأينا فى الإعجاز البيانى والنفسى مدى عظمة هذا الأسلوب ، ومدى انبهار كل من يسمع القرآن ، حتى لو كان كافرا به ، بل حتى لو لم يعرف لغة العرب .
إلى غير ذلك من الأسباب التى جعلت هذا التشريع القرآنى يصل إلى حد الإعجاز ، بحيث يعجز الخلق كله عن وضع تشريع فى ناحية واحدة من نواحيه ، فضلا عن الإتيان بتشريع كامل فى كل هذه النواحى .

وشهد أعداء القرآن بإعجازه التشريعى

رغم حقد المجتمع الغربى والأمريكى على الإسلام ، وكتابه القرآن ، إلا أنهم لم يستطيعوا كتمان عظمة هذا الدين ، وسمو التشريع القرآنى ، بما يعجز أى تشريع أن يقاربه ، فضلا عن أن يماثله ، وجاءت أقوالهم صريحة فى ذلك ، وهى فوق الحصر ، نقتصر منها على ما يسمح به المقام ..

١ - يقول المستشرق الامريكى إيرفنج :

« كانت التوراة فى يوم ما ، هى مرشد الإنسان ، وأساس سلوكه ، حتى إذا ظهر المسيح عليه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل ، ثم حل القرآن مكانهما ، فقد كان القرآن أكثر شمولا وتفصيلا ، من الكتابين السابقين ، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين ، من تغيير وتبديل ، حوى القرآن كل شىء ، وحوى جميع القوانين ، إذ أنه خاتم الكتب السماوية »[١]

ويقول أيضا : « يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء ، وإلى مذاهب أخلاقية سامية »[٢]

٢ - ويقول « مارسيل بوازار » المفكر والقانونى الفرنسى المعاصر:

« لقد أثبت التنزيل برفضه الفصل بين الروحى والزمنى ، أنه دين ونظام اجتماعى ، ومن البدهى أن التنزيل والسبيل الذى ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق »[٣]

ويقول أيضا : « إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية ، إنه على العكس ، يحمل الشريعة الخالدة والكاملة ، والمطابقة للحقائق البشرية ، والحاجات الاجتماعية ، فى كل الأزمنه . »[٤]

كما يقول : « يخلق الروح القرآنى ، مناخ عيش ينتهى به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية ، والمساواة بين العقليات ، والنظم الاجتماعية ، بأكثر مما

---

(١) قالوا عن الإسلام : ٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ٥٠ .

(٣) قالوا عن الإسلام : ٥٤ .

(٤) الموضع السابق .

تفترض التصريفات السياسية ، والطوابع الأيدلوجية التي تستند إلى الدول . ولا يكفى قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى فى الذهنية الاسلامية المعاصرة ، فهو ما يزال مصدر الإلهام الفردى والجماعى الرئيسى ، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير .»[٥]

كما يقول : « إن الأدوات التى يوفرها التنزيل القرآنى قادرة – ولا ريب – على بناء مجتمع حديث »[٦]

٣ – ويقول « ول ديورانت » المؤرخ الامريكى المعاصر :

« ظل القرآن أربعة عشر قرنا من الزمان ، محفوظا فى ذاكرة المسلمين ، يستثير خيالهم ، ويشكل أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال ، والقرآن يبعث فى النفوس أسهل العقائد ، وأقلها غموضا ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية وقد كان له أكبر الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى ، وهو الذى أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى ، والوحدة الاجتماعية ، وحرضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث فى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال ، والبعد عن الشهوات ، لم يوجد لها نظير فى أية بقعة ، من بقاع العالم ، يسكنها الرجل الأبيض »[٧]

٤ – ويقول « جاك ريسلر » ، الفرنسى المعاصر:

إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا ، ويربط ما بين القانون الدينى والقانون الأخلاقى ، ويسعى إلى خلق النظام ، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات .

إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين ، ويوصى بالبر ، ويأمر بالرحمة ، وفى مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومى ، ونظم العقود

---

(٥) الموضع السابق .

(٦) الموضع السابق .

(٧) قالوا عن الإسلام : ٦٤ .

والمواريث ، وفى ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد ، تجاه معاملة الأطفال ، والأرقاء والحيوانات ، والصحة والملبس ... الخ »[٨]

٥*– ويقول المستشرق الفرنسى « لويس سيديو » ، توفى عام ١٨٧٦ :

« لا تجد فى القرآن آية إلا توحى بمحبة شديدة لله ، وفيه حث كبير على الفضيلة ، خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقى ، وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف ، وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم ، وفيه مقت للعجب والغضب ، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر ، وفيه حض على الوفاء بالعهود ، حتى مع الكافرين ، وتحريض على خفض الجناح والتواضع وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم ، لا لعنهم .

ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة ، المملوءة حكمة ورشدا ، لإثبات صفاء قواعد الأخلاق فى القرآن ، أنه أبصر كل شىء »[٩]

٦ – يقول المفكر والصحفى النمساوى « فايس » ، الذى أسلم وتسمى « محمد أسد »:

« أصبحت «السا» ، زوجتى ، شأنى أنا ، أكثرتأثرا مع الوقت ، بذلك الالتئام الباطنى ، بين تعاليم القرآن الأخلاقية ، وتوجيهاته العملية .

إن الله بمقتضى القرآن لم يطلب خضوعا أعمى من جانب الإنسان ، بل خاطب عقله ، إنه لا يقف بعيدا عن مصير الإنسان ، بل إنه أقرب إليك من حبل الوريد ، إنه لم يرسم أى خط فاصل بين الإيمان والسلوك الاجتماعى »[١٠]

٧ – ويقول المفكر الإنجليزى ، الذى أسلم عام ١٨٨٧م وتسمى « عبد الله كويليام »:

« أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية ، ، إنه القانون العام للعالم الإسلامى ، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية

---

(٨) قالوا عن الإسلام : ٦٦ .

(٩) قالوا عن الإسلام .

(١٠) قالوا عن الإسلام : ٧٢ .

والقضائية والجنائية والجزائية .

ثم هو قانون ديني ، يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية ، إلى أمور الحياة الدنيوية ، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان ، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد ، ومن منفعة الإنسان الذاتية ، إلى منفعة الهيئة الاجتماعية ، ومن الفضيلة إلى الخطيئة ، ومن القصاص فى هذه الدنيا إلى القصاص فى الآخرة .

وعلى ذلك : فالقرآن يختلف ماديا عن الكتب المسيحية المقدسة ، التى ليس فيها شىء من الأصول الدينية ، بل هى فى الغالب مركبة من قصص وخرافات ، واختباط عظيم فى الأمور التعبدية ، وهى غير معقولة ، وعديمة التأثير .»[١١]

٨ - ويقول « كوستاف لوبون » المؤرخ والطبيب الفرنسى :

« قد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم ، والقرآن هو قطب الحياة فى الشرق ، وهو ما نرى أثره فى أدق شئون الحياة . »[١٢]

---

(١١) المصدر السابق : ٨٣ .

(١٢) المصدر السابق : ٨٦ .

الفصل الخامس

الوجه الخامس من وجوه الإعجاز

الإعجاز العلمى الحديث

الوجه الخامس من وجوه الإعجاز

الإعجاز العلمي *

والمقصود من هذا الوجه : وجود آيات فى القرآن الكريم ، اتسع معناها ليتناول حقائق علمية ثابتة ، غير قابلة للنقد ، لم يكتشفها العلماء إلا فى وقت قريب ، ويستحيل فى مثل هذه الحقائق أن تصدر عن رجل - مثل محمد بن عبد الله - ظهر قبل أربعة عشر قرنا فى بيئة أمية ، وُلِدَ وَشَبَّ وشاب ، وعاش ومات ، دون أن يعرف ما القراءة ، وما الكتابة ، ودون أن يتتلمذ ، ولو مشافهة ، على يدى أحد من العرب أو العجم ، بل إن العالم كله فى هذا الوقت كان يسوده الركود العلمى ، فضلا عن معرفته لتلك العلوم العظيمة .

يقول موريس بوكاى الطبيب الفرنسى والمستشرق الشهير : « ومن الثابت فعلا أن فترة تنزيل القرآن أى تلك التى تمتد على عشرين عاما تقريبا ، قبل وبعد عام الهجرة ٦٢٢م ، كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون »(*)

ونحن أمام تلك الآيات الكونية فى القرآن ، لا بد لنا من التعرض لبعض الأمور لمعرفة سر ذكر هذه الكونيات فى القرآن ولكى نحكم : هل يعد هذا وجها من وجوه الإعجاز أولا ، وإذا كان وجها فما القواعد التى تحكمه ؟ وهذه الأمور التى أرى ضرورة التعرض لها تنحصر فى الآتى :

١ - تكريم الله للعلم والعلماء وطلاب العلم .

٢ - المقصود من العلم .

٣ - إفاضة القرآن فى الحديث عن العلوم الكونية ، والحث على التأمل فيها .

٤ - ارتكاز العقيدة والشريعة على العلوم الكونية ، وارتباطهما بها .

٥ - اتخاذ الكون وظواهره مادة لضرب الأمثال ، للترغيب والترهيب .

(*) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ١٤٠ .

٦ – عدم التناقض بين الدين والعلم .
٧ – التفسير العلمى بين الرافضين والمتساهلين .
٨ – موقفنا من التفسير العلمى .
٩ – نماذج من الإعجاز العلمى .
١٠ – أعداء القرآن يشهدون بإعجازه العلمى .
١١ – العلوم الحديثة تكشف زيف التوراة والإنجيل وتحريفهما .

فإلى الحديث عن هذه الأمور ، بشىء من التفصيل ..

أولا : تكريم الله للعلم والعلماء وطلاب العلم

لقد كرم الله العلم فى كتابه الكريم ، فى مواضع متعددة ، وكان أول آية نزلت هى قوله تعالى ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ من سورة العلق ، ولا أدل على تكريم الله العلم من أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، حينما جهلوا ما كان يعلمه ، وتبدو أهمية العلم ، من جهات كثيرة ، منها :

١ – أن العلم هو الفارق بين الإنسان والحيوان ، ولذلك قال تعالى فيمن لم ينتفع بوسائل علمه ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾[(١)] وأثر عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : « لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم »

٢ – بالعلم يدرك الإنسان عواقب الأمور ، فيقى نفسه من المحظور ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[(٢)]

٣ – بالعلم ينشغل الإنسان بعظائم الأمور ، قال معاذ بن جبل رضى الله عنه : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلود »[(٣)]

٤ – بالعلم لا تنقطع حسنات العالم ، حتى لو مات ، فأثر علمه لا

(١) الأعراف : ١٧٩ .
(٢) فاطر : ٢٨ .
(٣) مختصر منهاج القاصرين : ٧ .

يتوقف على شخصه ، ولا على حياته ، قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[٤] وقال أيضا : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا »[٥]

٥ - وبالعلم تسود الأمم وتعز ، وتمتلك زمام أمورها ، وأمور غيرها ، وواقع الأمم قديما وحديثا يشهد بصحة هذه الحقيقة ..فالأمة التى تقدر العلم وتحترم علماءها تملك حرية قراراتها ، والسيطرة على سيادتها ، والأمة التى لا تقدر العلم ، وتهمل علماءها ، لا تمتلك من أمرها شيئا ، بل هى ألعوبة بين أيدى الأمم الأخرى ، تحركها متى شاءت وكيف شاءت وتكون قيادتها وشعبها تحت قهر الآخرين .

وكما كرم الله العلم كرم العلماء ، وقد جاء ذلك فى مواضع ، عدة ، منها:

١ - أنه جعل شهادتهم مقترنة بشهادته وشهادة الملائكة له بالوحدانية ، قال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** ﴾[٦]

٢ - أنه نفى مساواتهم بغيرهم ، قال تعالى : ﴿ **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[٧]

٣ - أنه جعلهم أهل خشيته ، حيث قال : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[٨]

٤ - خصهم بالذكر بعد تعميمهم فى رفع الدرجات ، حيث قال تعالى ﴿ **يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أتوا العلم درجات** ﴾[٩]

---

(٤) مسلم ، كتاب العلم ، باب (١٤) .

(٥) مسلم ، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة .

(٦) آل عمران : ١٨ .

(٧) الزمر : ٩ .

(٨) فاطر: ٢٨ .

(٩) المجادلة : ١١.

٥ – جعلهم الله ورثة الأنبياء ، فيما يتركون من علم ، فالأنبياء حينما ماتوا لم يتركوا ميراثا ماديا ليرثه الناس ، فما كان لهم من متاع دنيوى ، فهو صدقة ، أما العلم فهو ميراثهم الحقيقى ، وورثة هذا العلم هم العلماء.

يقول المناوى : « والميراث ينتقل إلى الأقرب وأقرب الأمة فى نسبة الدين العلماء ، الذين أعرضو عن الدنيا وأقبلوا على الآخرة ، وكانوا للأمة بدلا من الأنبياء ، الذين فازوا بالحسنيين العلم والعمل ، وحازوا الفضيلتين ، الكمال والتكميل »(١٠)

وكما كرم الله العلم والعلماء فقد كرم طلاب العلم ، بتيسير طريقه ، وجزائهم علية الجزاء الأوفى .

قال رسول الله ﷺ : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفهتم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »(١١) إلى غير ذلك من النصوص الشرعية ، وهى كثيرة ، معلومة .

ثانيا : المقصود من العلم

معلوم أن أول آية أنزلها الله تعالى ، هى قوله ﴿ **إقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾(١٢) وواضح منها أنها تعم كل علم دينى دنيوى .

وإذا كان الرسول ﷺ قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »(١٣) فليس معنى ذلك ذم العلم الدنيوى ، وإنما القصد منه مدح كل علم يوصل الإنسان بربه ، أيا كان هذا العلم .

إن الله حينما أمر بالقراءة فى أول آية ربط القراءة بالله تعالى ، وحينما نص

---

(١٠) فيض القدير : ٤ /٣٨٤ .

(١١) مسلم ، كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن .

(١٢) العلق : ١ .

(١٣) أخرجة البخارى فى كتاب العلم ، باب (١٠) ، ومسلم فى كتاب الإمارة باب (١٧٥) .

على أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى ، أتى بهذه العبارة بعد لفت الأنظار إلى عدد من العلوم الدنيوية فى سورة فاطر ، حيث قال : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾(١٤) فالعلم فى مفهوم الإسلام إذًا يشمل العلوم الشرعية ، والعلوم الدنيوية ، لأن كلا منهما يوجب معرفة الله تعالى ، والسير على هداه .

يقول أبو حامد الغزالى - بعد مقارنة بين العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية :

« ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ، فالمتكلفون بالعلوم كالمتكلفين بالثغور ، والمرابطين بها ، والغزاة المجاهدين فى سبيل الله ، فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذى يسقيهم الماء ، ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم ، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم ، فكذلك العلماء »(١٥) إلى أن يقول :
« ومن قصد الله تعالى بالعلم - أى علم - كان نفعه ورفعه لامحالة »

ويقول «هوشل»(١٦)

« كلما اتسع نطاق العلم ، زادت البراهين الدامغة القوية ، على وجود خالق أزلى ، لا حد لقدرته ولا نهاية »

ثالثا : إفاضة القرآن فى الحديث عن العلوم الكونية والحث على التأمل فيها

وإذا كا ن العلم فى مفهوم الإسلام ، يشمل العلم الدينى والدنيوى ، فلا عجب أن نرى القرآن الكريم يتحدث عن العلوم الدنيوية فى حوالى ثمانمائة آية من آياته ، التى أشارت إلى السماء والأرض ، والشمس والقمر . والبحار والأنهار ، والجبال والزروع والثمار ، والأفلاك والنجوم ، والكواكب ،

(١٤) فاطر : ٢٨ .
(١٥) إحياء علوم الدين ١ /٥٣ ط عيسى الحلبى
(١٦) كما نقل عنة د / يوسف القرضاوى ، فى كتاب « الإيمان والحياة » ص : ٣٢٦ .

والحيوانات ، والمعادن ، والهواء والرياح ، وما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها. وغير ذلك ، مما أتى فى إشارات جلية واضحة ، إلى حقائق علمية ، وظواهر كونية ، فى مجالات شتى .

وعلى سبيل المثال : فهذه آية واحدة فى سورة البقرة ، جمعت علوما متعددة ، حيث يقول تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ (١٧)

فقوله تعالى : ﴿ **اختلاف الليل والنهار** ﴾ إشارة إلى علم الفلك ، وقوله ﴿ **والفلك التى تجرى فى البحر** ﴾ إشارة إلى علم البحار . وقوله ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء** ﴾ إشارة إلى علم المياه ، وقوله ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ إشارة إلى علم الزراعة والجيولوجيا ، وقوله ﴿ **وبث فيها من كل دابة** ﴾ إشارة إلى علم الحيوان ، وقوله ﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ إشارة إلى علم الأرصاد الجوية .

وهاتان الآيتان من سورة فاطر ، واللتان ذكرناهما قريبا يلفت القرآن أنظارنا بهما إلى كثير من العلوم الكونية ، وإلى عوالم متعددة .

فذكر أولا عالم الماء وإنزاله من السماء ، وذكر ثانيا : عالم النبات المتأثر بعالم الماء ، ثم ذكر ثالثا عالم الجبال والصخور وألوانها ووجه الأرض وطبقاتها ، بما يعرف بعلمى الجغرافيا والجيولوجيا ، وذكر رابعا عالم الانسان ، وخامسا عالم الدواب وسادسا عالم الأنعام ، واختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام ، الذى لم يأت صدفة ، من تراقص ذرات الأرض ، وانتهائها على هذا النظام البديع ، وإنما بإبداع البارىء المصور ، سبحانه وتعالى .

ولم يكتف القرآن بالإشارة إلى هذه العلوم ، أو إلى هذه العوالم ، وإنما حث

---

(١٧) البقرة : ١٦٤ .

على التأمل فيها ، حيث لم نجد مجالا من مجالات التأمل والتفكر إلا وجدنا فيه هذا الحث والتحريض .

ففى مجال بدء الخلق يأمرنا بالسير فى الأرض للتأمل فى كيفيته ، قال تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾[18] ، وفى مجالى التاريخ والآثار يقول تعالى : ﴿ **أو لم يهد لهم كم أهلنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون** ﴾ وبعدها مباشرة يدلنا على علم الماء، وعلم الزراعة ، وعلم الجغرافيا ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الإنسان ، فيقول : ﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾[19] ، إلى غير ذلك من الآيات التى تحث على التأمل فى شتى المجالات مما جعل بعض السلف يقول : أنزل فى هذا القرآن كل علم ، وبين لنا فيه كل شىء ولكن علمنا يقصر عما يبين لنا فى القرآن »[20] إن الله الذى خلق هذا الكون ، هو الذى خلق هذا العقل ، وميز الإنسان به عن سائر الدواب ، وجعله وسيلة للاقتناع ، دون أن يجعل خوارق العادات وسائل جبرية ، للإيمان بالله ، وطاعته .

والله الذى خلق هذا الكون وأبدعه ، وجعل فيه من الأسرار ما جعل ، لم يتح تسخيره والاستفادة منه للعجزة ، ولم يلق مفاتيح تلك الأسرار للحمقى ، بل سخره لأولى العزم ، وألقاها لأولى الألباب .

ولذلك رأينا كثيرا من الآيات القرآنية تنتهى بمثل قوله تعالى : ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ ، و ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ و ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ و ﴿**لقوم يتذكرون** ﴾ ، وقوله ﴿ **أفلا يسمعون** ﴾ وقوله ﴿ **أفلا يبصرون** ﴾

---

(١٨) العنكبوت : ٢٠ .

(١٩) السجدة : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٠) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود ، كذا فى تفسير الآلوسى ٧ /٢٥ ط المنيرية

رابعا : ارتكاز العقيدة والشريعة على العلوم الكونية وارتباطهما بها *

المتأمل فى الآيات القرآنية يرى أن الله عز وجل اتخذ من الكون وظواهره مادة دسمة ، سلسة ، لتأسيس أعظم عقيدة وأصحها ، وإقامة أصلح شريعة وأشملها .

وقد اتبع القرآن فى ذلك طرقا متعددة ، وأساليب فريدة ، فاقت كل ماعرفه البشر ، من طرق الإقناع ، ووسائل التسليم.

ففى مجال العقيدة ، ووحدانية الله تعالى ، وعدم وجود شريك له عز وجل ، اتخذ من إبداع الكون ، ومن غاية إتقانه ، وتمام إحسانه ، وكمال استقراره ، دليلا على ذلك .

قال تعالى: ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾(٢١) وقال ﴿ **وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلابعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون**﴾ (٢٢)

وقد أطلق العلماء على هذا الدليل برهان التمانع .

وفى معرض نفى الشركاء لله تعالى استدل بخلق هذا الكون وما فيه على هذا النفى ، قال تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾(٢٣) ، وقال ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾ (٢٤) الخ هذه المجموعة القرآنية من سورة النمل

وحينما ادعى البعض وجود ولدله - عز وجل - اتخذ من الحقيقة الثابتة لهم برهانا على نفى هذا الولد ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل**

---

(٢١) الانبياء : ٢٢ .

(٢٢) المؤمنون : ٩١ .

(٢٣) النحل : ١٧ .

(٢٤) النمل : ٦٠ -٦٤ .

له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ [٢٥] ، وقال : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ [٢٦]

إن من كان خالقا لكل موجود كيف يحتاج إلى مولود ؟

وكيف يأتى هذا المولود دون أن يكون له أم يباشرها رجل ؟ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وحينما شك الناس فى قدرة الله على إحيائهم بعد موتهم ، اتخذ من تلك الحقائق الثابتة ، والتى تقع تحت أبصارهم دليلا على قدرة الله على ذلك .

قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ [٢٧]

والآية التاسعة من سورة فاطر ، والتاسعة والثلاثون من سورة فصلت ، والحادية عشرة من سورة قَ تحمل هذا المعنى .

وفى سورة الحج اتخذ سبحانه من علم الأجنة ، ومن نزول الماء على الأرض الميتة دليلا على البعث بعد الموت ، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرفى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾ [٢٨]

هذا عن ارتكاز على العلوم الكونية ، وارتباطها بها .. فإذا ما جئت إلى

---

(٢٥) البقرة : ١١٦ .
(٢٦) الأنعام : ١٠١ .
(٢٧) الأعراف : ٥٧ .
(٢٨) الحج : ٥

الشريعة ، وجدتها ترتبط كذلك أتم الارتباط بالكون وما فيه .

ولا أدل على ذلك من ارتباط شعائر الإسلام الدائمة بدوام الكون والإنسان بها .

فالطهارة : بأنواعها ، من وضوء ، وغسل ، وتيمم ، واستنجاء ، وإزالة نجاسة ، قائمة على الماء ، والتراب ، والأحجار.

والصلاة كذلك : وقتها ، بداية ونهاية ، وقبلتها ، ترتبط بعلم الفلك ، حيث يراعى فيها شروق الشمس وغروبها ، وتفجر الليل عن النهار ، بتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وامتداد الظل وانحساره .

والزكاة كذلك : أنواعها ، ونصابها ، ومقدارها ، من زروع وثمار ، وحيوان ، وتجارة ، ومعادن ، وغير ذلك ، ومن اشتراط تمام سنة عليها .

وكذلك الصيام : ابتداء شهره ، بظهور هلاله ، وانتهاؤه برؤية هلال الشهر التالى وابتداء الإمساك عن المفطرات ، ووقت الافطار .

وكذلك الحج : أشهره ، وميقاته الزمانى والمكانى ، ووسائل سفره ، من برية ، أو بحرية ، أو جوية .

كل ذلك يشد اللهُ به الإنسانَ ، إلى الكون وخالقه .

وإذا أردنا تدليلا على ذلك ، فما أيسره ! فالطهارة مثلا تقرأ فيها قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾(٢٩) وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾(٣٠)

والصلاة تقرأ فى قبلتها ، وفى وقتها: ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾(٣١) ، ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر**

---

(٢٩) الفرقان : ٤٨ .

(٣٠) المائدة : ٦.

(٣١) البقرة : ١٤٩ ، ١٥٠ .

إن قرآن الفجر كان مشهوداً ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾[٣٢] ، ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾[٣٣] ، ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾[٣٤]، ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾[٣٥]

والزكاة تقرأ فيها : ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[٣٦]

والصيام تقرأ فيه ، وفى فرضيته ، وفى وقته ، وفى أحكامه ، قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ إلى نهاية قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾[٣٧]

وفى الحج تقرأ قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾[٣٨] وقوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ إلى قوله تعالى ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾[٣٩] ، وقوله : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك

---

(٣٢) الاسراء : ٧٨ ، ٧٩ .
(٣٣) طه : ١٣٠ .
(٣٤) الروم ١٧ ، ١٨ .
(٣٥) الطور : ٤٨ ، ٤٩ .
(٣٦) الأنعام : ١٤١ ، ١٤٢ .
(٣٧) البقرة : ١٨٣ - ١٨٧ .
(٣٨) البقرة : ١٨٩ .
(٣٩) البقرة : ١٩٧ - ٢٠٣ .

رجالا ﴾ إلى قوله: ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾[٤٠]

وهكذا يتبين لنا مدى ارتكاز العقيدة الإسلامية ، وشعائر هذا الدين ، على الكون وما فيه ، من ظواهر مادية ، وزمانية ومكانية ، بما يشد الإنسان إلى خالق هذا الكون ، وإلى عبادته بما يليق بسلطانه وجلاله .

خامسا : اتخاذ الكون وظواهره مادة لضرب الأمثال للترغيب والترهيب

كما ربط القرآن بين عقيدة الإسلام وشعائره وبين الكون وظواهره ، اتخذ أيضا من هذا الكون وظواهره مادة لضرب الأمثال ، ترغيبا فى الإيمان والعمل الصالح ، وترهيبا من الكفر والعمل الطالح .

ففى مجال التمثيل لنور الله ، وهداية الله من أحب لهذا النور ، يقول تعالى : **﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾**[٤١]

وفى مجال التنفير من النفاق والمنافقين يجىء هذا التمثيل : **﴿ مثلهم كمثل الذين استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾**[٤٢]

وفى مجال الحث على الإنفاق يجىء هذا التمثيل : **﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾**[٤٣]

وفى مجال التنفير من الرياء فى الصدقة ، وضرورة الإخلاص فيها يجىء

---

(٤٠) الحج : ٢٧ - ٣٧ .
(٤١) النور : ٣٥ .
(٤٢) البقرة : ١٧ .
(٤٣) البقرة : ٢٦١ .

هذا التمثيل : ﴿ يأأيها الذين آمنو لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾(٤٤)

وهذا التمثيل : ﴿ ومثل الذين ينفقون أمولهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعلمون بصير ﴾(٤٥)

وفى مجال إبطال نفقة الكافرين يجىء هذا التمثيل : ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾(٤٦)

وفى مجال إبطال أعمال الكفار على وجه العموم، يجىء هذا التمثيل :﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد ﴾(٤٧)
وهذا التمثيل : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور ﴾(٤٨)

وفى بيان أحوال الدنيا ونهايتها يجىء هذا التمثيل : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾(٤٩)

---

(٤٤) (٤٥) البقرة : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(٤٦) آل عمران : ١١٧ .
(٤٧) إبراهيم : ١٨.
(٤٨) النور : ٣٩ ، ٤٠ . (٤٩) الحديد : ٢٠ .

سادسا : لا تناقض بين الدين والعلم

الجهلة والمتجاهلون يلبسون الأمر على الناس ، ليحملوهم على الاعتقاد بأن هناك عداء بين الدين والعلم ، وأن الدين هدفه حبس الناس فى محراب العبادة ، وتجميد العقل البشرى عند حدود العصور الحجرية ، بينما العلم فى مفهومهم يعنى الأخذ بكل أسباب التطور والحضارة ، مع الانفصال عن خالق الكون ، والاستقلال بمنهج يخالف شرعه .

وهؤلاء قد ظلموا الدين ، ووسموه بما هو منه برىء ، لأن الدين والعلم صادران من مشكاة واحدة ، فالكتب السماوية كلام الله ، والكون فعل الله ، ويستحيل أن يتناقض قوله - عز وجل - مع فعله ، إذ هو عليم بكل شىء ، محيط بسر كل خلق ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة مما مضى ، أو مما هو حاضر ، أو مما هو آت .

وإذا مالاحظ إنسان ما أن هناك تناقضا ما بين دين وعلم ، فليعلم أن هذا التناقض هو فى حقيقتة ليس بين دين وعلم ، وإنما هو بين علم وعبث تزيا بزى الدين ، أو بين دين وجهل لبس رداء العلم .

وها هو القرآن يمر عليه القرن الخامس عشر ، ولم تظهر - ولن تظهر - بإذن الله تعالى حقيقة علمية ثابتة ، غير قابلة للنقد تخالف شيئا ، مما أشار إليه من علوم كونية.

إن التناقض بين الدين والعلم غير متصور ، لأنهما يعملان لتحقيق غرض واحد ، وهو تفسير الكون تفسيرا صحيحا ، والعمل على تعميره ، بما يحقق سعادة من فيه ، فإذا انفصل أحدهما عن الآخر ، لم يتحقق ذلك الهدف .

إنهما جناحان لطائر واحد ، يريد أن يصل إلى أسعد حال ، وأعظم مآل ، وإن شئت قلت : هما كالإطارين لدراجة واحدة ، لا يمكن السير بها ، إلا بهما معا ، وفى حالة جيدة .

فالانقطاع للعبادة لا يعمر الكون ، والعلم بدون الدين وأخلاقه ، يدمر هذا الكون.

يقول « ماكس بلانك »[٥٠] عالم الذرة : «إن الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معا ، فى معركة ضد الشك والجحود والخرافة »

ويقول « هكسلى »[٥١]

« الدين والعلم توأمان متلاصقان ، فصلهما يؤدى إلى موتهما ، فإن العلم ينمو متى كان دينيا ، والدين يثبت متى كان علميا » ا. هـ

إن عملية التزاوج بين الدين والعلم تظهر ضرورتها بالنظر إلى تركيب الإنسان ذاته ، فالإنسان ليس روحا فقط ، وليس مادة فقط ، بل هو مزيج من العنصرين معا ، ولكل عنصر غذاؤه ، وغذاء أحدهما لا يحل محله الغذاء الآخر .

وعلى ذلك فلا بد للإنسان - بل وللكون أيضا - من الدين والعلم معا . فما جدوى التدين إذا ترك الإنسان عمارة الكون ، وأهمل تعلم ما به يقى نفسه من أمراض الجسد ، وما به يستخرج كنوز الدنيا ، وينتفع بها على أحسن وجه ؟

وما جدوى العلم إذا لم يقترن بمبادىء تهذبه ، وأخلاق تقومه ، ليرفع الإنسانية إلى أعلى عليين ، من مهبطها فى أسفل سافلين ؟

إن أمامنا نماذج كثيرة ، ممن ظنوا أن الدين يعنى الانقطاع للعبادة ، ونماذج أخرى لمن ظنوا أن العلم يغنى عن الدين .

الأولون عاشوا الفقر والمرض والجهل والذل ، والآخرون عاشوا عيشة الخواء الروحى ، والأمراض النفسية ، والتوترات العصبية ، والاضطرابات السلوكية ، فلم يغن عنهم علمهم هذا ، بل كان هو السبب فى معظم أمراضهم ، وسوء أحوالهم .

لقد هوى بهم هذا العلم الخالى ، من أخلاق الإسلام ، وتعاليم رب الكون لما فيه ومن فيه ، إلى مستنقعات الرذيلة ، وشريعة الغاب ، فسفكوا دماء

---

(٥٠) كما جاء فى كتاب « آيات الله تعالى» لمحمد وفا الأميرى ص : ١٤ ط دار الرضوان بحلب.
(٥١) كما جاء فى كتاب « الدين والعلم الحديث » لإبراهيم عبد الباقى ص : ١٢ ط المكتبة التجارية.

الأبرياء ، وهتكوا أعراض النساء ، وجعلوا الحياة فوضى ، بلا مبدأ ، ولا هدف ، حتى طمس الإنسان فطرته التى خلق عليها .

فرأينا المرأة استرجلت ، وشاهدنا من الرجال نوعا ثالثا ، فلاهم رجال لهم صفات الرجولة الشريفة ، ولا هم نساء لهم صفات الأنوثة وأعضاؤها ، وإنما هم بين بين ، لهم من الرجال أعضاؤهم ، ومن النساء صفاتهن وسلوكهن الشائن .

ولا ندرى ماذا يكنه لنا الغيب القريب والبعيد ، كل ذلك بسبب ضياع الدين ، وصدق من قال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولادنيا لمن لم يحى دينا

ومن جعل الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

يقول « جوستاف لوبون »(٥٢)

« إن السبب فى انحطاط الشرق ، هو تركه روح الدين ، وتشبثه بالعقائد الباطلة ، وإن قوة الدين قوة أدبية ، كما أن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بما ضيه ، وأن العلوم الحديثة لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بدينهم ، ولم تنفصل عنه » ا .هـ

متى ظهر الادعاء
بأن هناك عداوة بين الدين والعلم ؟ ولماذا ؟

القول بالعداوة بين الدين والعلم برز بصورة واضحة ، فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، حينما اكتشف العلماء كثيرا من أسرار هذا الكون ، بعد أن تحرروا من تسلط الكنيسة الأوربية على العلم والعلماء.

فظنوا أن الدين وهم ، وأنهم ليسوا بحاجة إليه ، واعتقدوا أن هذا النظام البديع للكون ، ناتج عن تلك الأسباب .

وقالوا : ما دمنا قد عرفنا تلك القوى الخافية ، التى تفعل فعلها فى الكون ،

---

(٥٢) كما نقل عنه د/ عبد الغنى الراجحى ، فى كتابه « العلم والإيمان » ص : ٢٢ .

وما دمنا قد وقفنا على نظام الجاذبية الكونى ، الذى يحرك كل الأجرام السماوية كبيرها وصغيرها ، وما دمنا قد أدركنا قانون العلة والمعلول ، فمن العبث بعد ذلك كله أن نقول : إن للكون إلها ، يتحكم فيه ، ويمسك السموات والأرض أن تزولا ...

وقد ظهر من بين هؤلاء العلماء الماديين من بلغ قمة الوقاحة ، ونهاية الكفر حينما نطق بعبارات ، هى قمة السفالة والنذالة والجهل فقد قال الفيلسوف الألمانى « كانت »:(٥٣)

« إيتونى بالمادة ، وسوف أعلمكم كيف يخلق الكون منها »

وقال « هيجل » : (٥٤) « إننى أستطيع خلق الإنسان ، لو توفر لى الماء ، والمواد الكيماوية ، والوقت » ا .هـ ولا أدرى لماذا لم يخلقا ذبابة واحدة ، تحدى الله الخلق جميعا بخلقها ؟ قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدرو الله حق قدره إن الله لقوى عزيز** ﴾(٥٥)

ولقد بلغ الكفر بـ « نيتشه » قمته ، حينما قال :(٥٦)

لقد مات الإله

إن هؤلاء الذين يزعمون أنهم باكتشافاتهم هذه ، قد وقفوا على أن الكون لاإله له إنما هم فى غاية الجهل ، لأنهم لم يكتشفوا إلا أسلوب العمل فى الطبيعة ، وهذا فى حد ذاته لا ينافى وجود الإله ، بل هو أدعى إلى القول بوجوده ، وآكد للتساؤل عمن أوجد هذا الأسلوب ، وأبدع تلك الأسرار ، وسبب تلك الأسباب .

أرأيت لو أن إنسانا شاهد طائرة تقلع من مكان ، وتهبط فى مكان ، ما أول

---

(٥٣) كما جاء فى كتاب « الدين فى مواجهة العلم » نوحيد الدين خان: ٦٤ ط دار النفائس.

(٥٤) الموضع السابق .

(٥٥) الحج : ٧٣ ، ٧٤ .

(٥٦) الدين فى مواجهة العلم : ٦٤ .

شيء يتبادر إلى ذهنه ؟ إنه هو هذا السؤال : كيف أقعلت هذه الطائرة ؟ وكيف طارت ؟ وكيف هبطت ؟

وبعد وقوفه على أسباب ذلك ، أيستطيع أن يزعم بعدم وجود قائد خلف هذا الإقلاع والطيران والهبوط ؟

إننا يجب أن نعترف بمن صنع تلك الطائرة ، وأجهزتها ، ووضع قواعد إقلاعها وطيرانها وهبوطها ، فلا يمكن للطائرة أن تعمل كل هذا العمل إلا من خلال أياد كثيرة ، وقفت وراءه ، هذا مثال بسيط نرد به على هؤلاء الأفاكين. وهذا مثال آخر نقذف به فى وجوه من نظروا إلى الأسباب دون النظر إلى من سببها.(٥٧)

إن الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيض القوية ، ويخرج منها بعد ما تنكسر مضغة لحم .

لقد كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه ، ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير ، على منقار الكتكوت ، يستعمله فى تكسير قشرة البيضة ، لينطلق خارجا منها ، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام ، من خروجه من البيضة . هذه المشاهدة كما يزعم المعارضون أبطلت الفكرة القديمة القائلة بأن الله يخرج الكتكوت من البيضة ، إذ قد رأينا يقينا أن قانون « الواحد والعشرين يوما » يحدث هذه العملية .

والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقى ، فقد تغير الوضع الآن ، فأصبح السؤال لا عن تكسر البيضة ، بل عن كيف يظهر القرن ؟

إن السبب الحقيقى يتجلى لأعيننا ، حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن ، العلة التى كانت على معرفة كاملة ، بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ، ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير ، وهو مشاهدتنا بالمنظار ، إلا أنه مشاهدة للواقع على نطاق أوسع ، ولكنه ليس تفسيرا له .

---

(٥٧) اقتبسنا هذا المثال من « الدين فى مواجهة العلم » :ص : ٦٦، ٦٧ .

يقول وحيد الدين خان :

« إن الاكتشاف الذى اعتبره معارضو الدين بديلاً للإله ، يمكننا أن نفسره بسهولة ، بأنه « أسلوب عمل الطبيعة » إننا نستطيع أن نقول بكل قوة : إن الله يجرى إرادته فى الكون بواسطة هذه القوانين التى اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط حتى الآن »(٥٨)

القرن العشرون يهدم

فرية العداء بين الدين والعلم.

وإذا كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، قد شهدا ردة فكرية ، نتيجة اكتشافات العلوم الحديثة ، أدت إلى القول بالعداء بين الدين والعلم ، بدلا من التلازم بينهما ، فإن اكتشافات القرن العشرين قد أعادت الأمور إلى نصابها .

فبعد أن كان علماء القرنين الماضيين يفسرون الكون على أنه مادة وحركة ، ولا شىء وراء ذلك ، جاء علماء القرن العشرين ، ليؤكدوا أن هناك قوة فكرية ضخمة ، لا يحدها عقل ، ولا يدركها خلق ، تسير هذا الكون ، وتتحكم فيه ، على سنن مضبوطة ، وقواعد ثابتة .

يقول الإنجليزى « جيمس جينز » الرياضى الفلكى :(٥٩)

« إن الكون كون فكرى » ، ويقول أيضا : « إن الكون لا يقبل التفسير المادى فى ضوء علم الطبيعة الجديد ، وسببه أن التفسير المادى قد أصبح الآن فكرة ذهنية ».

ويقول أيضا : « إذا كان الكون كونا فكريا ، فلا بد أن خلقه كان عملا فكريا أيضا .»

ويقول « سوليفان » : « إن الطبيعة النهائية للكون طبيعة عقلية »(٦٠) ولـ « نيوتن » فى هذا المقام عدة أقوال ، يبين فيها استحالة وجود هذا الكون بهذا

---

(٥٨) الموضع السابق .

(٥٩) كما فى « الدين فى مواجهة العلم » : ٧٦ .

(٦٠) المصدر السابق : ٧٧ .

النظام البديع بدون إله . فيقول: (٦١)

١ - « لا تشكوا فى الخالق ، لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود ، لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وزمان ، لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ، ولا هذا الوجود كله ، بما فيه من ترتيب أجزائه ، وتناسبها ، مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، إن هذا كله لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أزلى ، له حكمة وإرادة . »

٢ - ويقول أيضا : « كيف تكونت أجسام هذه الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ؟ ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ وهل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الإبصار ، ونواميسه ؟ والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتحدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء الإلهام الفطرى فى نفوس الحيوانات ؟ هذه الكائنات كلها - فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها - ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمية ، حى حكيم ، موجود فى كل مكان ، يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ، ويدركه أكمل الإدرك » .؟

٣ - ويرد نيوتن على من يقولون بعدم وجود إله للكون ، لأن الذى يسيره هو قانون الجاذبية ، فيقول : « إن الحركات الحالية للكواكب ، لا يمكن أن تنشأ من فعل الجاذبية العامة ، لأنه يجب لكى تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها إلى الخط المماس لمداراتها ، يجب وجود سبب يعلم كميات المادة الموجودة ، فى الأجرام السماوية ، المختلفة ، ويدرك ما يجب أن يصدر عنها ، من القوة الخارقة ، ويقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس ، وبين توابعها ، وبقدر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها ، حول أجسام تصلح أن تكون مركزا لها .» ا .هـ

وها هو « آينشتين » يرى أن العقل قاصر عن الإحاطة بالكون ونظامه ،

---

(٦١) عن العلم والإيمان للدكتور عبد الغنى الراجحى : ص: ٣١ . ٣٢ .

فكيف يحيط بمن خلقه ، فيقول:

« نري كونا بديع التركيب ، خاضعا لنواميس معينة ، ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الإبهام ، فنؤمن بالله ، ولكن عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية ، التى تهيمن على مجاميع النجوم .

إن العقل البشرى مهما بلغ من عظيم التدريب ، وسمو التفكير ، عاجز عن الإحاطة بالكون ، فكيف بخالقه ؟ »(٦٢)

سابعا : التفسير العلمى
بين الرافضين والمتساهلين

وبعد أن ذكرنا تلك المقدمات السابقة - التى رأيت أنّ ذِكْرها فى هذا المقام فى غاية الضرورة - نأتى إلى جوهر هذه القضية ، قضية تفسير القرآن بالعلوم الحديثة ، وهى قضية خطيرة ، كثر فيها كلام العلماء وطال ، ووجدنا بينهم صنفين ، وقفوا على طرفى نقيض ، صنف بالغ فى رفضها ، وصنف بالغ فى التوسع فيها ، ولكلٍّ حجته .

فالذين بالغوا فى رفضها قالوا :

١ - إن هذا تحميل لكتاب الله تعالى ماليس من وظيفته ، خصوصا بعد أن أعلن الكتاب نفسه هذه الوظيفة ، وحددها فى مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾(٦٣) ، وكقوله ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾(٦٤) .... فوظيفة القرآن إذًا : إنقاذ الإنسانية من الضلال ، لا بيان ما يتعلق بهذه العلوم الكونية .

٢ - وقالوا : إن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة الجزر والمد ، وهناك أبحاث كثيرة لا تزال قلقة حائرة بين إثبات ونفى ، فما قاله علماء الهيئة

---

(٦٢) الموضع السابق .

(٦٣) البقرة : ١ .

(٦٤) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم ، وما قرره علماء الطبيعة فى الماضى يقرر غيره علماء الطبيعة فى الحاضر ، وما أثبته المؤرخون قديما ينفيه المؤرخون حديثا ، وما أنكره وأسرفوا فى إنكاره باسم العلم أصبحوا يثبتونه ، ويسرفون فى إثباته باسم العلم أيضا.

وقالوا : فهل يليق – بعد ذلك كله – أن نبقى مخدوعين مغرورين بعلمهم الذى اصطلحوا عليه ، وتحاكموا إليه ، وقد سجنوا أنفسهم معه فى سجن ضيق ، هو دائرة المادة ، تلك الدائرة المسجونة هى أيضا فى حدود ما تفهم عقولهم ، وتصل تجاربهم ، وقد تكون عقولهم خاطئة ، وتجاربهم فاشلة ؟

وقالوا أيضا : هل يليق بعد ذلك كله أن نحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية ، القلقة الحائرة ، بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلهية العلوية ، القارة الثابتة ، المتنزلة من أفق الحق الأعلى ، الذى يعلم السر وأخفى ؟(٦٥)

ويعتبر الزرقانى – وهو من رءوس المتشددين فى قبول التفسير العلمى ، رغم اضطراره إلى الأخذ به – يعتبر عد العلوم الكونية من موضوعات علوم القرآن ومعارفه خطأ جسيما وإسرافا خطيرا ، فيقول : « ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا فى علوم القرآن ومعارفه ، فنظموا فى سلكها ما بدا لهم من علوم الكون ، وهم فى ذلك مخطئون ومسرفون »(٦٦)

وأعتقد أن ما ذكرناه سابقا من حث القرآن على التأمل فى الكون ، وارتكاز العقيدة والشريعة على العلوم الكونية وارتباطهما بها ، ووجود حوالى ثمانمائة آية كونية فى القرآن كل ذلك كفيل بأن يجعل هذه العلوم الكونية ضمن علوم القرآن ومعارفه ، ولو بوجه من الوجوه .

هذا ملخص مذهب الرافضين لقبول التفسير العلمى للقرآن ، فإذا ما جئنا إلى الصنف الثانى ، والذى يقف على طرف النقيض الآخر ، وجدناهم يتساهلون فى تفسير القرآن ، بتلك العلوم الحديثة ، لدرجة هى غاية فى العجب ، حتى ليكاد أمرهم يصل إلى تلمس أى كلام فى مجال العلوم الحديثة ، ليفسروا به

---

(٦٥) انظر فى ذلك : مناهل العرفان للزرقانى: ٢/٢٥٠ - ٢٥٣ .

(٦٦) مناهل العرفان للزرقانى ٢ / ٢٥٠ .

أى آية قرآنية ، ظانين أنهم بهذا المسلك يخدمون القرآن ، لسبقه العلماء فيما قالوا بأكثر من أربعة عشر قرنا . والأمثلة فى هذا الشأن ، فوق الحصر ، ولعل تفسير « الجواهر » لطنطاوى جوهرى أبرز نموذج لهؤلاء المتساهلين .

وإذا كان هؤلاء قد تساهلوا فى قبول أى كلام ليفسروا به نصا قرآنيا ، بحجة إضافة براهين جديدة ، للتدليل على صدق القرآن وربانية منبعه ، حتى ينكشف للناس أمجاد جديدة للقرآن ، ومعجزات حديثة له ، فيؤمنوا به ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه . ، إذا كان هؤلاء قد تساهلوا كل هذا التساهل فإن ذلك مرفوض منهم ، فالأدلة على ربانية القرآن أقوى من تلمس أى كلام ساقط ، لا وزن له ، لنقيم به دليلا على صحة القرآن ...

فإعجاز القرآن واضح ، وحجة هذا الإعجاز قوية ، وهى غنية عن هذه التفاهات التى لا تصل إلى مجرد نظريات علمية ، فضلا عن استحالة أن تكون حقائق علمية ، ثابتة ، لا تقبل النقد .

ثامنا : موقفنا من التفسير العلمى

أمام هذين الرأيين اللذين وقفا على طرفى نقيض ، فى قضية التفسير العلمى نحب أن نقول رأينا فيها بكل وضوح ، وفى سبيل هذا الإيضاح نود أن نشير إلى عدة أمور:

الأمر الأول : هو أن التفسير العلمى ليس بدعة عصرية ، فقد سلك الأقدمون من المفسرين ، فى تفاسيرهم هذا النهج ، حيث فسروا القرآن بعلوم عصرهم ، كما يفعل البعض الآن .

ومن ينظر فى التفاسير ابتداء من تفسير ابن جرير الطبرى ، ومرورا بتفاسير الزمخشرى والفخر الرازى ، ثم البيضاوى ، ثم محمد عبده يجد فيها نماذج لهذا اللون من التفسير ، ومن بعد محمد عبده اتسع المجال بصورة ظاهرة للغاية.

ولنضرب لذلك ثلاثة أمثلة ، من تفاسير ابن جرير الطبرى ، والزمخشرى ، والفخر الرازى .

يقول ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس** ﴾(٦٧) « اختلف أهل التأويل فى « الخنس ، الجوار الكنس » ، فقال بعضهم : هى النجوم الدرارى الخمسة ، تخنس فى مجراها ، فترجع وتكنس ، فتستتر فى بيوتها ، كما تكنس الظباء فى المغار ، والنجوم الخمسة : بهرام وزحل وعطارد ، والزهر ، والمشترى .

وقال آخرون : هى بقر الوحش ، التى تكنس فى كناسها ، وقال آخرون : هى الظباء ثم عقب ابن جرير على هذه الأقوال بقوله : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب إن يقال : أن الله تعالى ذكره أقسم بأشياء تخنس أحيانا ، أى تغيب ، وتجرى أحيانا ، وتكنس أخرى ، وكنوسها أى تأوى فى مكانها ، والمكانس عند العرب ، هى المواضع التىتأوى إليها بقر الوحش والظباء ، واحدها مكنس وكناس ، وغير متكر أن يستعار ذلك فى المواضع التى تكون بها النجوم من السماء .

فإذا كان ذلك كذلك ولم يكن فى الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر ، ولا البقر دون الظباء ، فالصواب أن يعم بذلك كل ما كانت صفته الخنوس أحيانا ، والجرى أخرى »(٦٨)

ويقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها** ﴾(٦٩) : « أى لحد لها مؤقت مقدر ، تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره .

أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب ، لأنها تتعصاها مشرقا مشرقا ، ومغربا مغربا ، حتى تبلغ أقصاها ، ثم ترجع .

فذلك حدها ومستقرها ، لأنها لا تعدوه .

أو لحد لها من مسيرها كل يوم ، فى مرأى عيوننا ، وهو المغرب . وقيل مستقرها : أى أجلها الذى أقر الله عليه أمرها فى جريها ، فاستقرت عليه ، وهو

---

(٦٧) التكوير : ١٥ ، ١٦ .

(٦٨) تفسير الطبرى : ٣٠ / ٤٩ ط دار المعرفة .

(٦٩) يس : ٣٨ .

آخر السنة ، وقيل : الوقت الذى يستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة .»[٧٠]

ويقول الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى :﴿ والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾[٧١] « فيه مسألتان : المسألة الأولى : « الغثاء : ما يبس من النبت ، فحملته الأودية ، والمياه ، وألوت به الرياح »

المسألة الثانية : « الحوة : السواد ، وقال بعضهم : الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد ، إذا أصابته رطوبة .

وفى ﴿ أحوى ﴾ قولان : أحدهما : أنه نعت لغثاء ، أى صار بعد الخضرة يابسا ، فتغير إلى السواد ، وسبب ذلك السواد أمور :

أحدهما : أن العشب إنما يجف عند استيلاء البرد علي الهواء ، ومن شدة البرودة أنها تبيض الرطب ، وتسود اليابس .

وثانيها : أن يحملها السيل ، فيلصق بها أجزاء كدرة ، فتسود .

وثالثها : أن يحملها الريح ، فتلصق بها الغبار الكثير ، فتسود .

القول الثانى : - وهو اختيار الفراء وأبى عبيدة - وهو أن يكون الأحوى هو الأسود ، لشدة خضرته ، كما قيل فى (مد هامتان) [٧٢] ، أى سوداوان لشدة خضرتهما ، والتقدير : الذى أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاء ، كقوله ﴿ ولم يجعل له عوجا ، قيما ﴾[٧٣] أى أنزله قيما ولم يجعل له عوجا »[٧٤]

الأمر الثانى أسلوب القرآن فى الحديث عن العلوم الكونية

أما الأمر الثانى ، والذى نريد أن نلفت النظر إليه ، فى سبيل توضيح موقفنا من التفسير العلمى فهو أسلوب القرآن فى حديثة عن العلوم الكونية . فقد جاء هذا الأسلوب بطريقة عجيبة ، بحيث توائم فكر الناس ، أيًا كانت ثقافتهم ،

---

(٧٠) تفسير الزمخشرى : ٣ / ٣٢٢ ط الحلبى .

(٧١) الأعلى : ٤ ، ٥ .

(٧٢) الرحمن : ٦٤ .

(٧٣) الكهف : ١ ، ٢ .

(٧٤) التفسير الكبير للفخر الرازى : ٣٢ / ١٤٠ ط الدار العلمية بطهران .

وتناسب علومهم ومعارفهم ، مهما تطورت وتقدمت ، فإذا قرأه العامة وجدوا فيه هدايتهم ، وإذا اطلع عليه الخاصة ، فى ضوء الاكتشافات الحديثة ، لم يجدوه متعارضا معها ، فيكون ذلك أدعى إلى تصديقه ، واليقين بربانية منبعه .

يقول الدكتور الغمراوى ، وهو أحد أنصار التفسير العلمى : « ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله ، سبحانه ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل بأسلوب لا يصدم البدهى المسلم به عند الناس ، فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية ، فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه ، إذا يسر الله سبيل الكشف ، لأولى العلم ، فى مستقبل العصور .

وهذا من أعجب عجائب القرآن ، التى لا تنقضى ، ومن أدل الدلائل على أن القرآن - حقا - من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية ، بأسلوب يطابقها تماما ، أو يدل عليها أولى العلم ، ثم لا يصدم الناس فيما يعتقدون ، ولو كان ما يعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة .

هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية ، أو فى دلالة أولى العلم عليها ، أمر يعجز عنه البشر ، ولا يقدر عليه إلا الله ، الذى أنزل القرآن بالحق ، هدى للناس . »(٧٥)

هذه الخاصة لأسلوب القرآن فى الحديث عن العلوم الكونية ، لم يستطع الرافضون للتفسير العلمى أو المتشددون فيه إنكارها ، بل وجدناهم يعترفون بها ، ويضربون الأمثلة لتوضيحها ، وبذلك يأخذون بالتفسير العلمى للقرآن ، من حيث يغالون فى رفضه أو يتشددون فى قبوله تشددا يقارب رفضه .

ومن هؤلاء الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى رحمه الله ، حيث تجاوز حد الاعتراف بهذه الخاصة - رغم إنكاره أن تكون العلوم الكونية ضمن علوم ومعارف القرآن - تجاوز ذلك إلى ضرب الأمثلة ، لتوضيح هذه الخاصة .

يقول رحمه الله : « إن الأسلوب الذى اختاره القرآن فى التعبير عن آيات الله الكونية أسلوب بارع ، جمع بين البيان والإجمال ، فى سمط واحد ،

---

(٧٥) الإسلام فى عصر العلم ، للدكتور محمد أحمد الغمراوى : ٢٣٩ ط السعادة .

بحيث يمر النظم القرآنى الكريم على سامعيه ، فى كل جيل وقبيل ، فإذا هو واضح ، فيما سيق له من دلالة الإنسان وهدايته ، إلى الله ، ثم إذا هو مجمل التفاصيل ، يختلف الخلق فى معرفة تفاريعه ودقائقه ، باختلاف مالديهم ، من مواهب ووسائل ، وعلوم وفنون .» ثم قال : « ولنضرب لذلك مثلا :

تلك الآية الحكيمة ، وهى قوله عز اسمه : ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾[٧٦] ، فإنها مرت على بنى الإنسان ، منذ نزلت إلى الآن ، ففهموا منها جميعا أن الله يدل على قدرته وإبداعه وكماله ، بأنه خلق من الأشياء متنوعات ، مختلفة الأشكال والخصائص ، لكنهم اختلفوا بعد ذلك .

فالأوائل يؤثر عنهم أن الزوجين فى الآية الكريمة ، هما الأمران المتقابلان ، معا ، لا بخصوص الذكورة والأنوثة .

روى عن الحسن أنة فسر الزوجين بالليل والنهار ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، والحياة والموت ، وهكذا ، عدد أشياء ، وقال : كل اثنين منها زوج ، والله تعالى فرد لا مثيل له .

أما المتأخرون : ففهموا أن الزوجين فى الآية هما الأمران المتقابلان ، بالذكورة والأنوثة ، ويقولون : إنه ما من شيء فى الوجود إلا منه الذكر والأنثى ، سواء فى ذلك الإنسان والحيوان ، والجماد ، وغيرها مما لا نعلم .

ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[٧٧] ويقولون : إن أحدث نظرية فى أصول الأكوان تقرر أن أصول جميع الكائنات تتكون من زوجين اثنين ، وبلسان العلم الحديث : « الكترون وبروتون »[٧٨]

الرد على الرافضين للتفسير العلمى

إذا علم أن التفسير العلمى للقرآن ليس بدعة عصرية ، وأنه موجود منذ أن فسر العلماء هذا القرآن .

---

(٧٦) الذاريات : ٤٩ .

(٧٧) يس : ٣٦ .

(٧٨) مناهل العرفان : ٢٥١ ، ٢٥٢ .

وإذا علم أسلوب القرآن فى حديثه عن الكونيات .

وإذا ما تقرر ماسقناه آنفا من :

- تكريم الله للعلم وطلابه .
- وأن المقصود بالعلم ما يشمل الدينى والدنيوى معا .
- وأن القرآن أفاض فى حديثه عن هذه العلوم ، وحث على التأمل والتدبر فيها .
- وأن العقيدة الإسلامية ، وشعائر الإسلام مرتكزان على العلوم الكونية ومرتبطان بها .
- وانه لاعداء بين الدين والعلم .

إذا علم كل ذلك ، وتقرر فى الأذهان ، استطعنا أن نرد على رافضى التفسير العلمى مذهبهم ، وإلا كنا كمن يدفن رأسه فى الرمال ، متعاميا عن ظهور الشمس فى ساطعة النهار .

أما قول هؤلاء الرافضين : إن وظيفة القرآن ، هى هداية الناس ، واستدلالهم على ذلك بقوله تعالى « هدى للمتقين » ، ونحو ذلك ، وأن ذلك يعد تحميلا للقرآن بما لا يتحمله ، وإقحامه مجالات خارجة عن مجالاته ، فهو قول عجيب .

وهل العلوم الكونية تعتبر إضلالا للناس ، وهل يعدو الأخذ بالثابت منها إلا وسائل لفهم هذا القرآن ، واليقين بأنه الحق من الله تعالى ، كما قال عز وجل : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾(٧٩) .

إن لله كتابين ، بهما يهدى خلقه إليه ، الكتاب الأول هو الكتاب المسطور ، وهو القرآن ، والكتاب الثانى هو الكتاب المنظور ، وهو الكون العظيم ، فلا تعارض بين الكتابين ، بل كل منهما يفسر الآخر .

أما قولهم إن العلوم الكونية خاضعة للمد والجزر ، ولا تثبت على حال ، فما ثبت بالأمس ينقض اليوم ، وما كان باطلا بالأمس يصير حقا اليوم ، ويترتب

---

(٧٩) فصلت : ٥٣ .

على ذلك – إن فسرنا القرآن بهذه العلوم المتقلبة – تعريض القرآن لتلك التقلبات والاضطرابات : فنرد عليهم في هذا القول ، وعلى المتساهلين فى قبول هذا التفسير ، الذين يفتحون الباب على مصراعيه لكل ما يقال ، مفسرين به القرآن ، نرد بكلام أنصار التفسير العلمى المعتدلين .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى ، أشهر البارزين فى هذا المجال :

« إن بعض المعترضين على أهل التفسير العلمى لكونيات القرآن يتهمونهم بأنهم يبنون تفسيراتهم على نظريات علمية لم تثبت ، وهذا إذا صدق على بعضهم فليس يصدق على جميعهم ، وأغلبهم لا يفسرون النص القرآنى –وهو الحق – إلا بالحقيقة الثابتة فى العلم ، مدركين أن الدقة والاحتياط لازمان فى كل بحث ، وأنهما فى البحوث القرآنية ألزم منهما ، حتى فى العلوم التجريبية .

لأن أهل هذه العلوم بعضهم رقيب على بعض ، وهى رقابة تكاد تكون معدومة بين الباحثين فى القرآن والحديث (٨٠) ثم إن أهل العلوم التجريبية عندهم الحكم بينهم ، الذى لا يخطىء عند الاختلاف ، ألا وهو التجربة العلمية ، والتحاكم إليها فى الواقع تحاكم إلى الله سبحانه ، لأنه تحاكم إلى سنن لا تتبدل ولا تتخلف ، وحكمها ظاهر العيان ، لا يتمارى فيه المختلفون »(٨١)

ويقول الأستاذ محمد كامل عبد الصمد :

ليس صحيحا أن النظريات العلمية متغيرة دائما إلى الأبد ، فلن تصبح نظرية كروية الأرض نظرية متغيرة ، مؤداها أنها مربعة أو مثلثة أو مسطحة ، فكل الحقائق الفلكية التى تأكدت بالرصد والتصوير ، ومثلها الحقائق الخاصة بالتشريح ، والفسيولوجيا ، كل هذه ثوابت ، واكتشاف المفسر أنها تتوافق مع القرآن الكريم هو تأييد للقرآن ، وهو تثبيت للإيمان »(٨٢) ويقول أيضا : « التفسير العلمى لا يؤثر فى ثبات النص القرآنى وإعجازه ، لأن النص الكريم ثابت لا يعتريه تغيير ولا تبديل ، لأنه محفوظ من الله تعالى ، مصداقا لقوله تعالى :

---

(٨٠) هذا الحكم منه على الباحثين فى القرآن والحديث فى غاية الخطأ ، فقد قيض الله للقرآن وللحديث على مدى الحياة ، من بين للناس الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب .

(٨١) الإسلام فى عصر العلم : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٨٢) الإعجاز العلمى فى الإسلام : ٢٥ .

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(٨٣)

فإن بدا عند التحقيق أن مفسرا قد خرج بالتفسير عن إطار مدلول الحقيقة القرآنية ، فإن النقد سيوجه حينئذ إلى هذه التفسيرات عينها ، والذى سيرفضه الآخرون هو هذه الآراء البشرية ذاتها ، ويبقى للنص القرآنى قد سيته ومهابته ، وروعته وإعجازه ، دون أن يتأثر شيء من ذلك بتأويلات المفسرين العصريين »(٨٤)

ونقول للرافضين أيضا : إن هناك مبادىء معينة للبحث العلمى ، بينها لنا القرآن ، كما أن هناك قواعد خاصة لقبول هذا النوع من التفسير ، فليس الأمر عبثا ، وليس الباب مفتوحا لمن هب ودب ، وقال كلاما يريد به تفسير أعظم كتاب عرفه أهل السموات والأرض .

ونستطيع أن نذكر كلمة موجزة عن هذه المبادىء ، وتلك القواعد كما يلى :

القرآن يضع مبادىء البحث العلمى

بآية واحدة منذ أربعة عشر قرنا ، يحدد لنا القرآن أهم أسس البحث العلمى النزيه الذى يصل بالباحث إلى أعظم النتائج ، وأسلم الأحوال .

حيث يقول الله فيها : ﴿ **ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(٨٥) فهذه الآية تضع للبحث والباحث ثلاثة أسس :

الأساس الأول : صدق الخبر ، الذى يستند إليه الباحث ، فلا يعتمد على كاذب أو مضلل . وإلى هذا الأساس يشير قوله (إن السمع) ، فعلى الباحث إذا استمع يجب أن يكون مصدر سمعه أهل الثقة والصدق ، وإلا فهو مسئول عما سمع واعتمد عليه

الأساس الثانى : التجارب المعملية ، والمشاهدات المرئية ، ليتأكد الباحث من سلامة نتائج بحثه . وإلى هذا الأساس يشير قوله (والبصر)

---

(٨٣) الحجر : ٩ .
(٨٤) الإعجاز العلمى فى الإسلام : ٢٦ .
(٨٥) الأسراء : ٣٦ .

الأساس الثالث : ما يتوصل إليه العقل البشرى ، من خلال التفكير والتدبر ، فيما ليس فيه خبر عن ثقة ، أو تجربة متاحة . وإلى هذا الأساس يشير قوله (والفؤاد) . وإلى جانب هذه الأسس وضع الإسلام مبادىء عامة ، لا بد من توافرها ، لتؤدى الأبحاث دورها المنشود منها ، وتؤتى الثمار المرجوة لها . وأقتصر فى الحديث عن هذه المبادىء ، على مبدأين فقط:

١ - حرية التفكير ٢ - عدم التقليد الأعمى.

أما المبدأ الأول وهو حرية التفكير ، فقد وسع الإسلام دائرتها ، بحيث لا تقتصر على البحث العلمى فقط ، بل جعلها شاملة لكل شىء ، حتى فى اعتناق الإسلام ذاته ، قال تعالى ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾[٨٦]

وحينما شرع الإسلام للإنسان حرية التفكير ، فإنه راعى فى ذلك ناحيتين :

الناحية الأولى : تكوين عقول الناس، فهذا التكوين مكرم من الله عز وجل .

الناحية الثانية : عدم إيجاد مؤثرات وضغوط خارجية ، تؤثر على عقل الإنسان ، أيًا كانت تلك المؤثرات ، وأيًا كانت تلك الضغوط ، فبعض الناس قد تقف أمامهم عقائد معينة ، أو أنظمة خاصة ، تؤثر على تفكيرهم ، وطريقة اختيارهم ، فأراد الله عز وجل أن لا يجعل لذلك كله ميزانا فى اختيار ما يراه الإنسان صوابا ، بعد مراعاة أسس البحث العلمى الأخرى .

أما المبدأ الثانى : وهو عدم التقليد الأعمى ، فإن هذا التقليد ، مما ينافى الوصول إلى الحقيقة ، إن الباحث إذا أراد أن يصل إلى حقيقه ما ، فعليه أن يطرح وراءه ظهريا ضرورة السير على منهج الأجداد والآباء والأخلاء ، وإلا فما فائدة عقله ؟

ولقد نعى الله على الكفار هذا التقليد ، حيث قال : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء**

---

(٨٦) البقرة : ٢٥٦ .

ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[87] واعتبر القرآن التقليد الأعمى للغير إنما يقود للخطأ ، وربما يهوى بالإنسان إلى أسوأ مآل ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾[88]

إن حرية التفكير ، وتقدير الإنسان لعقله وذاته ، هى التى تميزه عن حمار ألقى قياده لآخر ، يركبه متى أراد ، ويسخره كيفما شاء .

قواعد تفسير القرآن بالعلوم الحديثة .

ما سبق من مبادىء يعتبر مبادىء عامة ، فى أى بحث علمى ، فإذا ما جئنا إلى تفسير القرآن ، بالعلوم الحديثة فإن لذلك قواعد خاصة ، نستطيع أن نذكر أهمها فيما يلى :

١ - هذه النزعة التفسيرية محفوفة بالمخاطر ، صعبة المراس ، فيجب أن تؤخذ بالكثير من الحيطة والحذر ، والتسلح بالعلوم الدينية والدنيوية معا . فلا يقتصر اهتمام أصحابها على ما برعوا فيه ، من علم دنيوى فقط ، لأنهم أمام أخطر عمل يمارسه إنسان ، ألا وهو الترجمة عن الله تعالى ، فما التفسير إلا ترجمة لمراد الله من كلامه .

٢ - القرآن كتاب هداية إلى أحسن حال ، وأعظم مآل ، وقد نزل ليضع الخطوط العريضة لهذا الحال ، وذاك المآل . وليس من وظيفة القرآن التعرض لتفاصيل العلوم الدنيوية ، فتلك متروكة للناس واجتهادهم ، كما قال الرسول ﷺ للناس « إن كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به ، وإن كان من أمور دينكم فإلىّ »[89] ولكننا نجد فيه لفتات علمية ، تزرع فى قلب المتشكك اليقين ، وتزيد المؤمن إيمانا على إيمانه . يقول الأستاذ شوقى أبو خليل : « القرآن منهج إلهى ، لسعادة الفرد وسلامة المجتمع ، فيه لفتات علمية ، تخاطب العقل ، لتثبت له

---

(٨٧) البقرة : ١٧٠ ، ١٧١ .

(٨٨) لقمان : ٢١ .

(٨٩) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الرهون ، باب (١٥) .

أنه وحى موحى ، لفتات كونية وأخرى طبيعية ، وغيرها ، أنزلت على قلب المصطفى ﷺ ، لتكون معجزات خالدة على مر الزمن ، تثبت الإيمان بالله ، وتزيد من يقين المؤمنين بكتاب الله ، وترفع دعائم بناء شامخ فى القلب والفكر ، على أن محمدا الأمى صدقا وحقا رسول من عند الله »(٩٠)

٣ - حينما يشير القرآن إلى تلك الكونيات ، فإنه يتحدث عنها بأسلوب لا يتعارض إطلاقا مع أى حقيقة علمية ثابتة . وهذا شىء بدهى ، لأن القرآن قول الله ، والكون فعل الله ، ويستحيل أن يتعارض قول الله مع فعل الله .

٤ - يجب علينا أن ننظر إلى ما فى القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من الاكتشافات الحديثة على وجه اليقين قبلناه ، وإلا فلا .

يقول الشيخ الشعراوى : « إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون ، أو مع خلق الكون ، ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى أحيانا عن حقيقة قرآنية أسىء تفسيرها ، لتبدو فى غير معناها الحقيقى ، أو حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها ضد القرآن .

إننا لانريد أن نثبت القرآن بالعلم ، بل إن العلم هو الذى يجب أن يثبت ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم ، ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا ، ومن أى علم فى هذا العالم ، لأن مكتشف هذا العلم أو مخترعه بشر ، وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى .»(٩١)

٥ - لا يجوز لنا أن نعدل عن حقيقة اللفظ القرآنى ، ونتجه إلى معنى مجازى ، إلا إذا كانت هناك قرائن قوية ، تحيل الأخذ بحقيقة اللفظ. وقد وقع كثير من العلماء فى أخطاء جسيمة ، حينما عدلوا عن حقيقة اللفظ إلى معنى مجازى ، دون أى مبرر لذلك .

وقد لوحظ على آيات القرآن أن التطابق بينها وبين العلوم الحديثة

---

(٩٠) الإسلام بين العلم والدين : ٦ ط دار الفكر

(٩١) معجزة القرآن للشيخ الشعراوي : ٨٦ ، ٨٧ ط دار العودة بيروت .

يكون أتم ، إذا ما روعيت هذه القاعدة بكل دقة .

٦ - الحقائق العلمية الثابتة التى لا تقبل النقد ، ولا التعديل ، هى المعتبرة فى مجال التفسير العلمى للقرآن .

أما النظريات التى تحت التجربة ، والخاضعة للفحص والتمحيص فلا مكان لها فى هذا المجال. فالآيات القرآنية حقائق ثابتة ، فلا تفسر إلا بحقائق ثابتة .

٧ - يجب مراعاة معانى المفردات ، على النحو الذى كانت مستعملة فيه ، أثناء نزول القرآن ، والحذر مما طرأ عليها من تطور بعد العهد النبوى.

٨ - عدم التحرر من أى قاعدة نحوية ، فالقرآن عربى ، نزل بلسان عربى ، جار على ما ألفوه من قواعد ودلالات .

٩ - يجب مراعاة الأساليب البلاغية ، بصورها المتعددة ، ودلالاتها المتنوعة .

١٠ - قلنا إن من خصائص الأسلوب القرآنى أن عبارته حمّالة ، أى تحتمل فى كثير من الأحيان أكثر من معنى صحيح ، ولا يوجد تناقض بين كل هذه المعانى .

وعلى ذلك : فمن المرفوض علميا قصر اللفظ على معنى واحد ، ورد بقية المعانى الصحيحة الأخرى ، دون مرجح .

يقول الدكتور محمد احمد الغمراوى : « فكل معنى يفيده اللفظ ، أو التعبير من غير خروج على قواعد اللغة هو معنى مقبول ، وإن لم يكن معلوما للبشرية من قبل .

وإفادة الآية القرآنية إياه إرهاص بأن الله سيكشف للبشر عنه ، ليكون معجزة علمية جديدة للقرآن ، تثبت من جديد أنه من عند الله »(٩٢).

١١ - يجب الجمع بين كل الآيات القرآنية ، التى تتحدث عن موضوع واحد ، من هذه الموضوعات الكونية ، فلا تترك آية فى نفس

---

(٩٢) الإسلام فى عصر العلم : ٢٥٩ .

الموضوع ، بل لا تترك آية تتصل بالموضوع ، ولو من بعيد . لأن كثيرا من الآيات لا يمكن فهمه إلا بفهم كل ما يتصل بها .

١٢ - يستحيل أن يتعارض شيء من قرآن الله تعالى ، مع شيء ثابت من ثوابت هذا الكون ، لأن القرآن كتاب الله المسطور ، والكون كتابه المنظور فهما صادران من مشكاة واحدة .

١٣ - يسستحيل أن تتعارض آية من القرآن الكريم مع آية أخرى منه ، ومن ظن ذلك فمرجع ظنه إلى جهله ، وسوء فهمه .

وبعد

فهذه أهم قواعد التفسير العلمى ، التى يجب أن تراعى من قبل الباحث فى هذا المجال ، فإن عمل بها ، فبها ونعمت ، وإلا فعليه أن ينسحب من هذا الميدان ، حيث لامكان فيه للجهل والجهلة ، والغباء والأغبياء ، والمرتزقة والأجراء .

وكلمة أخيرة أود أن أختم بها الحديث عن قواعد التفسير العلمى وهى : أنه لو حدث - جدلا - أن مفسرًا ما فسر آية بما ظن أنه حقيقة علمية ، بينما الأمر ليس كذلك ، حيث ظهر له ما ينقض تفسيره هذا ، فإن النقد حينئذ يجب أن يتوجه إلى التفسير لا إلى النص القرآنى .

لأن النص القرآنى ثابت لا يتغير ، والفاظه حَمَّالة لوجوه كثيرة ، فلا نفرض عليه رأى باحث لم يعرف عن ذاته إلا النادر ، فضلا عن جهله التام بأسرار هذا الكون العظيم ، ومعانى القرآن الكريم .

قلنا إن القرآن فى حوالى ثمانمائة آية من آياته ، تعرض لموضوعات شتى ، من موضوعات العلوم الكونية ، ابتداء من خلق السموات والأرض ، ومرورا بخلق الإنسان وما أنعم عليه من ماء وزرع وحيوان ونحو ذلك ، وقد جاء فى الحديث عن هذه العلوم الكونية إشارات واضحة ، بل حقائق ناصعة ، يستحيل أن تصدر عن محمد بن عبد الله ، ولا عن البشر جميعا ، الذين كانوا فى هذا العصر ، الذى كان يتسم بالركود العلمى .

يقول « موريس بوكاى » الطبيب والمستشرق الفرنسى: « ومن الثابت فعلا أن فترة تنزيل القرآن ، أى تلك المدة التى تمتد على عشرين عاما تقريبا ، قبل وبعد عام الهجرة ٦٢٢ م ، كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون »[١] .

إن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن هذا القرآن من عند الله . وطبيعى أننا فى هذا المقام لا نستطيع أن نأتى بكل ما اكتشفه العلماء من حقائق ثابتة ، لها ما يدل عليها فى القرآن ، وإنما سنكتفى بذكر أمثلة فقط.

وسأختار بعض النماذج الموجودة فى الآفاق ، وأخرى فى الأنفس على النحو التالى : فمن نماذج آيات الآفاق:

١ - أن السموات والأرض كانتا فى الأصل كتلة واحدة .

٢ - جريان الشمس لمستقر لها .

٣ - تناقص الأكسجين كلما ارتفعنا لأعلى .

٤ - التلقيح الكهربائى بواسطة الريح.

٥ - الذرة ليست أصغر شىء فى الكون.

٦ - تحريم لحم الخزير.

ومن نماذج الآيات فى الأنفس:

---

(١) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ١٤٥ .

١ - التناسل الإنسانى وتطور الجنين فى بطن أمه .

٢ - إحساس الجلد .

٣ - اختلاف البصمات من إنسان لآخر.

٤ - تحريم الجماع فى الحيض .

وإليك شيئا من التفاصيل.

أولا : نماذج الآفاق

النموذج الأول : السموات والأرض كانتا فى الأصل كتلة واحدة .

قال تعالى : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما** ﴾[٢] تشير هذه الآية الكريمة إلى أن السموات والأرض ، كانتا فى بداية أمرهما كتلة واحدة ، وأن الله عز وجل بقدرته الجبارة أحدث فى هذه الكتلة انفجارا نتج عنه انقسام هذه الكتلة إلى أجزاء متعددة ، هى التى كونت شكل السموات والأرض.

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنهما كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ، ففصل الله بينهما بالهواء »[٣] وعن هذا السبق القرآنى يقول الأستاذ محمد كامل عبد الصمد : « تشير أحدث نظرية علمية فى مجال الفيزياء الكونية إلى أن مادة هذا الكون كله ، والذى يقدر امتداد محيطه الآن بمقدار ١٢٥ ألف مليون سنة ضوئية ، هذه كانت منذ أكثر من عشرة آلاف مليون سنة ضوئية متجمعة معا ، بحيث إن محيط هذه الكتلة الكونية لم يزد عن أربع سنوات ضوئية ، وكانت مادة هذا الكون هى جسيمات من الفوتونات والإلكترونات ، والنيوترونات والجسيمات المضادة لهذه الجسيمات ، أما درجة الحرارة ، فكانت لا نهائية ، وكذلك الكثافة كانت أيضا لا نهائية ، وهذه الحالة لم تستمر لأكثر من جزء من مائة جزء من الثانية ، بعدها انخفضت درجة الحرارة إلى مائة ألف مليون درجة مطلقة .

---

(٢) الأنبياء : ٣٠ .

(٣) تفسير القرطبى : ١١ / ٢٨٣ .

وعلى مدى ثلاث دقائق وست وأربعين ثانية فقط ، حدثت تغييرات رهيبة في هذه الكتلة الكونية الواحدة ، أدت إلى شهور ألف مليون درجة مطلقة ، وأخذت أجزاء هذا الكون تتمدد في الفضاء وتبتعد ، وتتجمع في شكل مجرات ونجوم وظواهر كونية مثيرة .

أى أن الأرض وباقى أجزاء الكون – بناء على هذه النظرية – كانت جميعا كتلة واحدة متصلة ، ثم تسلطت عليها قوى كونية جبارة ، أحدثت فيها تغييرات هائلة ، أدت إلى ظهور هذا الكون بصورته التى نعرفها الآن .

وقد سبق القرآن الكريم علماء العصر الحديث إلى هذه الحقيقة المثيرة ، مما يعد ذلك إعجازا علميا فريدا »(٤)

النموذج الثانى جريان الشمس لمستقر لها

وعن هذه الحقيقة العلمية يقول الدكتور الغمراوى: « لننظر فى الآية ٣٨ من سورة يس ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ فالفعل « تجرى » ينطبق فى أعين الناس على حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ، وهو فى حرفيته يعبر عن حركة حقيقية ، أثبتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة ، قدروها بنحو اثنى عشر ميلا فى الثانية ، فى اتجاه مخصوص فى فضاء الله ، هو الجهة التى فيها النجم المسمى (فيجا) ، فى الأفرنجية ، و (النسر الواقع) فى العربية ، والفعل يدل – ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس ، – ولكن يدل أيضا على عظم تلك الحركة ، إذ الجرى طبعا أدل على السرعة من المشى أو السير .

ولو كانت الشمس غير ذات حركة فى الواقع ، وكان الفعل (تجرى) معبرا فقط عن حركتها الظاهرية بالنسبة إلى الأرض لا نفتح للملحد أو مستشرق يكفر بالقرآن أن يقول : إن جملة (والشمس تجرى) هى من عند إنسان يصف مايرى ، أما وقد ثبت للشمس جرى حقيقى فى الفضاء ، متعين المقدار والاتجاه ، بعد نحو اثنى عشر قرنا من عصر القرآن ، فالجملة القرآنية هى من عند

---

(٤) الإعجاز العلمى فى الإسلام : ٧١ ، ٧٢ .

خالق الشمس ، آية للناس على أن القرآن من عند الله .

وتنكير المستقر فى قوله ﴿ لمستقر لها ﴾ يشير إلى عظم شأنه ، وهول آثاره التى ستكون . وقد سمح هذا التنكير لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى ما يتفق وجرى الشمس الظاهرى ، وترددها كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لا تتعداهما بحال ، فكل موقع من هذين الأقصيين هو لها مستقر ، فى الشتاء مرة ، وفى الصيف مرة أخرى .

وفى المفسرين القدماء من قال إنه لا استقرار للشمس فى حركتها ، حتى يجىء يوم القيامة ، فتبطل حركتها وتستقر .

وهذا أقرب تقسيم إلى الصواب ، لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية ، الظاهرة ، الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة السرعة ، التى أثبتها العلم للشمس ، وأنبأ بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث ، فكان ذلك للقرآن معجزة علمية كبرى ، ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ، ويجعلها نصب عينيه ، ليزداد يقينا أن القرآن من عند الله حقا وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولاتكلف ، فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم ، وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة بالصورة التى رأيت هنا ، قدبينت صنوفا من الإعجاز ، فى آية سورة (يس) ، لايكاد الإنسان يقضى حقها عجبا .

آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين (والشمس تجرى) معجزة كبرى علمية ، وتحوى فى كلمتين أخريين (لمستقر لها) نبوءة مذهلة ، ستتحقق من غير شك ، لأنها قرينة المعجزة العلمية ، الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ، ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس ، حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف ، من عرف هذا السر اهتدى به وبالمعجزة العلمية ، التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف

اهتدى بموافقة الآية للحركة التي يرى »[٥]

النموذج الثالث تناقص الضغط الجوى والأكسجين كلما ارتفعنا فى الفضاء

كان الناس يعتقدون إلى وقت قريب أننا كلما بعدنا عن سطح الأرض كان الجو أكثر ملاءمة وصحة للناس ، ولكن العلم الحديث قد أثبت عكس ذلك ، حيث قرر أن الإنسان كلما ارتفع إلى أعلى تناقص الضغط الجوى ، عما كان عليه فى الأرض ، وبذلك لا يتناسب مع ضغط الإنسان الداخلى ، بعد أن كان متساويا معه ، كما يؤدى الارتفاع فى الفضاء إلى تناقص كمية الأكسجين .

ويترتب على هذا التناقص فى ضغط الفضاء ، وفى كمية الأكسجين أن تضطرب وظائف الجسم ، وأن يندفع الحجاب الحاجز إلى أعلى ، مما يسبب ضغطا على القلب والرئتين قد يصل إلى حد الاختناق .

ولذلك استعان علماء الفضاء بالأجهزة الحديثة ، والوسائل المتطورة ، التى تجعل الضغط الخارجى متساويا مع الضغط الداخلى ، والتى تحتفظ بالكمية اللازمة لتنفس الإنسان . هذه الحقيقة العلمية أشار إليها القرآن فى قوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ [٦]

النموذج الرابع
التلقيح الكهربائى بالريح

قال تعالى : **﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾**[٧] كان كثير من الناس – وربما كلهم – يعتقدون أن المراد بالتلقيح هنا تلقيح الرياح للزرع والشجر ، وذلك بالجمع بين طلع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات . ولكن هذا الفهم مخالف لما

---

(٥) الإسلام فى عصر العلم ، للدكتور الغمراوى : ٢٩٩ – ٢٣٢ باختصار .
(٦) الأنعام : ١٢٥ .
(٧) الحجر : ٢٢ .

اكتشفه العلم الحديث ، بل ومخالف للمعنى الصحيح للآية ، الذى يتفق تماما مع معطيات العلم الحديث ، فالآية تفيد أن التلقيح يتم فى الفضاء ، ويترتب عليه بعد ذلك إنزال الماء من السماء ، فالتلقيح المراد هنا هو التلقيح الذى يترتب عليه إنزال الماء من السماء ، لا الذى يترتب عليه الجمع بين طلع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات .

إن التلقيح المراد هنا هو التلقيح الكهربائى الذى يكون بين سحاب وسحاب ، بفعل الرياح ، مما يترتب عليه إنزال الماء من السماء.

وحول هذه الآية والإعجاز العلمى القرآنى فيها **يقول د / محمد أحمد الغمراوى** : « ومفتاح هذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء لسقيا الناس على إرسال الرياح لواقح ، والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه ، لا إنزال الماء من السماء للناس يشربونه ، أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس ، فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك شبيها بلقاح الأحياء ، من زروع وحيوان ، كما يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب .

وما عليك إلا أن تذكر ما قدمنا لك عن تكاثف السحاب مطرا وعن أثر كهربائيته فى ذلك التكاثف ، وأثر الرياح فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحاب وسحاب ، لنعلم أن المراد من وصف الرياح بأنها لواقح ليس هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين طلع أعضاء التذكير وبويضات أعضاء التأنيث فى النبات .

ولكن هو الاشارة إلى أثرها فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب .

فالتلقيح – أو الملاقحة – هنا : هى بين قطيرات وقطيرات ، أو بين سحاب وسحاب ، لا بين زهر وزهر ، أو نبات ونبات .

والشبه تام بين هذا التلقيح النباتى ، وذلك التلقيح الكهربائى ، أو بالأحرى ليس هناك تشبيه مطلقا ، فإن اتحاد الكهربائيتين تلتيح إن كان اتحاد الخليتين تلتيحا ، لأنه فى الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين ، يختفى به الشيئان ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

ففى حالة التلقيح النباتى ينشأ من بين الخليتين خلية واحدة لها خواص غير خواص أيهما ، وفى حالة التلقيح الكهربائى ينشأ من بين الكهربائيتين ضوء وحرارة ، لهما خواص غير خواص الكهربائيتين .

فهذا شرط الشبه الشديد للقاح الأحياء قد توفر ، أما شرط ترتيب نزول الماء على تحقيق هذا الإلقاح فقد عرفت توفره من ترتب تكاثف السحاب مطرا على التفريغ الكهربائى للسحاب .

فآية الحجر تلك ، هى مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقح السحاب ، وأثره فى نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان ، حتى كشف عنه العلم الحديث ، وهى طبعا مثل رائع ، من التطابق التام بين العلم والدين فى الإسلام . »[٨]

النموذج الخامس

الذرة ليست أصغر شيء فى الكون

كان العلماء يعتقدون اعتقادا جازما أن الذرة أصغر شيء فى هذا الكون إلى أن تمكن علماء ألمانيا فى أوائل الربع الثانى من القرن العشرين من تحطيم ذرة اليورانيوم إلى جزئيات صغيرة .

ومن وقتها انبهر الناس من هذا الاكتشاف ، لما أحدثه من ثورة فى ميدان العلم ، وتسخير ذلك الاكتشاف فى مجالات السلم والحرب .

إن هذا الاكتشاف - أعنى اكتشاف أن الذرة ليست أصغر شيء وإنما هى قابلة للانقسام - سبق به القرآن الكريم حيث قال تعالى : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر**

---

(٨) الإسلام فى عصر العلم : ٣٥١ ، ٣٥٢ .

إلا فى كتاب مبين ﴾ (٩) وقال أيضا : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾(١٠)

النموذج السادس
تحريم لحم الخنزير

ذكر القرآن الكريم أطعمة يحرم على الإنسان تناولها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب** ﴾(١١) ولم يكن الناس يفقهون الحكمة من تحريمها ولذلك كانوا يتجرءون على أكلها ، إلا من آمن بالقرآن ، لأنه يعلم أن الله عز وجل لا يحرم شيئا إلا إذا كان ضارا بالإنسان ، وبعد تطور العلوم ، وتقدم الأبحاث التجريبية ، تبين للناس الأضرار الكثيرة التى تكمن فى تناول هذه الأطعمة المحرمة ، والتى لم يكن الناس يعرفون عنها شيئا فى عصر تنزيل القرآن ولا بعده بمئات السنين .

ونحن فى هذا المقام مقام ضرب الأمثلة - اختصارا للحديث - سنكتفى بإيراد طعام واحد للحديث عن ، وهو لحم الخنزير . فأقول وبالله التوفيق .

إن لحم الخنزير يصيب الإنسان بأمراض كثيرة ، هى فى غاية الخطورة ، منها :(١٢)

١ - مرض الشعرية أو الترخينية ، وتسببه ديدان تعيش فى لحم الخنزير ، وهذه الديدان تستقر فى عضلات آكل لحم الخنزير ، وعلى الأخص عضلات التنفس ، كذلك تستقر تلك الديدان فى الأعضاء الحيوية من الجسم ، كالمخ والعين والقلب والرئة والكبد ، فإذا كانت فى

---

(٩) يونس : ٦١ .
(١٠) سبأ : ٣ .
(١١) المائدة : ٣ .
(١٢) نقلت هذه الأمراض عن كتاب « الإعجاز العلمى فى الإسلام » لمحمد كامل عبد الصمد : ٢٥٧ - ٢٦٠ والذى نقلها عن كتابى : تحريم الخنزير فى الإسلام للدكتور فاروق مساهل ، والطب الوقائى فى الإسلام للدكتور أحمد شوقى الفنجرى.

المخ أحدثت الجنون أو الشلل واضطراب الشخصية ، وإذا وصلت إلى العين أصابتها بالعمى ، وإذا وصلت إلى جدار القلب أحدثت هبوطا فى القلب ، أو ذبحة قلبية . وعدد المصابين بهذا المرض فى أمريكا ٤٧ مليونا ، وتبلغ نسبة الموت بهذا المرض ٣٠ ٪ .

٢ – **الدودة الشريطية** ، المسماة (تيناسوليوم) ، وتعيش هذه الدودة فى الأمعاء الدقيقة للإنسان ، ويبلغ طولها ثمانية أمتار ، مكونة من رأس ، بها مابين ٢٢ إلى ٢٣ خطافا ، تتشبث بها فى جدار الأمعاء ، وتهرب يرقاتها إلى مجرى الدم لتسقر فى أى عضو من أعضاء الجسم ، مثل الكبد والقلب ، والعين والعضلات ، وتتحوصل بها ، فإذا استقرت فى المخ – وهومكانها المفضل – فإنها تتسبب فى حدوث مرض الصرع .

٣ – **الالتهاب السحائى المخى ، وتسمم الدم الناتج عن الإصابة بالميكروب السبحى الخنزيرى** ، فقد أعقب اكتشاف هذا الميكروب سنة ١٩٦٨ م تفسير السبب وراء حالات الوفيات الغامضة التى حدثت فى هولندا والدانمراك .

٤ – وتبين أن هذا الميكروب الخنزيرى متعطش لإصابة الإنسان والفتك به ، ويتسبب فى **حدوث التهاب فى الأغشيه الملاصقة للمخ** ، **وبإفراز سموم معينة فى دم المصاب ، تؤدى إلى الموت** ، والذين يفلتون من الموت بعد علاج مركز يصابون بصمم ، وفقدان التوازن ، « الترنح »

٥ – **الدوسنتاريا الخنزيرية « البلانتديازس »** ، وهى أكبر الميكروبات ذات الخلية الواحدة ، التى تصيب الإنسان ، ويوجد هذا الميكروب فى براز الخنزير ، وينتقل إلى طعام الإنسان بعدة طرق ، وتستقر الميكروبات فى أمعائه الغليظة ، محدثة إسهالا ودوسنتاريا ، مصحوبا بالمخاط والدم ، مع ارتفاع فى الحرارة ، وقد يحدث التهاب بالرئة وبعضلة القلب ، وقد يثقب القولون ليعقبه الموت .

٦ - **انفلونزا الخنزير** ، وينتشر هذا المرض على هيئة وباء يصيب الملايين من الناس ، وتكون المضاعفات خطيرة ، حينما يحدث التهاب بالمخ ، وتضخم فى القلب ، قد يليه هبوط فجائى فى وظيفته . وكان أخطر وباء أصاب العالم من انفلونزا الخنزير عام ١٩١٨ ، حيث قتل فى هذه الموجة فقط حوالى عشرين مليونا من البشر . وقد خافت أمريكا فى عام ١٩٧٧ م من هذا الوباء ، الذى أطل برأسه ، فاجتمعت اللجان برئاسة الرئيس الأمريكى ، الذى أصدر أمرا بتطعيم كل أمريكى بالمصل الوقائى ، من هذا المرض الخنزيرى القاتل ، وتكلف برنامج التطعيم ١٣٥ مليون دولار.

٧ - **التسمم الغذائى الخنزيرى** ، ذلك أن من خصائص لحم وشحم الخنزير سرعة الفساد والتحلل بفعل الجراثيم ، إذا ما ترك ولو مدة قصيرة من الوقت دون تبريد ، وقد أدى هذا التسمم إلى الموت فى مناسبات عديدة .

٨ - **ثعبان البطن الخنزيرى « الإسكارس »** ، وقد توصل الطب إلى اكتشاف إصابة الإنسان بثعبان البطن الخنزيرى ، فى صيف عام ١٩٨٢ م ، فى المناطق الجنوبية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، نتيجة للتعرض المباشر للخنزير ، أو أكل المواد الغذائية الملوثة ببراز الخنزير .

٩ - **دودة المعدة القرحية** ، وهى دودة تصيب الخنزير أصلا ، ولكنها تنقل إلى الإنسان من الخنزير ، وتصيب الأطفال خاصة ، وتتسبب هذه الدودة فى حدوث إسهال والتهاب « المصران الغليظ » .

١٠ - **دودة الرئة الخنزيرية** ، وهذه تعيش فى رئة الخنزير ، وتنتقل منه إلى الإنسان .

١١ - **الدوسنتاريات الأميبية الخنزيرية** ، وتنقل العدوى للإنسان من الخنزير ، والخنزير يأكل القاذورات والجيفة ، ولا يقلع عن ذلك ، حتى لو أقام فى أجمل الحظائر وأفخمها ، فقد يأكل براز الحيوانات الأخرى التى معه أو برازه ، أو أى شىء ميت يجده فى طريقه .

١٢ - **وذكرت الأبحاث العلمية أن جسم الخنزير يحتوى على كميات كبيرة من حامض البوليك** ، ولا يفرز منه إلا القليل بنسبة لا تعدو ثلاثة فى المائة ، فى حين يفرز الإنسان من حامض البوليك هذا نحو تسعين فى المائة منه . ونظرا لاحتواء لحم الخنزير على هذه النسبة المرتفعة من حامض البوليك نتيجة كثرة موارده ، وقلة إفرازه ، لوحظ أن الذين يتناولون لحم الخنزير يشكون من آلام روماتيزمية ، والتهابات المفاصل المختلفة ، فضلا عن أن أليافه الغليظة تسبب عسرا فى الهضم ، وارتباكا فى الأمعاء .

١٣ - كما ثبت بالتحليل أن **دهن الخنزير يحتوى على نسبة كبيرة من الأحماض الدهنية المعقدة** ، وأن نسبة الكوليسترول فى لحم الخنزير خمسة عشر ضعفا لما فى البقر ، ولهذه الحقيقة أهمية خطيرة ، لأن هذه الدهنيات تزيد مادة الكوليسترول ، فى دم الإنسان ، وهذه المادة عندما تزيد عن المعدل الطبيعى تترسب فى الشرايين ، ولا سيما شرايين القلب ، وتسبب تصلب الشرايين وارتفاع الضغط ، وهو السبب الرئيسى فى معظم حالات الذبحة القلبية .

وقد جاء فى الموسوعة الأمريكية أن كل مائة رطل من لحم الخنزير يحتوى على خمسين رطلا من الدهن ، أى بنسبة ٥٠ ٪ ، فى حين أن الدهن فى الضأن يمثل ١٧ ٪ فقط ، وفى العجول لا يزيد عن خمسة فى المائة .

وهكذا يتم اكتشاف العديد من الأمراض الخنزيرية على أيدى علماء غير مسلمين ، سبقهم القرآن بما يزيد على أربعة عشر قرنا ، بتحريم أكل هذا الخنزير ، الذى يسبب كل هذه الأمراض القاتلة والفتاكة .

ثانيا : نماذج من الآيات فى الأنفس

النموذج الأول

التناسل الإنسانى ، وتطور الجنين فى بطن أمه

فى مواضع متعددة من القرآن الكريم ، يتحدث الله عز وجل عن قضية التناسل الإنسانى ، وتطور أحوال الجنين فى بطن أمه ، وقد جاء هذا الحديث فى وقت لم تكن البشرية تعرف شيئا عن هذه الأسرار ، وبعد مرور ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان ، وتطور العلوم البشرية ، تقف الإنسانية على تلك الحقائق القرآنية ، وتجد التطابق التام بين ما فى القرآن ، وما فى واقع الأرحام .

ويلاحظ أن النصوص القرآنية تعرضت فى هذا الموضوع إلى النقاط الآتية :

١ - إلى ضآلة السائل المنوى الذى يكون منه الإخصاب وطبيعته .

٢ - تعلق النطفة المخصبة بجدار الرحم الداخلى ، وتحولها إلى قطعة لحم فى منتهى الصغر .

٣ - المضغة المخلقة وغير المخلقة

٤ - تخلق العظام واكتسائه باللحم

٥ - إكمال تخلق الأجهزة الحسية للجنين ونفخ الروح فيه .

أما النقطة الأولى وهى ضآلة السائل المنوى الذى يتم منه الإخصاب

فقد عبر القرآن عنها بقوله ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى** ﴾[١٣] . أى قطرة ضئيلة من السائل المنوى ، فالنطفة فى اللغة مشتقة من النَّطْف ، وهو السيلان ، ففى صفة المسيح عليه السلام « ينطف رأسه ماء »[١٤] أى يسيل .

« وقد ثبت علميا أن الدفقة الواحدة من المنى تحمل مائتى مليون حيوان منوى والذى يلقح بويضة المرأة منها هو حيوان منوى واحد فقط . »[١٥] يقول

---

(١٣) القيامة : ٣٧ .

(١٤) البخارى : كتاب الأنبياء ، باب (واذكر فى الكتاب مريم) ، ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب ذكر المسيح .

(١٥) انظر فى ذلك الإعجاز العلمى فى الإسلام : ١٩٧ .

« موريس بوكاى » الطبيب الفرنسى ، معلقا على قوله تعالى : ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾

« ما يهم التأكيد عليه بوجه خاص ، هو تلك المعلومة ، عن الكمية الضئيلة جدا اللازمة ، للإخصاب ، وهى تتفق تماما مع ما نعرف اليوم »(١٦)

أما عن طبيعة هذا السائل فيقول تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾(١٧) والمراد من الأمشاج هنا المخاليط أو العناصر التى يتكون منها المنى .

يقول « موريس بوكاى » : « يتشكل السائل المنوى من إفرازات مختلفة ، تأتى من الغدد التالية:

أ - الخصيتان : يحتوى إفراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية ، وهى خلايا مستطيلة ، مزودة بهدب طويل ، وتسبح فى سائل مصلى.

ب - الحويصلات المنوية : تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية ، وتقع على مقربة من البروستاتا ، وتفرز إفرازا خاصا ، لكنه لا يحتوى على عناصر مخصبة .

جـ - البروستاتا : وتفرز سائلا يعطى للسائل المنوى قوامه الغليظ ، ورائحته الخاصة .

د - الغدد الملحقة بالمسالك البولية : وهى الغدد المعروفة باسم كوبر أو ميرى ، وتفرز سائلا جاريا ، وغدد ليترى ، وتفرز المخاط .

تلك هى أصول هذه المخاليط « الأمشاج التى يبدو فعلا أن القرآن يتحدث عنها .

ثم يقول « بوكاى » : « بل هناك أكثر من هذا : إذا كان القرآن يتحدث عن سائل مخصب يتكون من عناصر مختلفة ، فإنه يلفت نظرنا إلى أن نسل الإنسان يستمر بواسطة شىء ، يمكن استخراجه من هذا السائل ، وذلك هو معنى الآية ٨ من سورة السجدة ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ ،

---

(١٦) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ٢٢٨ .

(١٧) الإنسان : ٢ .

سلالة : تدل الكلمة على شيء مستخرج ، أو خرج من شيء آخر ، أو هو أحسن جزء من شيء ، وأيًا كانت طريقة التفسير فالمقصود هو جزء من كل .

إن ما يتسبب فى إخصاب البويضة ، ويكفل التناسل ، هو خلية شديدة الاستطالة يقاس طولها بمقياس ١ : ١٠٠٠٠ ملم ، إن عنصرا واحدا من بين عشرات الملايين الصادرة ، من رجل فى ظروف عادية ، يصل إلى الولوج فى البويضة ، ويتبقى عدد كبير فى الطريق ، ولا ينجح فى قطع المسافة ، التى تؤدى من المهبل إلى البويضة ، عبر تجويف الرحم والبوق (بوق فالوب) .

إنه إذًا جزء متناه فى الصغر ، صادر من السائل ، معقد التركيب ، هو الذى يحقق نشاطه .

ثم يقول «بوكاى» : « فكيف لا ندهش أمام الاتفاق بين العنصر القرآنى والمعرفة العلمية ، التى اكتسبناها من هذه الظاهرات »(١٨)

النقطة الثانية : العلقة.

يقول تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ ، والعلقة المرادة هنا : قطعة لحم متناهية فى الصغر ، شديدة الالتصاق بجدار الرحم ، وبهذا يظهر سبب تسمية هذه القطعة المتناهية فى الصغر من اللحم علقة .

وقد أكد العلم الحديث هذه الحقيقة ، حينما اكتشف أن النطفة المخصبة تكون فى غاية شدة التعلق بجدار الرحم الداخلى للمرأة فى بداية تكوين الجنين ، حيث تبدأ هذه الخلية فى انقسام سريع ، مما يترتب عليه كبر حجمها ، وتمسكها بصورة أقوى فأقوى بجدار الرحم .

إن هذه العلقة متناهية الصغر والوزن ، فطولها حوالى نصف ملليمتر ، ووزنها يكاد يكون معدوما وعند اقتراب نهاية مرحلة العلقة ، تكون قد تكونت فيها خلايا دموية بعد اليوم الثامن عشر من حياة الجنين ، تمهيدا لأن تتحول هذه العلقة إلى صورة أخرى أكثر تعقيدا (١٩) وهى :

---

(١٨) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(١٩) انظر فى ذلك : الإعجاز العلمى فى الإسلام : ٢٠٦ .

والمضغة : قطعة من لحم ، بقدر ما يمضغ ، والمراد بها هنا قطعة لحم شبه اللحم الممضوغ

وعن سر اختيار هذا اللفظ بالذات ، يقول « موريس بوكاى »

« المضغة : تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم : فيعنى اللحم النضر ، ويستحق هذا التمييز الالتفات ، إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره ، كتلة صغيرة ، تبدو فعلا للعين المجردة كلحم ممضوغ »[٢٠]

وهذه المضغة عبر عنها القرآن فى سورة الحج بقوله ﴿ **مخلقة وغير مخلقة** ﴾ ولعل أصح تفسير لذلك أن معنى ﴿ **مخلقة** ﴾ مستبينة الخلق مصورة ، ومعنى ﴿ **غير مخلقة** ﴾ لم يستبن خلقها وصورتها بعد . فهى فى بداية أمرها لم يظهر فيها شىء من الأعضاء ، ثم ظهرت تلك الأعضاء بعد ذلك شيئا فشيئا .

ومعلوم أن الواو فى اللغة لا تفيد الترتيب ، ثم تأتى مرحلة أخرى ، وهى التى قال الله عنها :

فخلقنا المضغة عظاما

وقد أثبت العلم أن الهيكل العظمى يبدأ تكوينه فى الطبقة الوسطى من خلايا تلك المضغة .. وبعد انتهاء تخلق الهيكل العظمى ، تأتى مرحلة أخرى ، وهى اكتساء العظم باللحم وعنها يقول تعالى : ﴿ **فكسونا العظام لحما** ﴾ ثم تبدأ الحواس فى الظهور

يقول الدكتور محمد على البار :

« أما البروفسور « جيليت » فهو أصرح الجميع ، ويتفق تماما مع الآية الكريمة والحديث الشريف تمام الاتفاق ، وهو لا يدرى عنهما شيئا ، حيث يقول فى كتابه « فن الولادة » :

« إنه فى الشهر الثالث تبدأ تظهر الأظافر ونقط تكوين العظام ، ثم تكسى العظام باللحم » . وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **فخلقنا المضغة عظاما**

---

(٢٠) دراسة الكتب المقدسة : ٢٣٢ .

فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٢١]

إن مجيء الرسول ﷺ بقرآن فيه مثل هذه التفاصيل الدقيقة عن مراحل خلق الجنين وتطوره في بطن أمه ، وهو ﷺ أمي لا يقرأ و لا يكتب ، ويعيش في أمة أمية ، بل في عهد سادت فيه الخرافات والأوهام ، وعمه الجهل والضلال ، إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل .

يقول موريس بوكاي : « عرف الناس القرآن بما يربو على ألف عام من قبل هذا العصر - يعنى القرن الثامن عشر - الذى كانت المعتقدات الوهمية تسوده » ثم يقول : «إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى ، أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها »[٢٢]

النموذج الثانى اختلاف البصمات

قال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾[٢٣]

فى هاتين الآيتين رد من الله عز وجل على من يظن أن الله غير قادر على بعث الإنسان بعد موته ، حيث يقول لهذا المتشكك إن الله قادر على ذلك ، بل وعلى أدق من إعادة العظام كما كانت ، فهو قادر على تسوية البنان ، والمراد بالبنان رؤوس الأصابع .

وقد تساءل كثير لماذا خص الله عز وجل رؤوس الأصابع بالذات دون غيرها ؟

وقد أجاب كثير من المفسرين على ذلك وقالوا : لأن الرؤوس فى غاية الدقة ، حيث تحتوى على عظام دقيقة وأعصاب حساسة ، وغير ذلك .

لكن العلم الحديث يكشف لنا عن حقيقة هى غاية فى الأهمية ، تشير إليها هذه الآية ، ألا وهى أن رؤوس الأصابع تختلف من شخص لآخر ، بحيث لا يوجد اثنان فى العالم تتطابق بصمتاهما تمام التطابق ، ولذلك بدأت دول

(٢١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن : ١٣٦ ، للدكتور محمد على البار ط : الدار السعودية .

(٢٢) دراسة الكتب المقدسة : ٢٣٤

(٢٣) القيامة : ٣ ، ٤ .

العالم فى أواخر القرن التاسع عشر تعتمد على البصمات ، للتعرف على من يراد التعرف عليه.

إن علماء الكون كله لو أخذوا مثلا عشرة آلاف مساحة ، كل واحدة منها فى حجم رأس الأصبع ، وطلب منهم رسم خطوط البصمات فيها فإنهم لابد وأن يأتوا إلى عدد معين ، ويوجد التشابه بين بصمتين على الأقل ، أما الله عز وجل فقد خلق المليارات الموجودة الآن غير من ماتوا ، وغير من سيولدون إلى يوم الدين ، ومع ذلك فلا تشابه بين بصمتين .

إذا عرفنا ذلك أدركنا لماذا خص الله عز وجل رؤوس الأصابع بالذكر حينما رد على من يتشكك فى قدرته تعالى على جمع عظام الموتى ، وأدركنا أيضا أن هذا القرآن كلام الله ، الذى أحاط بكل شىء علما .

النموذج الثالث : إحساس الجلد

قال تعالى : **﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾**(٢٤)

فى هذه الآية الكريمة يبين الله عز وجل أن جلود الكافرين فى نار جهنم كلما احترقت أتى لهم بجلود أخرى، وعلل الله ذلك بقوله **﴿ ليذوقوا العذاب ﴾** ومعنى هذا أن الإحساس بالألم يكون عن طريق الجلد وقد قرر العلم الحديث هذه الحقيقة العلمية بعد القرون المتطاولة منذ نزول القرآن ، حيث أثبت أن أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد ، وهى التى تنقل الشعور إلى المخ ، ثم يحس بها الإنسان.

أفى مكنة محمد وقومه ، بل والعالم كله فى زمانه وبعد زمانه بهذه القرون أن يأتوا بمثل هذه الحقيقة المعجزة ؟

---

(٢٤) النساء : ٥٦ .

النموذج الرابع : اعتزال النساء في المحيض

قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾(٢٥)

تدل هذه الآية على وجوب اعتزال الرجل امرأته أثناء فترة الحيض ، وعلل القرآن ذلك بأن الجماع في هذه الفترة يؤدى إلى أذى شديد للغاية ، وعظم هذا الأذى مستفاد من تنكير كلمة « أذى » **وقد اكتشف العلم الحديث بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا بعض أنواع هذا الأذى ، وقرر أن منها ما يعود على المرأة ومنها ما يعود على الرجل ، ومنها ما يشتركان فيه .**

فمما يخص المرأة :

١ - أن حساسية جدار المهبل خلال فترة الحيض تزداد ، ويكون الجماع بالتالى مؤلما ، حيث إن الرحم يكون ملتهبا جدا ، ومتقرحا ، أو يكون أشبه بالمنطقة التى سلخ جلدها ، فتقل مقاومته لعدوان الميكروبات التى قد تغزوه ، ويكون بيئة صالحة مناسبة جدا لتكاثر ونمو هذه الميكروبات ، لأن الدم - كما هو معلوم - أفضل بيئة لذلك . فمن أجل ذلك تمنع المعاشرة الجنسية أثناء فترة الحيض ، لأنه يسمح بدخول الميكروبات إلى الرحم ، الذى يكون فى أضعف حالاته .(٢٦)

٢ - « قد تمتد الإلتهابات إلى قناتى الرحم فتسدها أو تؤثر على شعيراتهما التى تدفع البويضة من المبيض إلى الرحم ، وانسداد قناتى الرحم باب واسع إلى العقم ، أو إلى الحمل خارج الرحم ، وهو من أشد أنواع الأذى ، لأنه يؤدى إلى انفجار هذه القناة فتسيل الدماء فى أقتاب البطن ، فتحدث الوفاة .

٣ - وقد يمتد الالتهاب إلى القناة البولية ، وبالتالى إلى الجهاز البولى ،

---

(٢٥) البقرة : ٢٢٢ .

(٢٦) المحيض بين إشارات القرآن وحقائق الطب د / محمد عبد الله الشرقاوى مجلة الوعى الإسلامى مايو ١٩٨٥م كما نقل عنه محمد كامل عبد الصمد فى كتابة الاعجاز العلمى فى الإسلام ، ٢٧٦.

وقد يكون ذلك أحد أسباب السرطان الذى يلتهم عنق الرحم.

أما بالنسبة إلى الرجل : فإن الأذى محقق ، لأن هذا يؤدى إلى تكاثر الميكروبات ، والتهاب قناة مجرى البول ، ونمو الميكروبات السبحية والعنقودية فيها .»[٢٧] **وقد يصل الأمر إلى حدوث ما يسمى بالغرغرينة فى العضو الذكرى ، مما يوجب بتره ، وإلا انتشرت الغرغرينة فى سائر الجسد .**

ومما هو أذى للطرفين من الناحية النفسية التى تعود بالأثر السيء على العلاقة بين الزوجين أن المرأة فى هذه الفترة تكون مصابة بالتوتر النفسى ، وعدم اعتدال المزاج ، وليس لها رغبة فى الجماع ، فإذا كان للرجل رغبة فى الجماع ، وقهرها عليه كرهته وإن استجابت قضت معه هذه اللحظات وهى فى منتهى الضيق والضجر ، وفى كلا الأمرين لا يشعر الرجل بتبادل العاطفة الصادقة ، بل سيشعر بكراهة زوجته له ، وكل ذلك يؤثر على المحبة والمودة فيكون الجماع أذى لحالتهما النفسية ، فضلا عن حالتهما العضوية .

وبعـــد

فهذه أمثلة ، من بين عشرات الأمثلة التى تبين اشتمال الآيات القرآنية على حقائق علمية فى منتهى الدقة ، لم يعرف عنها العلماء شيئا إلا فى العصر الحديث ، بعد قرون وقرون منذ نزول القرآن على رسول الله ﷺ .

هل يدعى عاقل أن يقول إن العالم كله بعلمائه وأذكيائه ومثقفيه كان يعرف شيئا عن هذه الحقائق الثابتة أيام نزول القرآن ، حتى يأتى رجل أمى لا يعرف القراءة والكتابة ، ولم يطرق باب مدرسة من المدارس ، ولم يجلس أمام أستاذ ، حتى مات بمثل هذه الحقائق الثابتة ؟

لا يوجد عاقل يقول مثل هذا ، بل مارأينا مجنونا ادعى أن مثل هذه الحقائق كانت موجودة فى ذلك الزمان الغابر.

إن دلت هذه الحقائق الكونية المذكورة فى القرآن على شيء ، فإنما تدل فى المقام الأول على أن القرآن كلام الله ، وأن على الجميع الإيمان بمن صدر عنه

---

(٢٧) الاعجاز العلمى فى الإسلام : ٢٧٦ .

هذا القرآن .

وفى هذا يقول تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[٢٨] ويقول أيضا : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾[٢٩]

---

(٢٨) فصلت : ٥٣ .

(٢٩) سبأ : ٦ .

وشهد أعداء القرآن بإعجازه العلمى

ورغم ما يكنه أعداء القرآن له من عدواة وحقد إلا أن كثيرا منهم لم يستطيعوا إلا أن يعترفوا بأنه من عند الله ، ويستحيل على رجل مثل محمد بن عبد الله الاتيان بمثله ، لتضمنه موضوعات علمية لم يكن العالم كله قد عرف عنها شيئا حتى بعد نزول القرآن بثلاثة عشر قرنا من الزمان ، ولقد دفعت هذه الحقائق العلمية التى أشار اليها القرآن إلى إسلام كثير من علمائهم ...

وهذه بعض نصوص من أفواه أعداء القرآن ، أو ممن كانوا قبل إسلامهم أعداء له .

١ - تقول الباحثة المعاصرة البولونية « بوجينا ستشيجفسكا »:

« إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربى أمى ، نشأ فى أمة أمية ، فقد جاء بقوانين ، لا يمكن أن يتعلمها الإنسان ، إلا فى أرقى الجامعات ، كما نجد فى القرآن حقائق علمية ، لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة »(١)

٢ - ويقول « موريس بوكاى » الطبيب الفرنسى .

« لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أى فكر مسبق ، وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ، ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى ، استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد ، من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث . »(٢)

ويقول « بوكاى » أيضا:

« لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية ، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من

---

(١) قالوا عن الإسلام : ٦٨ .

(٢) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ١٣ .

الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك فى نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فى البداية لم يكن لى أى إيمان بالإسلام ، وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة ، من كل حكم مسبق ، وبموضوعية تامة »[3]

ويقول أيضا : « وتناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية ، لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات ، وهى تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا فى النص الأصلى ، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم ، عن نفس هذه الظاهرات ، والتى لم يكن ممكنا لأى إنسان فى عصر محمد ﷺ ، أن يكون عنها أدنى فكرة »[4]

ويقول أيضا : « وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكتشف فى القرآن أى خطأ ، وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنسانا ، كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى ، أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟

ليس هناك أى مجال للشك ، فنص القرآن الذى نملكه اليوم هو فعلا نفس النص الأول .

ما التعليل الإنسانى الذى يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة ؟

فى رأيى ليس هناك أى تعليل ، إذ ليس هناك سبب خاص ، يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك « داجوبير » استطاع أن يملك ثقافة علمية ، تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية ، فيما يخص بعض الموضوعات .

ومن الثابت فعلا أن فى فترة تنزيل القرآن ، أى تلك التى تمتد على عشرين عاما تقريبا ، قبل وبعد عام الهجرة (٦٢٢م) كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود ، منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار

---

(٣) المصدر السابق : ١٤٤ .

(٤) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة : ١٤٥ .

العلمى ، الذى واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن »(٥)

ويقول أيضا : « كيف يمكن لإنسان كان فى بداية أمره أميا أن يصرح حقائق ذات طابع علمى ، لم يكن فى مقدور أى إنسان فى ذلك العصر أن يكونها ، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطإ من هذه الوجهة »(٦)

٣ - **يقول أحد الهنود النصارى الذى اعتنق الإسلام وتسمى « عامر على داود »** « إن دراستى للقرآن الكريم ، وضحت أمام ناظرى العديد من الإشكالات الفكرية ، وصححت الكثير من التناقضات التى طالعتها فى الكتب السماوية السابقة (٧)

٤ - **وتقول الصحفية الأمريكية : «ديبورا بوتر »** ، التى ولدت عام ١٩٥٤ واعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠م : « عندما أكملت القرآن الكريم ، غمرنى شعور بأن هذا هو الحق الذى يشتمل على الإجابات الشافية ، حول مسائل الخلق وغيرها ، وأنه يقدم لنا الأبحاث بطريقة منطقية ، نجدها متناقضة مع بعضها فى غيره من الكتب الدينية . أما القرآن فيتحدث عنها فى نسق رائع ، وأسلوب قاطع ، لا يدع مجالا للشك ، بأن هذه هى الحقيقة ، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة »(٨) وتقول أيضا : « كيف استطاع محمد الرجل الأمى الذى نشأ فى بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون ، التى وصفها القرآن الكريم ، والتى لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بد إذًا أن يكون هذا الكلام هو كلام الله عز وجل .»(٩)

٥ - **وتقول الإنجليزية « اللادى إيفلين كوبولد »** ، التى اعتنقت الإسلام وحجت بيت الله الحرام ، وألفت كتاب « البحث عن الله » :

---

(٥) الموضع السابق .

(٦) المصدر السابق : ١٥٠ .

(٧) قالوا عن الإسلام : ٥٩ .

(٨) قالوا عن الإسلام : ٥٥ .

(٩) الموضع السابق .

« وذكرت أيضا ما جاء في القرآن عن خلق العالم ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين ، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ، ودراسة امتدت أجيالا عديدة »(١٠)

٦ – ويقول القس المصرى ، الذى عمل فى التنصير مدة من الزمن ثم أسلم عام ١٩٥٩م ، وتسمى باسم : « إبراهيم خليل أحمد » ، وألف كتابا أسماه « محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن » ، يقول فى هذا الكتاب : « يرتبط هذا النبى ﷺ بإعجاز أبد الدهر ، بما يخبرنا به المسيح فى قوله عنه : « ويخبركم بأمور آتية » ، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم ، معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان ، فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث ، فى كل مناحيه ، من طب وفلك ، وجغرافيا ، وجيولوجيا وقانون ، واجتماع وتاريخ ، ففى أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن ، بالبيان والتعريف »(١١)

ويقول أيضا فى كتابه هذا : « أعتقد يقينا أنى لو كنت إنسانا وجوديا لايؤمن برسالة من الرسالات السماوية ، وجاءنى نفر من الناس ، وحدثنى بما سبق به القرآن العلم الحديث – فى كل مناحيه – لآمنت برب العزة والجبروت ، خالق السموات والأرض ، ولن أشرك به أحدا »(١٢)

(١٠) من كتابها المذكور ص : ٤٥ ، كما فى : قالوا عن الإسلام : ٨١ .
(١١) قالوا عن الإسلام : ٤٩ .
(١٢) الموضع السابق .

العلم الحديث يكشف زيف التوراة والإنجيل

ظهر مما سبق مدى التطابق التام ، بين ما أشار إليه القرآن ، من كونيات ، وما اكتشفه العلماء من أسرار هذه الكونيات ، بما عد وجها جديدا ، من وجوه إعجاز القرآن ..

وهذا ما لا يوجد فى التوراة والإنجيل ، حيث وجدنا فيهما نصوصا كثيرة تتعارض تماما مع الحقائق الثابتة ، التى قررها العلم الحديث .

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن القرآن كلام الله ، وعلى أن التوراة والإنجيل التى بين أيدى أصحابها الآن ، من وضع بشر جهلة ، لا يعرفون عن الكون شيئا وقد شهد بذلك علماؤهم .

يقول الطبيب الفرنسى « موريس بوكاى » :

« يحتوى القرآن على تأملات عديدة ، خاصة بالظاهرات الطبيعية ، وبتفاصيل توضيحية ، تتفق تماما مع معطيات العلم الحديث ، وليس هناك ما يعادل ذلك فى التوراة والإنجيل »(١)

ويقول أيضا : « وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة ، لا نكتشف فى القرآن أى خطأ »(٢)

كما يقول : « صحة القرآن التى لا تقبل الجدل ، تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن فى هذه الصحة لا العهد القديم ، ولا العهد الجديد »

ويستطرد قائلا : « وقد عرضنا فى الجزءين الأولين من هذا الكتاب ، لتعديلات العهد القديم والأناجيل ، قبل أن تصل إلينا بالحالة التى هى عليها اليوم ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقرآن ، لسبب بسيط ، وهو أن القرآن قد ثبت فى عصر النبى ﷺ »(٣)

---

(١) دراسة الكتب المقدسة : ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٥١ .

نماذج من الأخطاء العلمية فى التوراة والإنجيل

وكما فعلنا مع القرآن ، حيث اخترنا نماذج فقط للتدليل على مدى التطابق التام بين معطيات العلم الحديث وإشارات القرآن عن الكونيات ، نختار أيضا نماذج فقط ، للتدليل على عكس ذلك تماما ، لأن المجال لا يتسع لإيرادها ، فضلا عن مناقشتها.

أولا : نماذج من التوراة .

نموذج عن الخلق.

تضمنت الصفحة الأولى من التوراة عدة أخطاء علمية تتعلق بخلق الكون ، ومن هذه الأخطاء ما جاء فى الآيات الثالثة والرابعة والخامسة من سفر التكوين ، ونصه :

« وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا ، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومًا واحدا » أى حدث هذا فى اليوم الأول من أيام الخلق .

يعلق موريس بوكاى على هذا النص بقوله : « إن الضوء الذى يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث فى النجوم ، ولكن النجوم حسب قول التوراة ، لم تكن قد تشكلت بعد فى هذه المرحلة ، حيث إن أنوار السموات لا تذكر فى سفر التكوين إلا فى الآية ١٤ باعتبارها ما خلق الله فى اليوم الرابع « ليفصل بين النهار والليل » «ولينير الأرض » وذلك صحيح تماما ، ولكن من غير المنطقى أن تذكر النتيجه الفعلية – أى النور – فى اليوم الأول ، على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور ، أى « المنيرة » ، فى اليوم الرابع .

يضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار فى اليوم الأول هو أمر مجازى صرف ، فالليل والنهار باعتبارهما عنصرين ليوم غير معقولين إلا بعد وجود الأرض ودورانها ، تحت ضوء نجمها الخاص بها ، أى الشمس : (٤)

---

(٤) دراسة الكتب المقدسة : ٤٥ .

ومن هذه الأخطاء أيضا ما تضمنته الآيات من ٦ - ٨ ، حيث جاء فيها : وقال الله : « ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد ، وكان كذلك ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوما ثانيا » أى حدث هذا فى اليوم الثانى

ويعلق بوكاى على هذا النص بقوله : « أسطورة المياه هنا تستمر بانفصالها إلى طبقتين ، بواسطة الجلد ، الذى سيجعل الطبقة العليا عند الطوفان . تنفذ من خلاله تمر لتنصب على الأرض ، إن صورة انقسام المياه هذه إلى كتلتين غير مقبولة علميا .

وتحتوى الآيات من ٩ إلى ١٣ على خطإ جسيم ، حيث جاء فيها : وقال الله : ﴿ **لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ، ولتظهر اليابسة ، وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة أرضا ، ومجتمع المياه دعاه «بحارا» ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا وشجرا ذاثمر يعمل ثمرا كجنسه ، بذره على الأرض وكان كذلك ، فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه ، وشجرا يعمل ثمرا ، بزره فيه كجنسه ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا** ﴾ .

يقول بوكاى : « ومقبول علميا أن القارات قد ظهرت فى مرحلة من تاريخ الأرض ، كانت هذه مغطاة بالماء ، ولكن أن يكون هناك فى تلك الفترة عالم نباتى ، ينتظم جيدا بالتناسل بالبذرة ، قبل ظهور الشمس ، التى تظهر كما يقول سفر التكوين فى اليوم الرابع ، وأن ينتظم تعاقب النهار والليل ، فذلك ما لا يمكن مطلقا القول به »

إلى غير ذلك من الأخطاء العلمية الواضحة التى تضمنتها رواية سفر التكوين فى حديثها عن خلق الكون والتى يعقب عليها «بوكاى» بقوله : « وهكذا إذًا تبدو الرواية الكهنوتية للخلق كبناء خيالى مبتكر ، كان يهدف إلى شىء آخر ، غير التعريف بالحقيقة » (٥)

---

(٥) دراسة الكتب المقدسة : ٤٥ .

ثانيا : تاريخ خلق العالم
وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض

وتقع نصوص التوراة فى خطإ عظيم حين تحدد تاريخ خلق العالم ، وتحدد تاريخ ظهور الإنسان على الأرض ، ويوضح « موريس بوكاى » هذا الخطأ الفادح بقوله : لأنه «لما كان التقويم اليهودى مؤسسا بالتوافق مع معطيات العهد القديم ، فإنه يحدد هذين التاريخين بدقة ، إن الجزء الثانى من عام ١٩٧٥م يتفق مع بداية العام ٥٧٣٦ منذ خلق العالم ، إذًا فالإنسان الذى يجىء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم نفس القدم ، الذى يحصيه التقويم اليهودى لخلق العالم.

ثم يوضح أكثر ، فيقول : « ولكى نكون أكثر قربا من الحقيقة ، لنقل إن خلق العالم بحسب التقرير العبرى يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد.

ثم يقول : ماذا يعلمنا العلم الحديث ؟ عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون ، وكل ما يمكن ترقيمه هو عصر تكون النظام الشمسى ، الذى يمكن تحديده زمنيا بتقريب مرضٍ ، ويقدر الزمن الذى يفصلنا عن تكون النظام الشمسى بأربع مليارات ونصف من السنوات ، وبهذا نقيس الهامش الذى يفصل الواقع الثابت اليوم عن المعطيات المستخرجة من العهد القديم ، إنها تنبع من دراسة دقيقة لنص التوراة »(٦)

وبهذا يتبين لنا أن التوراة تقول لنا إن العالم قد خلق منذ سبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد ، وأن الإنسان قد خلق مباشرة بعد خلق العالم . بينما يقدر العلم الحديث أن الزمن الذى يفصلنا عن تكون النظام الشمسى هو أربع مليارات ونصف مليار من السنوات ، إن الفرق بين ٣٧٠٠ سنة وأربع مليارات ونصف مليار سنة يوضح مدى التناقض الذى حوته التوراة ، مع معطيات العلم الحديث .

---

(٦) دراسة الكتب المقدسة : ٤٧ .

المدة الفاصلة بين آدم وإبراهيم عليهما السلام
والمدة الفاصلة بين إبراهيم والمسيح عليهما السلام

في كتابه «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» يتعرض موريس بوكاي أيضا لهاتين المدتين، ويبين استحالة أن تكون هاتان المدتان الموجودتان في سفر التكوين يمثلان الحقيقة، ثم يقول: «ونستطيع في عصرنا أن نعارض الحماة التقليديين لحقيقة التوراة باستحالة اتفاق المعطيات الحديثة، مع هذه التقديرات الوهمية، التي عملها الكهنة واليهود في القرن السادس قبل الميلاد» ثم يقول: «هناك إذًا استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية، لسفر التكوين، الخاصة بظهور الإنسان على الأرض، وبين أكثر المعارف تأسسا في عصرنا.»(٧)

وعن هذه النصوص وغيرها من التوراة، والتي تتناقض مع العلم الحديث يقول «موريس بوكاي»:

«وإذا أردنا أن نكون موضوعيين، فلا بد أن نقبل أن هذه النصوص التي وصلت إلينا لا تمثل تعبير الحقيقة، هل أنزل الله شيئا غير الحقيقة؟

الواقع أنه من غير الممكن تصور فكرة إله يعلم الناس الاستعانة بأوهام، بل بأوهام متناقضة.

وطبيعي أن يثير ذلك افتراض وجود تحريف بواسطة البشر إما في الأقوال المتوارثة التي انتقلت شفهيا، من جيل لآخر، وإما في النصوص، بعد تحديد هذه الأقوال المتوارثة.» ثم يقول: وعندما نعرف أن مؤلفا مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين، - وهذا على مدى ثلاثة قرون - فكيف ندهش حين نجد فيه أمورا غير معقولة، أوروايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء.»(٨)

---

(٧) دراسة الكتب المقدسة: ٥١.

(٨) المصدر السابق: ٥٤.

نموذج من أغاليط الأناجيل

أما أغاليط الأناجيل ، فنكتفى بنموذج واحد منها ، وهو ما يتصل بنسب المسيح عليه السلام . ، حيث وجدنا فى إنجيل متى ولوقا شجرتى نسبه عليه السلام ، وفيهما إشكالات لا يمكن أن تكون موافقة للحقيقة بحال.

وعلى ذلك يعلق بوكاى ، فيقول :

« تطرح شجرتا النسب اللتان يحتوى عليهما إنجيلا متى ولوقا مشاكل تتعلق بالمعقولية ، وبالاتفاق مع المعطيات العلمية ، ومن هنا فهى مشاكل تتعلق بالصحة ، وهى مشاكل تحرج جدا المعلقين المسيحيين ، فهم يرفضون أن يروا فيها ما هو بجلاء نتاج للخيال الإنسانى ، ثم يقول:

« ولقد ألهم الخيال الإنسانى كتاب سفر التكوين الكهنوتيين فى القرن السادس قبل الميلاد ، فى موضوع أنسال البشر الأول ، وهو أيضا الذى ألهم متى ولوقا بالنسبة إلى مالم يستلهمه هذان الكاتبان من العهد القديم »(٩)

ثم يذكر «بوكاى» وجوه الاختلاف الكثيرة بين شجرتى النسب فى كل من إنجيل لوقا ومتى ، بما يتضح معه التناقض الواضح بين الروايتين

هذا جزء من كل ، أو قل من كثر ، فيما جاء من تناقضات فى منتهى الوضوح ، بين نصوص التوراة والإنجيل ، ومعطيات العلم الحديث ، ولقد اعترف كثير من رجال الدين عندهم بكثير من هذه الأخطاء

جاء فى كتاب « المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية » للدكتور محمد الصادقى ، عن المتناقضات والاختلافات والأغلاط فى التوراة والإنجيل ، مانصه :

« وقد أنحاها « باركز » إلى ثلاثين ألفا ، والقسيس « ميل » إلى نيف ومائة ألف وكما يقول « كريسباج » و «شولز » إنها لا تحصى .

وفى دائرة المعارف البريطانية والفرنسية أنها زهاء مليون ، وقد يعترف بهذه الاختلافات الكثيرون ، مثل «اكهارن ، وكيسر ، وهيس ، وديوت ،

---

(٩) دراسة الكتب المقدسة : ١٠٥ وما بعدها .

وويز ، وفرش »[10]

وبعد

فإن دلت هذه الاختلافات والتناقضات والأغلاط على شيء فإنما تدل على أن ما بين أيدي اليهود والنصارى ليس من عند الله ، وإنما من عند جهلتهم ، الذين يبدلون ويحرفون ، حسبما يمليه عليهم جهلهم الواضح . ومعتقداتهم الكاذبة ، وأهواؤهم الضالة ، والفرق بين القرآن وما عندهم ، كالفرق بين علم الله وجهل خلقه .

(١٠) الكتاب المذكور : ص : ٤٠٨ ط التراث العربي ، بيروت

الخاتمة

وفى نهاية هذا الموضوع — موضوع أسرار إعجاز القرآن — لا يمكننا القول بحال من الأحوال أننا قد تكلمنا عن جميع تلك الأسرار ، فجميعها لا يحيط بها علما إلا من أنزل القرآن ، وفى كل فترة من الزمان يتبين للناس وجه جديد من وجوه إعجازه ، وفقا لما قاله الحق تبارك وتعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[1]

والذى أردنا أن نقوله فى هذا الكتاب هو أن القرآن بما اشتمل عليه يعلو طاقة الخلق جميعا ، فضلا عن رجل أمى مثل محمد بن عبد الله . إن العقل السليم ينسب إنتاجه العظيم لنفسه لا لغيره ، فكيف ينفى رجل مثل محمد هذا القرآن عن نفسه ، لو كان من تأليفه ؟ ، وإن أى مفكر ، بل إن أى رجل له ذرة من فكر يقرر أن محمدا لو كان كاذبا ، لكذب ونسب القرآن لنفسه ، لينال شرف عجز الإنس والجن عن الوصول إليه ، خاصة وأن المقام مقام تحد وتعجيز ، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2]

ولئن أغمض الجاحدون أعينهم ، وجعلوا الأقفال على قلوبهم ، والأغلال فى أعناقهم ، فالآفة من عندهم ، يقول المتنبى :

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

ورحم الله البحترى ، حيث يقول

أهز بالشعر أقواما ذوى سنة ... لو أنهم ضربوا بالسيوف ماشعروا

علىّ نحت القوافى من مقاطعها ... وما علىّ أن تفهم البقر

وختاما أسال الله تعالى أن يغفرلى ما فى هذا الكتاب من تقصير أو عدم توضيح جانب من جوانبه بما يليق وأهميته ، كما أساله تعالى أن يجعله فى ميزان حسناتى ، وحسنات والدى الكريمين ، وجميع أساتذتى ، وأن يحسن لى ولجميع المسلمين خاتمتهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) فصلت : ٥٣ (٢) الاسراء: ٨٨ .

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى
٣ - إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ، ط عيسى الحلبى
٤ - الأربعين فى أصول الدين ، لمحمد بن عمر الرازى
٥ - إرشاد العقل السليم ، لأبى السعود
٦ - أسباب النزول للواحدى
٧ - أسباب النزول للسيوطى
٨ - الإسلام بين العلم والدين ، ط دار الفكر ، للأستاذ شوقى أبو خليل
٩ - الإسلام فى عصر العلم ، د / محمد أحمد الغمراوى ، ط السعادة
١٠ - الأسلوب لأحمد الشايب ، ط النهضة المصرية
١١ - الإعجاز العلمى فى الإسلام ، لمحمد كامل عبد الصمد ، ط الدار المصرية اللبنانية
١٢ - إعجاز القرآن للباقلانى
١٣ - إعجاز القرآن للرافعى ، ط المقتطف بمصر
١٤ - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ، ط الخانجى
١٥ - آيات الله تعالى ، لمحمد وفاالأميرى ، ط دار الرضوان بحلب
١٦ - الإيمان والحياة ، د / يوسف القرضاوى
١٧ - بديع القرآن ، لابن أبى الأصبع المصرى ، ط نهضة مصر
١٨ - البرهان فى إعجاز القرآن للزملكانى
١٩ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى
٢٠ - بيان إعجاز القرآن للخطابى ، ط دار المعارف
٢١ - البيان والتبيين للجاحظ ، ط الخانجى بمصر
٢٢ - تاج العروس للزبيدى ، ط مكتبة الحياة بيروت
٢٣ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى
٢٤ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ط التجارية

٢٥ – التفسير الكبير للفخر الرازى ، ط الدار العلمية بطهران
٢٦ – تهذيب اللغة للأزهرى
٢٧ – ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ط دار المعارف
٢٨ – جامع البيان لابن جرير الطبرى
٢٩ – الجامع لاحكام القرآن ، للقرطبى
٣٠– جمهرة اللغة ، لابن دريد.
٣١ – الحيوان ، للجاحظ
٣٢ – خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، د / محمد على البار ، ط الدار السعودية .
٣٣ – دراسة الكتب المقدسة ، لموريس بوكاى ط دار المعارف
٣٤ – الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد.
٣٥ – دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى
٣٦ – الدين فى مواجهة العلم ، لوحيد الدين خان ، ط دار النفائس .
٣٧ – الدين والعلم الحديث ، لإبراهيم عبد الباقى ، ط المكتبة التجارية
٣٨ ديوان البحترى ، ط دار المعارف
٣٩ – ديوان المتنبى ، ط دار الكتاب العربى
٤٠ – الرسالة الشافية ، للجرجانى
٤١ – رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، ط دار صادر بيروت
٤٢ – روائع القرآن ، ، د / محمد سعيد البوطى
٤٣ – روح المعانى للآلوسى ، ط المنيرية
٤٤ – سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى
٤٥ – سنن الترمذى
٤٦ – سنن أبى داود
٤٧ – سنن ابن ماجه
٤٨ – السيرة النبوية لابن هشام
٤٩ – الشفاء للقاض عياض ، ط دار الفكر
٥٠ – الشوقيات ط المكتبة التجارية

٥١ – الصحاح للجوهرى
٥٢ – صحيح البخارى
٥٣ – صحيح مسلم
٥٤ – الصناعتين لأبى هلال العسكرى
٥٥ – ضحى الإسلام ، لأحمد أمين ، ط دار الكتاب العربى.
٥٦ – العبادة فى الإسلام ، د / يوسف القرضاوى ، مؤسسة الرسالة
٥٧ – العبودية لابن تيمية ، الطبعة السلفية .
٥٨ – عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى
٥٩ – العلم والإيمان . د / عبد الغنى الراجحى ، ط مجمع البحوث الإسلامية
٦٠ – فتح البارى ، للحافظ ابن حجر ، ط الخيرية .
٦١ – الفتوحات الإلهية لسليمان الجمل.
٦٢ – فتوح البلدان ، للبلاذرى
٦٣ – الفرق بين الفرق ، للبغدادى
٦٤ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم
٦٥ – فكرة إعجاز القرآن ، لنعيم الحمصى ، ط مؤسسة الرسالة
٦٦ – الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم
٦٧ – فيض القدير للمناوى
٦٨ – فى ظلال القرآن ، لسيد قطب ، ط دار الشروق
٦٩ – قالوا عن الإسلام ، د / عماد الدين خليل
٧٠ – القاموس المحيط ، للفيروز ابادى ، ط السعادة بمصر
٧١ – الكتاب المقدس.
٧٢ – الكشاف للزمخشرى ، ط الحلبى
٧٣ – كشف الخفاء للعجلونى ، ط دار إحياء التراث العربى بيروت
٧٤ – لسان العرب لابن منظور ، ط دار المعارف
٧٥ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط دار الكتاب العربى بيروت

٧٦ - المثل السائر لابن الأثير
٧٧ - المحاور الخمسة للقرآن الكريم ، للشيخ الغزالى ، ط دارة الصحوة
٧٨ - المحرر الوجيز لابن عطية ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٧٩ - المحلى لابن حزم ، ط دار الجيل
٨٠ - مختصر منهاج القاصدين ، لابن قدامه المقدسى
٨١ - المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ط النصر بالرياض
٨٢ - مسند أحمد بن حنبل.
٨٣ - المعجزة الكبرى القرآن ، للشيخ محمد أبو زهرة ط دار الكتاب العربى
٨٤ - معجزة القرآن لمحمد متولى الشعراوى ، ط دار العودى بيروت
٨٥ - معجم الأدباء لياقوت الحموى ، ط إحياء التراث العربى
٨٦ - المعجم الوسيط ، وضع مجمع اللغة العربية
٨٧ - المغنى لابن قدامة ، ط هجر
٨٨ - المغنى للقاضى عبد الجبار
٨٩ - مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ، ط الإنجلو المصرية
٩٠ - المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية ، د / محمد الصادقى ، ط التراث العربى
٩١ - مقدمة ابن خلدون ، ط الأعلمى ، بيروت
٩٢ - الملل والنحل للشهر ستانى ، ط دار الفكر
٩٣ - المنار ، لرشيد رضا ط دار المعرفة
٩٤ - مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى
٩٥ - منهج البلغاء ، لحازم القارطاجنى ، ط دار الكتب الشرقية بتونس
٩٦ - النبأ العظيم د / محمد عبد الله دراز
٩٧ - النبوات لابن تيمية ، ط دار الفكر
٩٨ - النظام الاقتصادى الإسلامى د م محمد عفر
٩٩ -النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ، ط دار المعارف
١٠٠- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى، ط المكتب الثقافى

الفهرس

الفصل الرابع

معارضة القرآن الكريم

الفصل الخامس

الصرفة ليست سببا فى الإعجاز

الباب الثانى

وجوه إعجاز القرآن

الفصل الأول : الوجه الأول : الإعجاز البيانى .

المبحث الأول

بين فصاحة العرب وبلاغتهم ، وفصاحة القرآن وبلاغته

المبحث الثانى

النظم القرآنى للحروف

المبحث الثالث : الأسلوب القرآنى

الفصل الثانى

الوجه الثانى من وجوه الإعجاز : الإعجاز النفسى

الفصل الخامس

الوجه الخامس من وجوه الإعجاز : الإعجاز العلمى الحديث